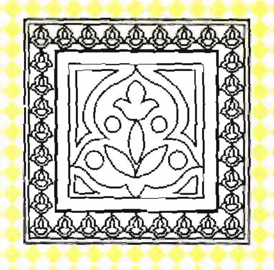


التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي

أيوب دخل الله





سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي

أيوب دخل الله
التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي
المكتبة العصرية

التربية الإسلامية
عند الإمام الغزالي

سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي
إشـــراف
الدكتور محمد منير سعد الدين

التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي

أيوب دخل الله

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ . - ١٩٩٦م.

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٣١٧

تقديم

تعاني المكتبة العربية من فقرٍ شديدٍ في الكتابات الحديثة حول موضوع التربية الإسلامية رغم ما نشر؛ فنحن بأمس الحاجة لأن نسبر أغوار هذه التربية ونكشف جوانبها لتعميق فهمنا لها والاستفادة من إيجابياتها في تنشئة الأجيال من أبنائنا التنشئة الصحيحة.

والكتاب الذي بين أيدينا هو أحد الكتب في سلسلة نسعى من خلالها لنشر ما يتعلق بالتربية الإسلامية ومن أحرى بالقيام بهذا من أبناء هذه التربية الذين يلاحظون مدى إغفال مراجع تاريخ التربية المؤلفة في الغرب لموضوعها على الرغم من ذلك الازدهار الذي عاشته الحضارة العربية الإسلامية عامة والتربية الإسلامية خصوصاً في العصور الوسطى، واعتماد النهضة الأوروبية في غذائها الفكري والثقافي على نتاج هذه الحضارة.

من هنا انطلقنا في هذه السلسة التي هي خطوة متواضعة نأمل أن تسد حاجة قائمة تهم كل المشتغلين بالتربية والمعنيين بأمرها.

والحديث في هذا الكتاب حديث ورحلة ممتعة مع الإمام الغزالي الفقيه والاجتماعي والصوفي والمربي. إنه موسوعة عصره في مجالات معرفية متعددة ومنها المجال التربوي.

وقد أجاد الباحث وبذل جهداً يقدّر ويثمّن في تقديم باقة عطرة لآراء وأفكار الإمام الغزالي التربوية حيث عرض هذه الأفكار والآراء وحللها وفسرها.

ولقد لاحظت على الأخ أيوب وهو يحضّر رسالة الماجستير قدرته على

القراءة واستيعاب ما يقرأ، وتنظيم ما يقرأ وفق نسق فكري علمي، نسق المفكر الباحث الذي يسعى للحقيقة أينما وجدها، وهكذا كانت دراسته عن التربية الإسلامية عند الإمام الغزالي والتي حصل عليها على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية، وكان موضع تقدير من لجنة المناقشة، وقد توخينا أن لا تبقى هذه الدراسة على أرفف المكتبات تعلوها الغبار، ويأكلها العث، بل لتكون علماً ينتفع به المهتمون في مجال التربية الإسلامية.

وما نرجوه أن يجد القارىء في هذا الكتاب وغيره من سلسلة الكتاب التربوي الإسلامي النفع والفائدة.

والله ولي التوفيق.

د. محمد منير سعدالدين

شكر وتقدير

لقد جعل الله الشكر مفتاح كلام اهل الجنة فقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾(١). والشكر كما يقول الغزالي «ينتظم من علم وحال وعمل. فالعلم هو الأصل فيورث الحال، والحال يورث العمل. فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم. والحال هو الفرح الحاصل بأنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه»(٢).

أما وإني قد انتهيت من إعداد هذا البحث لا يسعني إلا أن أتوجه بالشكر للعلي القدير على ما وفقني إليه.

ويجدر بي في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ الدكتور نايف معروف على ما قدمه لي من نصح وتوجيه وإرشاد لإغناء البحث وإثرائه.

كما أتوجه بالشكر والتقدير إلى المربي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد منير سعدالدين على ما خصني به من رعاية، وما قدم لي من توجيه وإرشاد سهّل لي مهمتي ويسّر لي طريقي.

ولا بد من توجيه الشكر إلى كافة العاملين في كلية الإمام الأوزاعي على ما قدموه من مساعدة، خاصة الأخوة والأخوات العاملين في مكتبة الكلية، هذا إلى جانب شكري وتقديري لجميع العاملين في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت وجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية وجامعة بيروت العربية.

---

(١) سورة الزمر، آية: ٧٤.

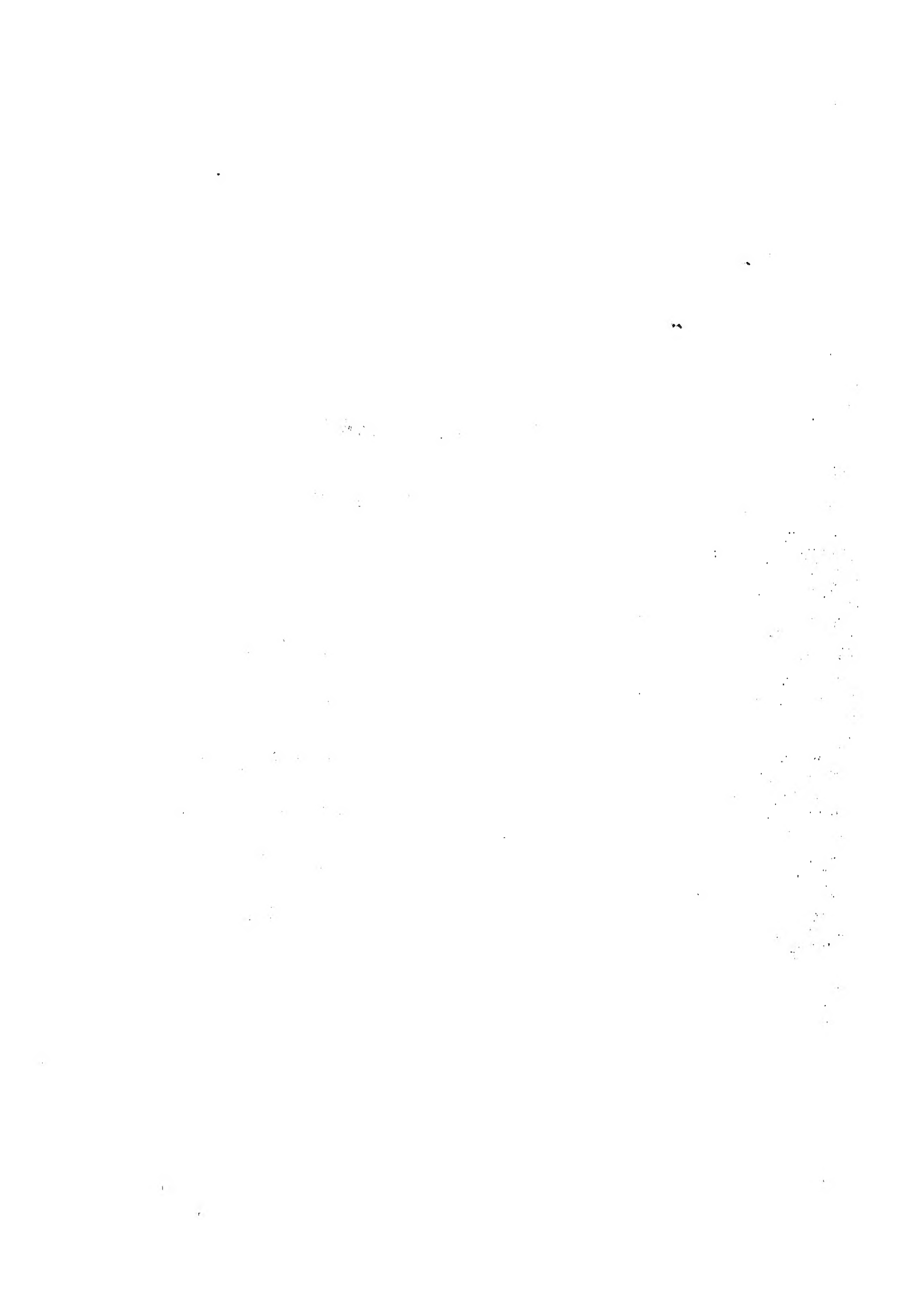
(٢) الغزالي: احياء علوم الدين، ج٤، ص٨٦.

كما أوجه الشكر إلى كل يد بيضاء ساعدت في إعداد هذا البحث وإخراجه، والله اسأل أن يجعل جهدنا جميعا فيه خالصا لوجهه تعالى فيما يحب ويرضى من خير للإسلام والمسلمين إنه سميع مجيب.

الفصل التمهيدي

الإطار العام للبحث

- مقدمة
- مشكلة البحث
- الهدف من الدراسة
- منهج البحث
- الدراسات السابقة
- حدود البحث
- خطوات البحث



ـ مقدمـة

إن مصاحبة الإمام أبي حامد الغزالي في كتاباته لمهمة شائكة وشيّقة. فالبحث عن اللآليء في بحر لجي، يحتاج لمهارة وكد وإعمال فكر، لولوج الطريق، وبلوغ المرام، ومن ثم ضمان العودة بسلام.

والتربية عند الغزالي، لا يمكن فصلها عن الفكر الإسلامي وبالتالي فإن رسالة التربية عند الغزالي، وجه من وجوه التعبير عن التربية الإسلامية، «ومنطق الأشياء يقضي بأن نحكم على الغزالي... في ضوء الفكر الإسلامي الذي يفترض أن يكون... متأثراً به وليس العكس»[(١)].

فموضوع التربية والتعليم موضوع عظيم الشأن إستأثر باهتمام جميع الأمم عبر كل العصور. واهتم به العلماء والمفكرون فكتبوا فيه الكتب وألفوا فيه الرسائل ومازالوا على هذا النهج سائرين. وليس هذا بغريب لأن التربية والتعليم أساس كل تقدم وإصلاح، وعنوان كل تغيير ونهضة، والطريق الموصل إلى تهذيب النفوس وتثقيف العقول وبناء الأمم.

والمسلمون كانوا سباقين لغيرهم في هذا المجال، فقد عالج أئمتهم ومفكروهم وعلماؤهم موضوع التعليم منذ العهود الأولى وكانت لهم مواقف وآراء طريفة، ومناهج أصيلة في هذا المضمار.

---

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة أيها الولد)، ص١٠.

وبما أن الإسلام منهج حياة شامل ومتكامل، فلا ضرر أن تكون التربية ملازمة له منذ بزغ فجره، وانتشر نوره، على يد الرسول الكريم «الذي أرسله الله تعالى إلى الناس كافة يعلمهم أمور دينهم ودنياهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول معلم في الإسلام. وقد قامت التربية الإسلامية منذ بدء ظهورها على أمرين هما القرآن والسنّة. فلا غرابة أن يمتاز الإسلام بضرب خاص من التربية تختلف في أهدافها ووسائلها عن ألوان التربية الأخرى التي سادت حضارات شتى على مرّ الزمان واعتمدت دعائم مغايرة لتعاليم الإسلام»[١].

فليس غريباً إذن على عالم كالإمام الغزالي أن يقتفي أثر الرسول ويسير على نهجه في تقدير العلم والعلماء وجعل التعليم رسالته في هذه الحياة... وهكذا كان. فلقد قضى الغزالي حياته في التعليم، تارة متعلماً وطوراً معلماً إلى أن سعد بلقاء ربه.

ـ مشكلة البحث

إن المتتبع لتاريخ التربية يجد أن الذين كتبوا في هذا المجال خاصة الغربيين منهم أمثال «بول مونرو» و«جود» و«روبرت يوليك» قد أهملوا دور الإسلام ومفكريه. ولئن كان هناك إلتفاتات في السنوات الأخيرة فهي لا تتعدى السطور، ولا تشمل من المعلومات إلا النزر القليل، الشيء الذي يسيء إلى التربية بشكل عام، علاوة على أنه لا يفي بقدر علماء عظماء كالغزالي وإبن خلدون وغيرهما من مفكري المسلمين الذين «أدركوا أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وعرفوا أن لا بد من أن يضاف إلى المعلم فن التربية ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل والنزول إلى مستواه، والإتصال العاطفي به، ليكون ذلك جسرا يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ»[٢].

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام، ص٨.

(٢) أحمد شلبي: التربية الإسلامية، ص٢١٠.

«والذي ينظر إلى العالم الإسلامي يجد أن صراعا يدور به، وهذا الصراع الفكري يهتم به اعداء الإسلام كل اهتمام. وهدفهم منه تقليل ثقة المسلمين بأنفسهم وانتزاعهم من ماضيهم وقطعهم عن جذورهم العريقة، وللأسف وقع بعض المسلمين في الفخ فصدقوا ما قاله أعداء الإسلام وراحوا يرددون أقوالهم ويقللون من أهمية المسلمين حتى أوشك الصراع الفكري أن يحقق أهدافه»(١).

ولمواجهة هذا الواقع نجد أنه لزاماً علينا أن نتحرك بوحي من إيماننا بعقيدتنا وفكرنا للوقوف أمام «تحديات فقدان الذاتية والأصالة الإسلامية الأمر الذي نتج عنه فرض المناهج الغربية في شتى نواحي الحياة وبخاصة في ميدان التربية والتعليم ووضعها موضع التطبيق»(٢). فكان لا بد ان ننفض غبار الجمود وندفع عن أنفسنا رغبة الغرب في العدوان حتى نحفظ كياننا. وهنا تبرز أهمية مشكلة التربية الإسلامية إلى الواجهة لتصبح موضع تفكير كل مسلم غيور يتطلع إلى مستقبلٍ يرى فيه التربية الإسلامية المعاصرة تنير أرجاء هذه المعمورة.

وعندما نتكلم عن التربية الإسلامية عند الغزالي، فإننا لا ندعو إلى تربية إسلامية لا تتلاءم مع العالم الذي نعيش فيه لأننا ندرك أن «التربية الإسلامية ليست تربية محافظة فحسب، وإنما هي تربية مجددة أيضا، فالإسلام صالح لكل زمان ومكان، والمسلمون تتجدد أحوالهم بتجدد ظروف هذا الزمان والمكان. ولذلك كان على التربية الإسلامية أن تكون متجددة لتواجه متطلبات العصر ولتفي بالمطالب المتجددة لحاجات المسلمين ومصالحهم»(٣).

ـ الهدف من الدراسة

إن المتتبع لآراء الغزالي التعليمية والتربوية يرى أنها تعكس فكره الديني، فلقد حدد أهداف التربية وطرائق التعليم، إضافة إلى أنواع العلوم وأولوياتها، وما

---

(١) أحمد شلبي: تاريخ المناهج الإسلامية، ص٢١ ـ ٢٢.

(٢) عبد الغني النوري: التربية الإسلامية بين الإصالة والمعاصرة، ص٥٢.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يترتب على كل من المعلم والمتعلم من أداب، بشكل يمكننا من القول إنَّ الغزالي قد نجح في تقديم نظامٍ تربوي إسلامي ملبياً لحاجات المجتمع الإسلامي في العصر الذي عاش فيه، بإسلوب ومنهج يتمشى مع روح العصر وخصوصياته. وبهذا يكون الإمام قد أسهم إسهاما فاعلاً في دفع عجلة التربية إلى الأمام.

ونود من خلال هذا التنويه أن يدرك القاريء الكريم إنّ الهدف من البحث لا يقف عند حدود إحقاق الحق وإبراز دور المفكرين المسلمين وإسهاماتهم في الحضارة الإنسانية أو الكشف عما قدم الإسلام والمسلمون للبشرية جمعاء، إنما يتعدى ذلك - في محاولة متواضعة - للسعي باتجاه وضع الماضي في خدمة الحاضر والمستقبل، سيراً على خطى السلف الصالح في التمسك بالفكر الإسلامي ليقودنا إلى ما فيه صلاح ديننا ودنيانافي زمن «أصبحت المادة والتكنولوجية الحديثة هي الهدف الذي نسعى إليه وأصبح الكون هو مبحثنا العلمي. ونسينا أن نفكر في خالق هذا الكون، كما نسينا أن نبحث في أنفسنا حتى يكون هناك توازن بين الفكر المادي والإحساس الروحي»[١]. هذا الأمر شجع التربويين على الاستغراق في دراسة «نظريات التربية الأجنبية ألتي لا صلة لها بالدين والإسلام. واشتملت صفحات مؤلفاتهم على نظرية أفلاطون التربوية ونظريات روسو وديوي. . . أما نظرية التربية في الإسلام فلم نجد لها ذكرا في الكتب التربوية العربية أو الأجنبية»[٢]. وكان أن «درس الطلاب العرب هذه النظريات، وخرجوا منها بفلسفات متعددة وطرائق في التدريس شتى ثم تركوا لحالهم يعتمدون على أنفسهم في اختيار الفلسفة التعليمية التي تناسبهم. . . وأصبح مصير العملية التعليمية متوقفاً على قدرة وكفاءة كل معلم من الناحية الشخصية»[٣].

---

(١) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص٦.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بناء عليه فإن اهتمامنا في تقديم الفكر التربوي الإسلامي عند الغزالي بصياغة ومنهجية تتلاءم وحاجات العصر التربوية يهدف إلى عمل شيء ما على طريق مواجهة أزمة التربية الإسلامية والسعي لإيجاد نظام تربوي إسلامي يعيد إلينا كرامتنا ويعود بنا إلى الإسلام الذي كان ومازال وسيبقى العلاج الشافي من كل إنحطاط وتخلف.

ـ منهج البحث

لا بد عند أية دراسة أن يختار الباحث طريقة البحث التي تتناسب ومسار بحثه، خاصة وأن البحوث التربوية تتنوع طبقا لطريقة إجرائها، وأفضلها خمسة أصناف:

١ ـ طريقة البحث التاريخي.

٢ ـ طريقة البحث الوصفي.

٣ ـ طريقة البحث الارتباطي (العلائقي).

٤ ـ طريقة البحث المقارن.

٥ ـ طريقة البحث التجريبي[1].

وفيما يتعلق بالطريقة الأولى للبحث يهتم الباحثون بالمنهج التاريخي بصفة خاصة، لاتساع المجالات التي يستخدم فيها. فإلى جانب تطبيقه على المادة التي يطلق عليها التاريخ، يستطيع الباحث أن يستخدمه أيضاً في مجال العلوم الطبيعية والقانون والطب وغيرها، للتحقق من معنى الحقائق القديمة وصدقها، أي أن الباحث قد يستخدم أساليب البحث التاريخي حتى إذا لم يشتغل بدراسة تاريخية بحتة[2].

أما بالنسبة لطريقة البحث الوصفي «يسعى الباحثون إلى أكثر من مجرد الوصف، فهم ليسوا أو ينبغي ألا يكونوا مجرد مبوبين أو مجدولين، يجمع

---

(١) محمد سامي هنا: نشرة صادرة عن الرئاسة العامة لوكالة الغوث الدولية E/.r.1/87، ص٦.

(٢) فان دالين: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ف ٩، ص٢٧٢.

الباحثون الأكفاء الأدلة على أساس فرض أو نظرية ما ويقومون بتبويب البيانات وتلخيصها بعناية ثم يحللونها بعمق في محاولة لاستخلاص تعميمات ذات مغزى تؤدي إلى تقدم المعرفة»[1].

وحيث إن طبيعة البحث الذي نحن بصدده تستند إلى حقائق تاريخية لا بد من إيرادها، وآراء فكرية وتربوية، تحتاج في كثير من الأحيان إلى تحليل وتعليق وتصنيف، ارتأيت أن يقوم منهج الدراسة على طريقة البحث التاريخي والوصفي، على أمل أن يكون ذلك عاملاً فاعلاً في تحقيق الأهداف المخطط لها بعونه تعالى.

ـ الدراسات السابقة

لا شك أن هناك عددا من الدراسات والبحوث القيمة سبق أن تناولت الفكر التربوي عند الإمام الغزالي. إلا أن هذا لا يلغي الحاجة لمزيد من الدراسات التي قد توفق في الوصول إلى إضافات جديدة قد تلقى مزيداً من الضوء على الفكر التربوي الإسلامي بشكل عام والتربية عند الإمام الغزالي بشكل خاص، حيث الحاجة ماسة في هذه الأيام لإيجاد نظام تربوي يلبي حاجات المجتمع الإسلامي في كافة الحقول ومختلف المجالات.

ومن الدراسات التي تطرقت للفكر التربوي عند الإمام الغزالي:

١ ـ بحث تحت عنوان: المذهب التربوي عند الغزالي، أعدته فتحية حسن سليمان للمشاركة في المؤتمر الذي عقد بدمشق احتفاء بالذكرى المئوية التاسعة لميلاد الغزالي وذلك من ٢٧ إلى ٣١ آذار سنة ١٩٦١. وبين يدي نسخة عن البحث المذكور.

٢ ـ بحث تحت عنوان: أبو حامد الغزالي فلسفته وآراؤه في التربية والتعليم، وهو عبارة عن دراسة قدمها محمد نبيل نوفل لنيل درجة الماجستير عام

---

(١) المرجع السابق ف١٠، ص٣١٣.

١٩٦٧. ومازال البحث غير منشور في كلية التربية في جامعة عين شمس ـ القاهرة.

٣ ـ بحث تحت عنوان: التوجيه الإسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، تقدم به عارف مفضي البرجس ونال بموجبه درجة الماجستير من جامعة عين شمس ولقد قام صاحب البحث بنشره عن طريق دار الفكر العربي سنة ١٩٨٢. وبين يدي الطبعة الثانية الصادرة عن دار الأندلس بيروت سنة ١٩٨٣.

٤ ـ بحث بعنوان: الفكر التربوي عند الغزالي، كما يبدو من رسالته «أيها الولد»، بقلم عبد الغني عبود. ولقد قام بنشره عن طريق دار الفكر العربي سنة ١٩٨٢ وكان هدف البحث «استخراج الفكر التربوي عند الغزالي»[١].

٥ ـ بحث بعنوان: «الفكر التربوي عند الإمام الغزالي، إعداد عبد الأمير شمس الدين قامت بنشره دار اقرأ، بيروت. وبين يدي الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

٦ ـ بحث تحت عنوان: نظرية التربية الخلقية عند الإمام الغزالي، إعداد عبد الحفيظ أحمد علاوي البريزات صادر عن دار الفرقان بعمّان عام ١٩٨٤.

٧ ـ بحث تحت عنوان: ملامح الفلسفة التربوية التعليمية عند الغزالي، صادر عن المعهد التربوي الوطني بجامعة محمد الخامس في الرباط.

٨ ـ بحث تحت عنوان: الغزالي ووصاياه التربوية، في حلقة بناء الطفل في الخليج العربي، صادر عن جامعة البصرة عام ١٩٧٩.

هذا إلى جانب عدد من الآراء التي جاءت على شكل مقالات[٢] أو فصول في كتب تحدثت عن التربية الإسلامية منها: التراث التربوي الإسلامي في خمس

---

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص١٢.

(٢) أ ـ مروان قباني: «النسق التربوي عند الغزالي في ضوء رسالة أيها الولد»، الفكر العربي س٣: ع٢١ (١٩٨١)، ص ١٠٣ ـ ١١٣.

ب ـ حان كميد: «آراء الغزالي التربوية»، الإداري، س٧: ع١١ (١١/ ١٩٨١)، ص٦٦ـ٦٧.

ج ـ فضيلة عباس مطلك: «تعليم الناشئة وتهذيبهم عند الغزالي»، دراسات تربوية وإسلامية س٣: ع٣(١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م)، ص٣٠٧ ـ ٣٢٠.

مخطوطات جمعه وحققه هشام نشابة، وكتاب في مجالات الفكر التربوي تأليف لطفي بركات احمد.

ولا يمكن بحال من الأحوال التقليل من أهمية هذه الأبحاث، خاصة وإني رجعت لمعظمها واستفدت منها فيما أنا بصدده من دراسة تبقى عرضة للخطأ. وعلى أية حال تبقى هذه الدراسات رصيداً علمياً وتربوياً هاماً لكل طالب علم أو باحث في مجال التربية الإسلامية بشكل عام، والتربية عند الإمام الغزالي بشكل خاص.

ـ حدود البحث

إن موضوع بحثنا يتناول التربية الإسلامية كما عبر عنها الغزالي في عدد من مؤلفاته، خاصة في كتاب «إحياء علوم الدين» الذي يحتوي على مجمل فكر الغزالي بما فيه قطاع «التربية والتعليم». كما وأن هناك مصادر اخرى للإمام في هذا المجال مثل «الرسالة اللدنية» و«ميزان العمل»و«فاتحة العلوم». ولكنها لا تخرج أو لا تزيد عما جاء في «الاحياء». هذا بالإضافة إلى رسالة «أيها الولد» التي تعد من أبرز ما كتب الغزالي في موضوع التربية والتعليم. وإذا «صح ترجيح صاحب كشف الظنون بأن منهاج المتعلم هو من تأليف الإمام الغزالي ـ نكون ـ قد. . . اضفنا. . . إضافة تلقي ضوءاً جديداً على فكر حجة الإسلام الغزالي»[1]. إلا أننا لم نعتمد هذا الكتاب لأنه لم يرد في «وفيات الأعيان» ولا في «شذرات الذهب» ولا في «الوافي بالوفيات» ولا عند ابن عساكر في «تاريخ دمشق».

ولئن صبغت أفكار الغزالي بصبغة صوفية لأسباب تتعلق بالرجل والعصر الذي عاش فيه، إلا أنها تنبع من معين الكتاب والسنة. فالتصوف في نظر الغزالي «ليس إلاّ تطبيق الكتاب والسنة تطبيقا حقيقيا يشترك فيه الجسم والروح والقلب والنفس وكل الجوارح الظاهرة والباطنة»[2].

---

(١) هشام نشابه: التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، ص٤٩.

(٢) الغزالي: أيها الولد، (القسم الدراسي)، ص٣٣ ـ ٣٤.

وبما أن التربية عند الغزالي نتاج العقيدة الإسلامية التي آمن بها الإمام الغزالي حيث مكنته من تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بخالقة وبأخيه الإنسان ومن ثم بالكون وما سيؤول أمره إليه فكان لا بد من الحديث عن العقيدة الإسلامية كما فهمها وعبر عنها الغزالي، وهذا ما يشير اليه عبد الغني عبّود عندما يقول «التربية الغزالية لا تنبع عند الغزالي من فراغ أو من مجرد شطحات فلسفية أو صوفية وإنما تنبع من فهم معين للإسلام كان يقف وراء كل فكرة فكر فيها، ولفظة قالها للتعبير عن هذه الفكرة»[1].

فالغزالي واحد من العلماء القلائل الذين نجحوا في الكشف عن حقائق الإسلام وإبراز وجهه الحضاري، إضافة إلى أنه كانه مربيا آمن بأهمية التعليم في نشر الفضيلة، فاشتغل به ـ أسوة بالرسول الكريم ـ ولم يطلب على إفادته أجراً بل سعى كي يعلم الناس لوجه الله تعالى وطلبا للتقرب إليه، إستجابة لقول تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[2].

لذا فإن الفكر الإسلامي سيكون بمثابة النور المصاحب لمسيرة البحث بهدف إلقاء الضوء على الفكر التربوي عند الغزالي الذي استطاع أن يعبّر عنه ويبرز أصوله وتطبيقاته التربوية اللازمة التي حدد على أساسها إطار مذهبه التربوي. وهذا ما سنسعى للكشف عنه من خلال تتبع الآراء التربوية عند الغزالي في المواقع التي سبق وأشرنا إليها.

ـ خطوات البحث

يتكون البحث من عشرة فصول:

الفصل الأول: إن البيئة لها بالغ الأثر على تشكيل الشخصيات الإنسانية في مختلف الحقول. والغزالي واحد من المفكرين الذين أثروا وتأثروا بالبيئة العامة

---

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص ٣٣.

(٢) سورة الشعراء، الإيتان: ١٠٩، ١٢٧.

التي أحاطت بهم. لذلك يتمحور هذا الفصل حول العصر الذي عاش فيه الغزالي لتعريف القاريء بالأحوال السياسية والدينية والفكرية والإجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في أيامه والتي تسهل على القاريء فهم أبعاد الفكر التربوي عند الغزالي وأهدافه.

الفصل الثاني: يدور حول حياة الغزالي إنطلاقاً من أهمية ذلك في إلقاء الضوء على فكره التربوي ـ كما سبق وتمت الإشارة إلى ذلك ـ خاصة وأن سيرة حياته قد أثارت جدلا في بعض محطاتها البارزة.

الفصل الثالث: يتطرق البحث في هذا الفصل لموقف الغزالي من التيارات السياسية والفكرية والدينية والاجتماعية والعلمية التي شهدها عصره، انطلاقا من أهمية ذلك في توضيح دلالات آرائه التربوية التي شكلت بمجموعها إطاراً شاملا لفكره التربوي.

الفصل الرابع: يدور حول نظرة الغزالي العقدية ـ لله والكون والإنسان والمجتمع والحياة الآخرة ـ على أساس أن العقيدة تشكل المرتكز الأساسي لفكره التربوي. ومعلوم أن التربية الإسلامية في ربطها بين العقيدة والسلوك تجعل العمل نابعاً من العقيدة، التي تشكل بدورها أساسياً لكل فعل، وتحدد نوع العلاقة التي يجب أن تربط الإنسان بخالقه وبالكون وبأخيه الإنسان وباليوم الآخر. وهو الهدف الذي سعى لتحقيقه الغزالي من خلال العمل على الإرتقاء بهذه العلاقة لتبلغ درجة «أحسن تقويم» حسب تعبير القرآن الكريم، و«القرب من الله» حسب ما أشار الغزالي لذلك.

الفصل الخامس: يحاول الباحث أن يحدد مفهوم التربية في نظر الغزالي وأهميتها وأهدافها إنطلاقا من كونها رسالة وليس مجرد مهنة هدفها الارتزاق وكسب العيش.

الفصل السادس: يدور حول مجالات التربية المختلفة عند الإمام الغزالي لجهة كون التربية الإسلامية تربية متكاملة تعنى بكافة جوانب شخصية الإنسان،

ولذلك كان لا بد من الحديث عن كل من التربية: العقلية والأخلاقية والروحية والنفسية والجسمية والاجتماعية كما عبّر عنها الغزالي في ضوء تعاليم الإسلام.

الفصل السابع: يدور البحث في هذا الفصل حول المنهاج الدراسي الذي إعتمده الغزالي من أجل تحقيق أهدافه التربوية، انطلاقاً من حاجات المجتمع الإسلامي في ذلك العصر. هذا إلى جانب إظهار رأي الغزالي في عدد من العلوم على ضوء منهاجه الدراسي الذي شكل مدخلاً من المدخلات المهمة في إطار رسالته التربوية.

الفصل الثامن: يدور هذا الفصل حول طرائق التربية الإسلامية التي اعتمدها الغزالي على ضوء الأهداف التي خطط لتحقيقها، معتمداً في ذلك على ما جاء في الكتاب والسنّة من تعاليم، كانت بمثابة الإطار النظري الذي ساعد على اعتماد هذه الطرائق التي أثبتت فعاليتها في عملية بناء الشخصية الإسلامية عبر العصور المختلفة وخاصة زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلّم.

الفصل التاسع: يدور حول العوامل الفاعلة وذات الأثر في تربية الإنسان. إذ يستحيل أن تتم مثل هذه العملية أو تؤتي ثمارها دون أن تتوافر أسبابها الموضوعية والمتمثلة في العوامل الوراثية والبيئية التي تشكل القاعدة الأساسية في تحديد السمات المميزة للفرد محور العملية التربوية. وهذا ما أكد عليه الغزالي في مواقع مختلفة إيماناً منه بأهمية هذه العوامل وأثرها البالغ في العملية التربوية. حيث تشكل البيئة عاملاً مساعداً للوراثة التي تقضي بتعيين العوامل الثابتة في الشخصية بينما تعيّن البيئة العوامل المتغيّرة.

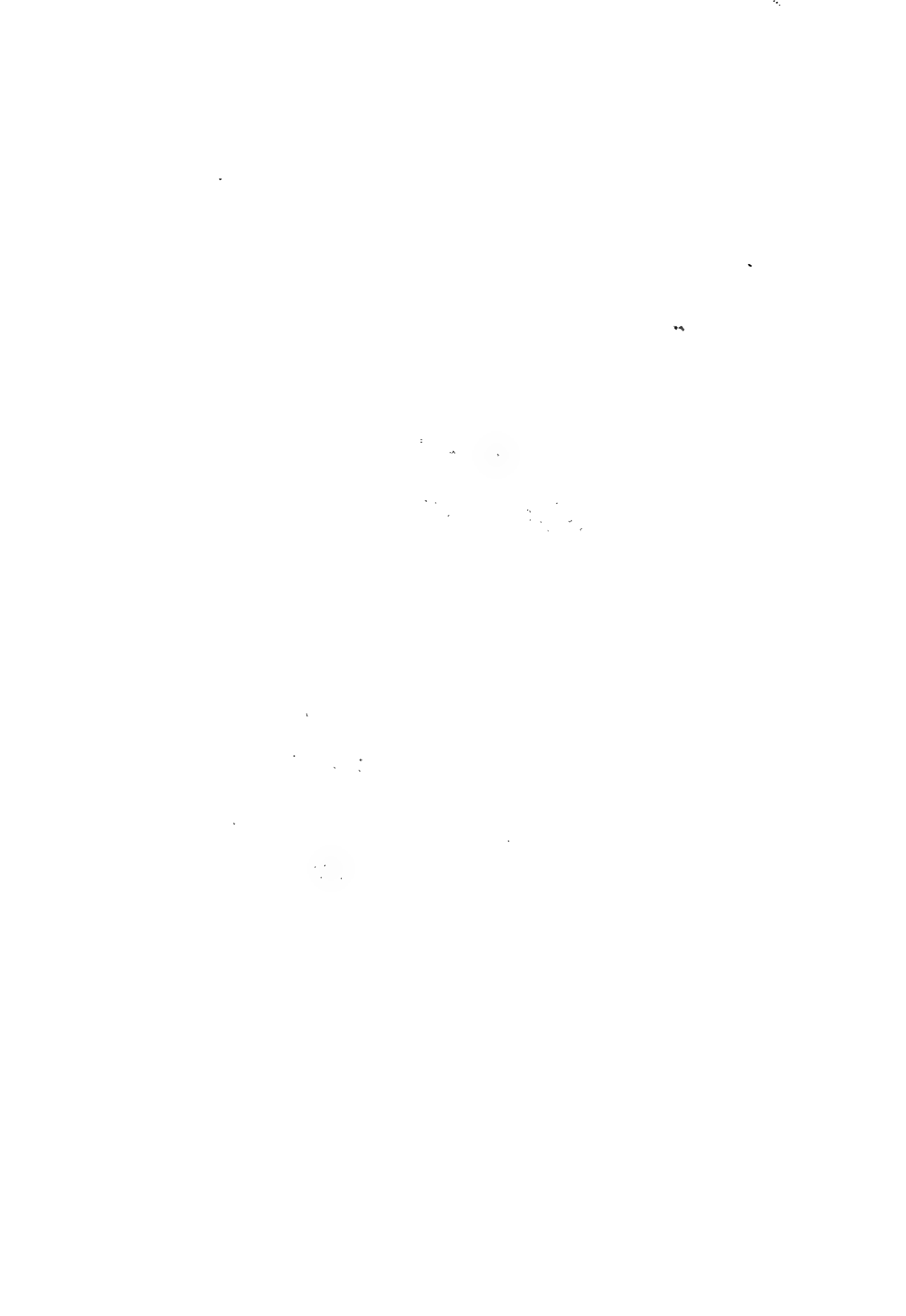
الفصل العاشر: معلوم أن هناك خصائص تميّز الإسلام عن غيره من الديانات لهذا فإن من الطبيعي أن تستند التربية الإسلامية إلى مجموعة من الأسس التي تشكل بمجملها الإطار العام المميز لمنهج التربية الإسلامية عن غيره من المناهج. وهذا ما سعى الباحث لعرضه ـ في هذا الفصل ـ من خلال فكر الغزالي ونظرته العقدية للخالق والإنسان.

وبهذا نأتي إلى نهاية البحث في التربية الإسلامية عند الغزالي التي تقوم على إيمانه بأن الإنسان -خليفة الله في هذه الأرض، وأن هذا الإنسان - الذي يمثل أرقى الكائنات وأفضلها - كل متكامل من جسد وروح وعقل، أي انه وحدة مترابطة لا يمكن أن ينفصل منه جسم عن عقل أو عقل عن روح. ولذلك فالتربية حسب الغزالي يجب أن تعنى بكل هذه المكونات وأن لا تبخسها قدرها أو تعطيها أكثر من استحقاقها. أملا في الوصول إلى الهدف المتمثل في القرب من الله تعالى، وبالتالي تحقيق سعادة الدنيا والآخرة.

الفصل الاول

عصر الامام الغزالي

- مقدمة
- الأحوال السياسية.
- الأحوال الدينية والنشاطات الفكرية.
- الأحوال الاجتماعية.
- الأحوال الاقتصادية.
- الأحوال الثقافية.



ـ مقدمة

إن السعي لمجانبة الحقيقة والتزام الصدق والأمانة العلمية في مجال الأبحاث الفكرية لا يتأتى إلا من خلال الإحاطة بالظروف الإجتماعية والفردية الخاصة بالشخصية موضوع البحث، لما لهذه العناصر من تأثير على الفكر الإنساني، الذي لا بد وأن يكون نتاج تجربة عاشها الفرد سواء كانت خاصة تتعلق به، أم إجتماعية ترتبط بالظروف البيئة المحيطة.

«فالتربية بطبيعتها عملية مشروطة بالزمان والمكان ويستحيل على الباحث التربوي أن يحيط علما بأي نظام تربوي وأن يقف على حقيقة أمره في مجتمع من المجتمعات، دون أن يتعرف على الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية المحيطة به، فدراسة هذه الأبعاد ليست من قبيل العمل التمهيدي للبحث، وإنما جزء أساسي له لأن التربية تشتق أهدافها ونظامها ومنهجها من المجتمع وتتأثر بفلسفته وإيديولوجيته»[١].

وشاءت إرادة الخالق أن يعيش الغزالي في عصر كان يتفجر بالحوادث ويغلي بالفتن والدسائس والمؤامرات... حيث امتازت الحياة الاجتماعية بالانقسامات الحادة وسيطر جو من القلق والاضطراب على بعض نواحي الحياة.

فالبيئة الإجتماعيه في البلاد الإسلامية شهدت امتزاجا للعرب مع غيرهم من

---

(١) أمينة أحمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص١١.

الشعوب... وكان لهذا التمازج أثره الكبير والخطير على الأخلاق والمعتقدات والقيم. فلقد «ماج العراق أيامها بعناصر عرقية مختلفة من عرب وفرس وأتراك وغيرهم، وعصبيات دينية طائفية ومذهبية من مسلمين ويهود ونصارى وسنة وشيعة وحنابلة وشافعية وحنفية، كل هذه الفئات كان يموج بها الشرق الإسلامي بعامة والعراق بخاصة»[١].

فكان لا بد أن تتأثر الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية نتيجة الاحتكاك والتفاعل بين هذه العناصر العرقية والدينية والمذهبية المتناحرة. ولقد كان لذلك عميق الأثر على الاتجاهات الفكرية والتربوية إضافة إلى أنه عمل على تحديد مسارها في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي.

من هنا تبرز أهمية التعرف على الأوضاع المختلفة التي تميّز بها العصر السلجوقي لما لذلك من أهمية في إلقاء الضوء على الفكر التربوي عند الغزالي، الذي جاء معبراً عن حاجات المجتمع الإسلامي إذاك، نتيجة لتحسس الغزالي لها، وإدراكه لخطورتها في عملية بناء الفرد والمجتمع.

ـ الأحوال السياسية

بقيام السلاجقة الترك بزغ عصر جديد هام في تاريخ الخلافة والإسلام. ولمّا ظهروا من المشرق في مطلع القرن الحادي عشر (ميلادي) كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت دولته قد تمزقت إرباً إرباً[٢].

وعرفت هذه القبائل بإسم السلاجقة نسبة إلى رئيسها سلجوق بن تقاق[٣] حيث انطوت تحت قيادته ومن ثم خضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده[٤].

ولقد كان القائم بأمر الله هو الخليفة العباسي عندما قامت دولة السلاجقة

---

(١) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص١٨.
(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥٦٨.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٢٣٦.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

في عام ٤٢٩هـ/ ١٣٠٧م، وكان آنذاك في التاسعة من عمره مما جعل أمه تتدخل في إدارة شؤون الحكم والدولة.

ـ وتمكن السلاجقة من التغلب على المعسكرات الموجودة في معظم أرجاء العالم الإسلامي مما يسّر لهم أن يقيموا على أنقاض تلك الدويلات الضعيفة دولة قوية بسطت نفوذها ـ في الشرق الإسلامي ـ على أيران والعراق وكثيراً من أجزاء بلاد الشام وآسية الصغرى ولعبت دوراً مهما في التاريخ في ذلك الوقت[١].

واستطاع السلاجقة إعلاء كلمة الإسلام داخل عالمهم وهزموا خصوم الإسلام والمنقضّين عليه وأوجدوا مرحلة من مراحل يقظة المثل العليا الإسلامية[٢].

ويمكننا القول إن الدولة السلجوقية قد قامت وقويت أركانها بعد معركة «دندانقان» الحاسمة مع الغزنوية ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م[٣]، حيث كسرت بعدها شوكة الغزنويين وكفوا عن مهاجمة السلاجقة.

ولم يكد طغرلبك[٤] ينتهي من إخماد فتنة أخيه «انيال» عام ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م ـ حيث أمر بقتله واستراح من شره ـ توجه لقتال البساسيري[٥] فدارت معركة طاحنة بين الطرفين انتهت بهزيمة البساسيري ومصرعه في منتصف ذي الحجة من العام نفسه[٦].

ولم تكن العلاقة بين سلاطين السلاجقة والخلفاء العباسيين مستقرة وثابتة

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٤، ١٥.

(٢) أنور الجندي: الإسلام وحركة التاريخ، ص٢٣٧.

(٣) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص٥٣.

(٤) أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين طغرليك أول ملوك السلاجقة (ت٤٥٥هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٦٧).

(٥) ارسلان بن عبدالله، أبو الحارث البساسيري، قائد تركي الأصل، تلقب بالمظفر، خرج على القائم واخرجه من بغداد وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر (ت ٤٥١هـ). الزركلي: الأعلام، ج١، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨).

(٦) الراوندي: راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ص١٧١ ـ ١٧٥.

ومنتظمة إبان فترة الحكم السلجوقي رغم أن السلاطين السلاجقة«كانوا يعتبرون أنفسهم خدما وحرسا لأمير المؤمنين العباسي وهم يضربون بسيفه وينفذون أمره، ويقبلون الأرض بين يديه رمزاً لطاعته وتوقيره»[1].

ولقد كان هذا شكلياً، لأننا لو نظرنا إلى الناحية العملية نرى أن نفوذ الخليفة قد اقتصر على الأمور الدينية، ففي عهد السلاطين العظام كان الخليفة العباسي مسلوب السلطة، «ألعوبة في يد السلطان يفعل به ما يشاء»[2]. ولقد بلغ التطاول مداه عندما قام نواب طغرلبك بالحجز على أموال الخليفة[3]. أما السلطان ملكشاه، فما أن وقع خلاف بينه وبين الخليفة المقتدي حتى أرسل إليه يقول «لابد ان تترك لي بغداد وتنصرف إلى أي البلاد شئت. . .»[4].

وعلى العموم فلقد أصبحت الخلافة رئاسة تشريفية دينية وانزوى الخلفاء في قصورهم يحاولون استعادة مكانتهم الدينية والاجتماعية عن طريق إقامة الشعائر الإسلامية وحماية الدين»[5].

ولقد ترتب على مقتل الوزير نظام الملك[6] ووفاة السلطان ملكشاه تحولات سلبية خطيرة كان لها بالغ الأثر على جسم الدولة السلجوقية. واختفاؤه عن مسرح الأحداث يعتبر نهاية عهد القوة والإزدهار وبداية عهد الضعف والانهيار. «فبعد وفاة ملكشاه[7] نشبت حروب أهلية بين أبنائه وقعت على أثرها

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص٣١.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص٥٧٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ ج١٢، ص٨٧.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩، ص٦٢.

(٥) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ٣١.

(٦) الحسن بن علي بن اسحاق الطوسي أبو علي الملقب بقوام الدين نظام الملك. استوزره السلطان الب ارسلان وبقي في خدمته عشر سنين ومن بعده استوزره ابنه ملكشاه وأقام على هذا عشرين سنة (٤٠٨ ـ ٤٨٥هـ). (الزركلي: الإعلام، ج٢، ص٢٠٢).

(٧) ابو الفتح ملكشاه بن الب ارسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق، الملقب جلال الدولة. ولي الأمر بعد وفاة أبيه (٤٤٧ ـ ٤٨٥هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٨٣).

قلاقل واضطرابات أثقلت كاهل السلاجقة وأدت إلى تحطيم ملكهم»[1] في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الصليبية تزحف باتجاه البلاد الإسلامية، والشرق الإسلامي يعاني من شر الانقسامات السياسية والمذهبية، فالسلطة السلجوقية تتصارع مع الخلافة الفاطمية، حيث تشكل بلاد الشام مسرحاً أساسيا لسباق السيطرة بين الطرفين[2].

أما فيما يتعلق بالفترة التي تعاقب عليها الخلفاء المسترشد والراشد والمقتفي والمستنجد فقد اتسمت بالعمل على عودة سلطة الخلافة واستقرار الأوضاع واستقلال الخليفة في اتخاذ القرار. ولقد كان لجهودهم بالغ الأثر في العمل على استرداد حقوق الخلافة وإزاحة التحكم والاستبداد السلجوقي. وعندما تولى الخليفة الناصر الخلافة (١١٨٠م ـ ١٢٢٥/٥٧٧هـ ـ ٦٢٢هـ) سعى لنهضة الشبان الإسلامي وتوحيد صفوفهم في مواجهة الأخطار لخدمة الدين والدولة، وتمكن من تحقيق نجاح باهر في الحد من التسلط السلجوقي واستعادة هيبة واستقلال الخلافة[3].

ـ الاحوال الدينية والنشاطات الفكرية

إن اختلاف الناس حقيقة من حقائق هذا الكون. ويمكننا القول إنّ من أسباب الاختلاف بين الناس غموض الموضوع في ذاته، أو اختلاف الرغبات والشهوات، أو اختلاف الاتجاه، أو تقليد السابقين، أو اختلاف المدارك أو الرياسة وحب السلطان. هذه بعض أسباب الاختلاف بين الناس فيما يدرسون من موضوعات، وما ينتهون إليه من نتائج في دراساتهم[4].

أما فيما يتعلق باختلاف المسلمين في آرائهم، فلقد ترتب عليه وجود

---

(١) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص٥٧٤.

(٢) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص٣١.

(٣) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص١٤١ ـ ١٧٥.

(٤) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج١، ص٧ ـ ١٠.

مذاهب في الاعتقاد والسياسة والفقه، في الوقت الذي لم يكن فيه هذا الاختلاف مفاجئاً خاصة وأن الرسول صلى الله عليه وسلّم كان قد أشار إلى افتراقَ الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

ومن أسباب الاختلاف بين المسلمين العصبية العربية أو التنازع على الخلافة، أو مجاورة المسلمين لكثيرين من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم في الإسلام، أو ترجمة الفلسفة، أو التعرض لبحث كثير من المسائل الغامضة، أو القصص، أو ورود المتشابه في القرآن الكريم أو استنباط الأحكام الشرعية. وينتهي الإمام محمد أبو زهرة إلى القول «إن المذاهب الإسلامية لها شعب ثلاث: مذاهب سياسية كان لها مظهر عملي قد احتدم أوار الخلاف بينها أحيانا. ومذاهب اعتقادية لم تتعدالخلاف النظري في أكثر الأحيان، ومذاهب فقهية كانت خيرا وبركة»[١].

الباطنية:

ويعلق الشهر ستاني على الخلاف حول الإمامة فيقول«وأعظم خلاف بين الأمة، خلاف الإمامة، إذ ماسُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الإمامة في كل زمان»[٢].

ومع حلول العصر السلجوقي كانت البلاد الإسلامية تعج بالفرق. فإلى جوار الاضطرابات السياسية وتردي الحالة الاجتماعية خيم الاضطراب الديني والمذهبي وسيطر التعصب على العقول مما أدى إلى احتدام الصراع بين أتباع المذهب السنّي والحركات الباطنية الشيعية المنشأ والميول والتي انحرفت بمعظمها عن ديانة الإسلام[٣].

ويشير عبد النعيم حسنين إلى القوى الدينية والطائفية المتصارعة أيام الدولة

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٩.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل، ج١، ص١٣.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والاهواء والنحل، ج٢، ص١١٥.

السلجوقية فيقول «وكانت هناك معسكرات سياسية ذات صبغة دينية أهمها المعسكر السنّي، وكان يمثله العباسيون في بغداد والمعسكر الشيعي ممثلا في الفاطميين في ـ مصر وأجزاء من شمال أفريقية والشام ـ والإسماعيلية ـ في إيران ـ ثم المعسكر المسيحي وكان يمثله الصليبيون في بعض أجزاء آسية الصغرى والشام وفلسطين من حدود العالم الإسلامي في ذلك العصر»[1].

والمتتبع لتطورات الأحداث في منتصف القرن الخامس الهجري يدرك مدى خطر النفوذ الذي أحرزته الحركة الباطنية لدرجة تجعل المرء يتصور قرب زوال الحكومة العباسية وحلول الشيعة مكانها[2].

وكانت الخلافات بين السنة والشيعة تأخذ طابع العنف المدمّر نتيجة الحرق وسفك الدماء. وعلى العموم فلقد لجأت الباطنية إلى التصفية الدموية لكل من يقف بوجه دعوتهم أو يعارضهم، وذلك على يد انتحاريين كانوا ينطلقون من «قلعة الموت» التي ذاع صيتها في عهد الحسن الصباح[3] وأصبحت مبعث قلق للخلفاء والسلاطين والوزراء»[4].

ويقول البنداري: «فنابت النوائب وظهرت العجائب، وفارق الجمهور من بيننا جماعة نشأوا على طباعنا، وكالوا بصاعنا، وكانوا معنا في المكتب وأخذوا حظا وافراً من الفقه والأدب، وكان منهم رجل من أهل الري أقام الفتنة كل قيامة، واستولى في مدة قريبة على قلاع وحصون منيعة، وبدأ من القتل والفتك بأمور شنيعة»[5].

وعلى الرغم من تتبع السلاجقة للباطنية خاصة في أيام ملكشاه ووزيره نظام

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٧٦.
(٢) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص٢١٨.
(٣) الحسن بن الصباح بن علي الإسماعيلي من اعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، صاحب الدعوة النزارية. كان من كبار الزنادقة ومن دهاة العالم. (٤٢٨ ـ ٥١٨هـ). (الزركلي: الأعلام، ج٢، ص ١٩٣ ـ ١٩٤).
(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٣٦ ـ ٤٠.
(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص٦٨.

الملك والسلطان بركيارق[1]، إلا أنهم لم يتمكنوا من القضاء عليهم بشكل نهائي بحيث بقيت هذه الفئة في صعود وهبوط إلى أن جاء المغول وانتزعوا بعض معاقلهم الحصينة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. ولكن عندما جاء السلطان بيبرس «فتح هذه الحصون فتحاً تاماً فيما بين سنة ٦٦٨هـ و ٦٧١هـ[2].

المعتزلة:

وشهد العصر السلجوقي حركة المعتزلة التي تعتبر من أبرز الحركات الدينية التي شهدها العالم الإسلامي. هذه الحركة العقلية التي ظهرت في عصر بني أمية. فما انبثق فجر العصر العباسي حتى عظم أمرها لا سيما في عهد المأمون الذي دفعته نزعاته الفلسفية إلى جعلها دين الدولة الرسمي[3].

وقد تطور مذهب المعتزلة في العصر العباسي الثاني فاتخذ شكلا جديداً وانتشر تحت تأثير فلسفة أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م)، ولقد أجمع المعتزلة على اختلاف فرقهم على نفي الصفات الإلهية، وعارضوا كل فكرة تتنافى مع وحدانية الله. وقرروا أن الوصول إلى مدارك الخلاص ومدارج النجاة إنما ترجع إلى سلطان العقل[4].

ويتطرق الإمام أبو زهرة إلى ما ورد في الخطط المقريزية وما ذكره احمد امين في «فجر الإسلام» لجهة التشابه بين «معتزلة» اليهود و«معتزلة الإسلام»، فمعتزلة اليهود يفسرون التوراة على مقتضى منطق الفلاسفة، والمعتزلون يتأملون كل ما في القرآن من أوصاف على مقتضى منطق الفلاسفة أيضا. وقال المقريزي في «الفروشيم» الذين سماهم المعتزلة «يأخذون بما في التوراة على معنى ما فسره

---

(١) ابو المظفر بركياروق الملقب ركن الدين ابن السلطان ملكشاه بن الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب شهاب الدولة مجد الملك. احد ملوك السلاجقة. ولي المملكة بعد موت ابيه. (٤٧٤ ـ ٤٩٨هـ). (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٢٦٨).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية، ج٢، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٥١٧.

(٤) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٢١٤.

الحكماء من أسلافهم»[١].

فلقد كان تأثير المعتزلة بالفلسفة الأغريقية واضحاً حيث إنهم استطاعوا أن يخرجوا منها مزيجاً يتفق مع تعاليم الإسلام وأصوله[٢].

وانبرى المعتزلة لمجادلة المجوس والثنوية والجبرية وأهل البدع إضافة إلى الفقهاء والمحدثين من جهة، والأشاعرة والماتريدية من الجهة الثانية[٣]. ولقد أفنوا قواهم في تلك المناقشة المستمرة التي أثارتها مدرستا البصرة وبغداد. وكان أبو الحسين البصري[٤] أحد معاصري إبن سينا آخر من عالج تعاليمهم بشيء من الحرية واستقلال الرأي. كما أكمل ما كان فيها من نقص في نواح كثيرة. واستمر هذا الصراع بين هؤلاء وأولئك على أشده، واستمرت المعتزلة على قوتهم حتى ثار عليهم أبو الحسن الأشعري[٥] ثم صرعهم حجة الإسلام الغزالي[٦]. وبهذا يكون علم الكلام نتاج المناظرات التي جرت بين المعتزلة وخصومهم سواء كانوا من غير المسلمين كالمجوس والثنوية، أم كانوا من المسلمين كالأشاعرة والماتريدية.

الصوفية:

وفي غمرة هذه الأحداث راجت سوق الصوفية. ولقد ساعد على ذلك الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي سادت العراق آنذاك، حيث أنها

---

(١) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ج١، ص١٢٥.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٠،

(٣) محمد ابو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص ١٤٠.

(٤) محمد بن علي الطيب: احد ائمة الإعتزال ولد بالبصرة وسكن بغداد وتوفي عام ٤٣٦هـ (ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٤، ص٢٧١).

(٥) ابو الحسن علي بن اسماعيل بن ابي بشر اسحاق بن سالم بن اسماعيل بن عبدالله ابن موسى بن بلال بن ابي بردة عامر بن ابي موسى الاشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واليه تنسب الطائفة الاشعرية (٢٦٠، ٢٧٠ ـ ٣٢٤ هـ). (ابن خلكان: وفيات الاعيان ج٣، ص٢٨٤).

(٦) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الأسلام، ج٣، ص٢١٩.

كانت عاملا مساعدا ومشجعا على حفز الناس للانخراط في صفوف الصوفية علاوة على أن عامة المسلمين قد دأبوا على احترام الزهاد والنظر إليهم بإجلال وإكبار[١].

وكان لانتشار الصوفية وبروز طبقة المتصوفة أثره على حكام العصر الذين لم يترددوا في بذل ما بوسعهم لتقريبهم منهم والسيطرة عليهم واستمالة رؤسائهم، مما جعل من الصوفية فئة مميزة في المجتمع إضافة إلى أن زعماءهم حققوا مكانة مرموقة عند الحكام فكانوا يحضرون مجالسهم وولائمهم أسوة بكبار رجال الدولة[٢].

ولقد تعددت مشارب وأهداف الصوفية إبان العصر السلجوقي. حيث ظهر بين صفوفهم من لم يكن ملتزما بأداب الصوفية[٣]. ومهما يكن فلقد كانت الصوفية ـ باستثناء الفرق المغالية ـ بعيدة عن التعصب، وأسهمت في تلطيف الأجواء المشحونة بالخلافات المذهبية والمهاترات الأدبية التي كانت سمة العصر.

ولم تسلم الصوفية من الهجوم نتيجة تصرفات بعض الفرق التي أخذ عليها اعوجاج المسلك وسوء المعتقد[٤]. وكان لابن الجوزي[٥] موقفا من متصوفة زمانه فهاجمهم وقدح فيهم. كما وأنه حكم بكفر عدد من المشايخ وأكد زندقتهم[٦].

ـ الأحوال الاجتماعية:

إن الأوضاع الاجتماعية لا بد وأن تتأثر بالظروف الاقتصادية والسياسية

---

(١) ابن الجوزي: تلبيس ابليس، ص ٤٦٩.

(٢) بدر محمد فهد: تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير، ص ٣٩٧.

(٣) السهروردي: عوارف المعارف، ص٢٥٠ ـ ٢٦٨.

(٤) الرازي: تبصرة العوام في معرفة مقالات الانام، ص ١٢٢ ـ ١٢٣

(٥) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، ابو الفرج: علامة عصره في التاريخ والحديث له نحو ثلاث مئة مصنف. (٥٠٨ ـ ٥٩٧ هـ). (الزركلي: الاعلام، ج٣، ص٣١٦).

(٦) ابن الجوزي: تلبيس ابليس: ص١٩٩ ـ ٤٥٥.

المصاحبة لها. وهكذا كان واقع الحال بالنسبة للحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي حيث لم يطرأ عليها تطورات بارزة تجعلها مختلفة عن سابقتها، إلا أن النفوذ السلجوقي «إضافة إلى مجريات الأوضاع السياسية والاقتصادية والدينية، أدت إلى إيجاد ظواهر معينة، كان لها آثار واضحة في حياة الناس الاجتماعية في هذا العصر»[1].

فالبيئة المجتمعية في البلاد الإسلامية شهدت امتزاجا للعرب مع غيرهم من الشعوب... حيث كان لهذا التمازج آثاره الخطيرة على الأخلاق والقيم والمعتقدات.

ولقد شهد هذا العصر سوء في التوزيع لملكية الأراضي حيث اعتبر السلاجقة المملكة ضيعة للسلطان يمتلكها نيابة عن قومه وله أن يملّكها لأقاربه وأنصاره، وجنوده، وعبيده... فكان الوزير بدوره يهمه أن تزداد إيرادات التمليكات ليزداد راتبه تبعاً لذلك[2].

ويشير بعض الكتاب إلى أن بداوة السلاجقة جعلتهم يهتمون بالمظاهر البراقة كالمباني الفخمة واللوحات الجميلة ومظاهر الترف والملبس والحفلات ومجالس اللهو والشراب، مما جعلهم لا يعنون كثيراً بالاستماع إلى الشعر وتذوقه وإبداء الرأي فيه كما كان يفعل معظم الخلفاء العباسيين[3].

ولقد كان للمرأة دوراً بارزاً في الميادين المختلفة سواء السياسية أو الاجتماعية منها. ومن أشهر نساء ذلك العصر تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. حيث إنها استولت على السلطة بعد وفاة زوجها وساست الأمور، وسعت إلى ترتيب ولدها سلطانا وعمره لا يتجاوز خمس سنوات. إضافة إلى ذلك فلقد باشرت الحروب وأدارت الجيوش وقادت العساكر[4].

---

(١) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص١١٠.
(٢) احمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص٢٠١.
(٣) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٨٥ ـ ١٨٦
(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج ٩، ص ٦٢، ٨٤.

وحيث أن السلاجقة كانوا قوما غلبت عليهم البداوة، وانتصر سلاطينهم الأوائل إلى الثقافة. فلقد وجدوا أنفسهم بحاجة إلى موظفين أكفاء لإدارة الشؤون المختلفة لدولتهم الأمر الذي تسبب بظهور طبقة الموظفين التي تلت طبقة السلاطين والأمراء أهمية ونفوذاً وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجّاب والكتّاب، حيث إنهم لعبوا دوراً هاماً وفاعلا في كثير من الأحيان[١].

ولما كان الحكام من القبائل السلجوقية التركية، فلقد سهل ذلك انتشار عدد كبير من هذه القبائل في إيران والبلدان الإسلامية الأخرى، مما أوجد طبقة أبناء القبائل السلجوقية التي كانت تتقاضى رواتبها من السلطان. ولقد كان وجود هذه الطبقة مصدر قلاقل وفتن في كثير من الأحيان خاصة عندما يمتنع السلطان عن دفع مرتبات أفرادها[٢].

ومن فئات الشعب التي كانت معروفة في العهد السلجوقي فئة الرقيق وكان أكثرهم من شعوب غير مسلمة انتزعوا قسراً من بلادهم أو أسروا في الحرب أو اشتروا بالمال. وكان من بينهم أرقاء زنج وآخرون ترك وآخرون بيض.[٣]

ولم ينظر إلى الخدم والارقاء نظرة إصغار أو احتقار خاصة وأن أمهات بعض الخلفاء كانت من هؤلاء. ولقد شغف الخلفاء وكبار الموظفين باتخاذ الإماء من غير العرب لدرجة أنهم كانوا يفضلونهم أحياناً على العربيات الحرائر[٤].

ونتيجة الاضطرابات السياسية وتفشي الفساد والجهر بالفسق وسيطرة القلق الذي أدى إلى انتزاع الاطمئنان من القلوب، شاع الشك وانعدم الإخلاص بين الناس مما شجع على الميل للاعتكاف أو الوحدة والانفراد هرباً من هذا الواقع الأليم. فانتعشت الحركة الصوفية بحيث أصبحت جماعة رجال الصوفية من أبرز وأهم فئات المجتمع في ذلك العصر علاوة على كون الصوفية الملاذ والعلاج لآفات وأمراض المجتمع السلجوقي.

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص ٤١٨.

(٤) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الأسلام، ج٣، ص٤٢٥.

ولقد أدى التطرف في الرد على الأوضاع المتردية إلى ظهور إحدى فرق الصوفية التي لجأت إلى استعمال السلاح والعنف كوسيلة لإصلاح المجتمع وعرفت هذه الفرقة بإسم فرقة الإخية الفتيان. ولقد كانت تعاليمها تتمشى لدرجة بعيدة مع عقيدة وأفكار سكان الثغور مما شجعهم على الانخراط في صفوفها[١].

ومن فئات الشعب الجديرة بالذكر في ذلك الوقت العيارون ولفظة العيار لغة الكثير المجيء والذهاب في الارض[٢]. والعرب تمدح بالعيار وتذم به، يقال غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في طاعة الله عز وجل[٣].

ويبدو أن العيارين كانوا من السنة والشيعة... وانتشر العيارون بكثرة في بغداد بشكل خاص ومع وجود بعض العيارين من يحمل روح الفتوة ومبادئها السامية، ولكن سوء الأوضاع، وانهيار الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي جعل الكثير من العاطلين والشقاة ينخرطون في صفوف العيارين الأمر الذي أدى إلى أن تصطبغ هذه الحركة بصبغة اللصوصية والعدوان[٤].

«ويبدوا أن العيارين كانوا باديء الأمر لا يتحركون إلا بسرية ولا يظهرون على مسرح الأحداث إلا عندما تدعو الحاجة. ولقد تجلى ذلك عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م عندما انقضوا على الجانب الغربي من مدينة بغداد»[٥].

ومن فئات الشعب التي كانت معروفة في ذلك العصر أهل الذمة ـ اليهود والنصارى ـ الذين نعموا بجو من الود والتسامح أتاح لهم إقامة شعائرهم الدينية بعيداً عن تدخل أهل الحكم من المسلمين[٦]. وكثيرا ما تقلد اليهود والنصارى مناصب هامة في الدوائر والمهن الحرة[٧].

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٨١.
(٢) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص٣٠١.
(٣) الزبيدي: تاج العروس، ج٣، ص٤٣٤.
(٤) حسن أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص٣٣ ـ ٣٤.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج٩، ص١٠٣.
(٦) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٢٥.
(٧) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص٤٣٣.

ومجمل القول إن أهل الذمة قد عاشوا في جو من الأمن والعدل، كما وأنهم شاركوا مشاركة فاعلة في مختلف نواحي الحياة العلمية والاقتصادية خاصة زمن المستظهر حيث عرف من بينهم أعلام نبغوا في ميادين الأدب والطب وحصلوا على شهرة عالية[1].

ـ الأحوال الاقتصادية:

إن اقتصاد الدول يعتمد أساساً على التجارة والصناعة والزراعة حيث إنها تشكل المعيار الحقيقي للتقدم الاقتصادي في أي بلد من البلدان، ولهذا كان لا بد من الحديث عن الأحوال الاقتصادية للدولة السلجوقية في ضوء الأوضاع المرافقة والتي كان لها أثر بالغ على الوضع الاقتصادي إبان تلك الفترة.

التجارة: لقد كانت بادىء الأمر في أيدي النصارى واليهود والزرادشتية، ومع مرور السنين ومجيء الدولة السلجوقية تبدلت الأمور نتيجة نشاط المسلمين الذين حلوا مكان التجار الذميين خاصة وأنهم لم ينظروا إلى التجارة نظرة احتقار كما كان الحال بالنسبة للزراعة. وترتب على ذلك ازدهار في حركة التجارة البرية والبحرية بحيث أصبحت مرافيء بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية مراكز تجارية هامة في العالم الإسلامي. ولقد بلغت تجارة المسلمين شرقاً حتى الصين. وكان أساس هذه التجارة الحرير. ولقد سلكت طريقاً يدعى «طريق الحرير العظيم»[2].

الصناعة: وما كانت التجارة لتزدهر لو لم يكن هناك صناعة محلية تدعمها وزراعة واسعة تشد أزرها. فلقد ازدهرت الصناعة، وخاصة اليدوية منها في كثير من أنحاء البلاد. فعرفت آسية الغربية بصناعة السجاد والنسيج الموشى والحرير والقطن والمنسوجات الصوفية والديباج والأطلس وأغطية الوسائد وغيرها من

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص١٧٠.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص٤٢٠ ـ ٤٢١.

أدوات الفرش والأثاث وأواني المطبخ. وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية وشبه الحريرية التي تلبس على الرأس وتعرف اليوم بالكوفية. وفي بلاد فارس اشتهرت المعامل بزركشة الدمقس الموشى بالذهب والستائر المصنوعة من الخز. أما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الإبل... والعباءات المصنوعة من الحرير المغزول فلقد كانت واسعة الانتشار[١].

ولقد اشتهرت بلاد الشام خاصة صيدا وصور بصناعة الزجاج حيث ضرب المثل بالزجاج السوري لرقته وصفائه... هذا بالإضافة إلى صناعات عديدة كصناعة الورق وصياغة الجواهر التي ساعد على ترويجها غنى البلاد بالمعادن المختلفة[٢].

الزراعة: والجدير بالذكر إنّ الزراعة إبان العصر السلجوقي شكلت كما كانت تشكل سابقاً عصب الحياة الاقتصادية. فلقد اعتمد السلاجقة على الزراعة بسبب الأراضي الخصبة وتوفر المياه. فوادي دجلة مثلا يعد من أخصب بقاع البلاد الإسلامية.

ولقد كانت كورة بخارى في رأي جغرافيي العرب جنة حقيقية حيث يقع بين سمرقند وبخارى وادي الصفد المعدود بين جنات الأرض الأربع. ولم تقف الزراعة عند حد الفاكهة والبقول بل تعدتها إلى الزهور التي كانت تزرع على نطاق واسع بهدف الصناعة والتجارة حيث إنها كانت تباع وتستغل في الصناعات العطرية التي اشتهرت بها دمشق وشيراز وغيرها من المدن[٣].

كل هذا يدل على مدى اهتمام الناس بالزراعة. والذي يعود إلى كتاب «الرحلة» لابن جبير يطلع على ما تمتعت به العراق من عمران زراعي خلال تلك الفترة.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٥ ـ ٤٢٧.

(٣) المرجع السابق: تاريخ العرب، ص٤٣٠ ـ ٤٣١.

وعلى الرغم من النشاط التجاري والصناعي والزراعي في العصر السلجوقي إلا أن الأحوال الاقتصادية قد تأثرت سلباً بسبب عدد من العوامل التي تركت بصماتها على الحياة في ذلك العصر ومنها:

* تمليك الأراضي: لقد كان لنظام تمليك الأراضي الذي اعتمدته الدولة السلجوقية آثاره السلبية المباشرة على الزراعة بشكل خاص والوضع الاقتصادي بشكل عام. ولم تنجح كل الإجراءات التي اتخذها نظام الملك في الحد من سلبيات هذا النظام. كما وإنها لم تحم الزراع والفلاحين من التجاوزات والظلم الذي لحق بهم على أيدي كبار المتملكين. فقد تطور نظام التمليك في أواخر الفترة السلجوقية، فلم يعد ينصبّ على الضرائب، بل صار تمليكا وراثياً للأرض يمارس فيه المتملك صلاحيات واسعة مقابل الخدمة العسكرية وإعداد الجند[1].

* الحروب الخارجية والفتن الداخلية: ولقد كان للحروب والفتن التي عصفت في البلاد خلال العصر السلجوقي بالغ الأثر على الأوضاع الاقتصادية حيث إنها أربكت الحياة الاقتصادية وأضعفت النشاط الاقتصادي. فالمتتبع لأحداث ٤٨٧هـ/ ١٠٩٣م و٤٩٥هـ/ ١١٠١م يلحظ مدى الشلل الذي لحق بحركة البيع والشراء إضافة إلى أنها شجعت على الفوضى والتخريب مما زاد الحالة الاقتصادية سوءاً[2].

* الكوارث الطبيعية: لقد تعرضت البلاد لكثير من الكوارث الطبيعية بين الفينة والأخرى مما أسهم في تردي الأحوال الاقتصادية، ومن الكوارث التي شهدتها البلاد الحرائق العديدة ومنها حريق سنة ٥١١هـ/ ١١١٦م الذي لحق بالمدرسة النظامية والمنطقة المجاورة لها، هذا بالإضافة إلى فياضانات دجلة المتكررة ومنها فيضانات سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م مما أدى إلى هلاك الغلات الزراعية[3].

---

(١) عبد العزيز الدوري: مقدمة في التاريخ الإقتصادي العربي: ص٩٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص٤٦ ـ ٦٠.
(٣) المرجع السابق، ص١٦٦، ١٣٢.

ولقد كان للزلازل نصيب في تردي الأحوال الاقتصادية وخاصة زلزال سنة ٥١١هـ/١١١٧م[١]. فكل هذا وغيره كان له الأثار السلبية على دورة الحياة الاقتصادية في البلاد خلال فترة الحكم السلجوقي.

ـ الأحوال الثقافية:

إن الأحوال الثقافية والعلمية تتأثر بشكل مباشر وغير مباشر بالظروف والعوامل المحيطة. وهذا هو واقع الحال بالنسبة للحياة الثقافية خلال العصر السلجوقي. فلقد كان لظهور الفرق المختلفة آثار إيجابية على صعيد النهضة العلمية، خاصة وأن هذا الفرق اعتمدت العلم وسيلة لنشر أفكارها وتحقيق أهدافها.

فعلى الرغم من التفكك الذي لحق بالعالم الإسلامي والضعف الذي ألمّ بمركز الخلافة، فلقد ترتب على الجدل والمناظرات التي قامت بين الفرق المختلفة نهضة علمية بالغة الأهمية تجلت في الآثار الفكرية التي خلفها وراءهم علماء هذه الفرق من إسماعيلية وصوفية وغيرها[٢].

وعلى الرغم من أجواء الفوضى التي لحقت بالبلاد إلا أن الحياة العلمية خطت خطوات متقدمة إلى الأمام خاصة في حقل التعليم حيث انتشرت المدارس الفقهية كما نعمت العلوم العقلية بنهضة وازدهار ملحوظين خاصة في مجال الفلك والطب والتاريخ وعلم الكلام. وفي الوقت نفسه كان التراجع من نصيب الفلسفة والمنطق إثر تزايد الاهنمام بإنشاء المدارس. ولقد اعتبرت هذه الفترة «من أهم عصور التمدن الإسلامي من حيث كثرة المدارس. وقد تسببت هذه المدارس في الحد من انتشار العلوم العقلية، كما تسببت في رواج اللغة العربية»[٣].

ولقد شهدت البلاد مولد أول وأكبر جامعة عرفتها الديار الإسلامية في ذلك

---

(١) المرجع السابق ص١٧١.

(٢) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٢٣٢.

(٣) احمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة، ص٣٧٣.

العصر، ألا وهي المدرسة النظامية، ليس هذا فحسب، بل لقد كان هناك عدد كبير من المراكز العلمية الأخرى التي تفرقت في البلاد مما يؤكد مدى تقدم وانتعاش الحركة العلمية. «ولئن ضعفت الدولة الإسلامية في هذه الفترة من الناحية السياسية فإنها لم تضعف من النواحي العلمية، فالمملكة الإسلامية في القرون الرابع والخامس والسادس، كانت أعلى شأناً في العلم من القرون التي سبقتها. ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت في هذه القرون، فالثمار العلمية قد آتت أكلها فيها. . . ولهذا فالعلم والسياسة لا يمشيان دائماً جنبا إلى جنب بل قد يكون الأمر على العكس. . . فلقد كانت الحياة العلمية في هذه القرون الثلاثة في غاية من الإنتاج والنشاط والعطاء»[١].

ولقد اتسع أفق الفكر الإسلامي في عهد السلاجقة ونضجت ملكة البحث والتأليف عند المسلمين نتيجة حركة الترجمة التي نشطت إبان الدولة العباسية إضافة إلى تنقل رجال العلم والأدب في البلاد الإسلامية شرقاً وغرباً بهدف الاتصال بحكام الدول التي استقلت عن الخلافة العباسية مما أدى إلى زخور بلاط السلاطين وغيرهم من حكام الدول بالعلماء والأدباء حيث ترافق ذلك مع نشاط الحركة الفكرية ورواج الثقافة في طول البلاد وعرضها[٢].

ولمع في هذا العصر إسم الوزير نظام الملك، ولقد كان عالماً مستنيراً استفاد من علمه وخبرته وأخذ العبر من الأحداث السياسية خاصة ما لحق بالخلافة العباسية ومؤسساتها. فتحسس حجم الأخطار التي جرّتهاالانقسامات الداخلية والتيارات الفكرية إضافة إلى الدفاع عن الفكر والعقيدة الإسلامية ضد أعدائها في الداخل والخارج[٣]. وجاء في «الكامل» أنه «كان عالماً ديّناً جواداً عادلا حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت، كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح. أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد

(١) احمد أمين: ظهر الإسلام، ج٢، ص٢، ٣.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق، ص١٨٧.

(٣) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص١٧٥.

وأجرى لها الجرايات العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرها»[1].

وكان يعقد مجالس للمناظرة بين العلماء كلما سنحت الفرصة لذلك تماما كما حصل في المناظرة التي جرت بين الإمام أبي حامد الغزالي وبين عدد من علماء العصر[2].

ونظام الملك هو الذي أنشأ المدارس النظامية التي كان أهمها نظامية بغداد ـ التي سبق الحديث عنها ـ وفي ذلك يقول السبكي «وبنى مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل. ويقال إن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة»[3].

وكان للخلفاء العباسيين عميق الأثر في النهضة العلمية خلال هذا العصر حيث أنهم شجعوا الحركة العلمية من كافة النواحي وأمدوها بمالهم وجاههم وبالغوا في إكرام العلماء والأدباء وجالسوهم وولوهم أحيانا المناصب العالية. ولقد حذى الأمراء والوزراء حذو الخلفاء في أكبر مدن الدولة وكانوا يتنافسون في ذلك كما كانوا يتنافسون في إنشاء دور العلم.

وكثيراً ما ألف العلماء الكتب وقدموها للخلفاء تماماً كما فعل الغزالي عندما صنّف كتاب «فضائح الباطنية» وقدمه للخليفة المستظهري بناء لطلب الآخر.

وحاصل القول إن سلاطين السلاجقة أدركوا «أن العلم هو سياج الدولة وعمادها، وأن العلماء هم مشاعل الحضارة ورواد الأمة، فعملوا على تشجيع العلوم، وبنوا المدارس والخوانق والربط لطلاب العلم، وأكرموا العلماء، وأحسنوا إفادتهم فأجزلوا لهم العطاء كما أدركوا أن خير ما يضمن لهم بقاء دولتهم ورقيّها أن يشحنوا مراكزها المختلفة بالعلماء ورجال الدين، للدفاع عن بيضة الإسلام وحراسة أمور الأمة[4].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٨، ص٤٨٠، ٤٨١.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٤.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٣٧.

(٤) مريزن سعيد مريزن عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص١٧٣.



الفصل الثاني

سيرة الإمام الغزالي

- مقدمة
- نسبه ولقبه
- مولده ونشأته
- دراسته
- تجربته في النظامية
- رحلته داخل العالم الإسلامي
- مؤلفاته
- وفاته

ـ مقدمة

إن الفكر التربوي لدى أي مفكر هو نتاج تجربة ذات بعدين الأول فردي خاص بصاحب العلاقة والثاني اجتماعي يرتبط بالظروف المحيطة به.

فبعد أن تكلمنا عن الأحوال السياسية وغيرها من الأحوال التي أحاطت بالغزالي وعصره. بات من الضرورة بمكان الحديث عن الأحوال الشخصية المتعلقة به. حيث أن ترجمة الغزاالي تدل «على أن هناك صلة وثيقة بين حياته وتطوره الفكري. فكما دفعته اضطراباته الباطنية وشكوكه الفكرية إلى تغيير مجرى معيشته كذلك أثرت رحلته واعتكافه، ورياضته في توجيه أفكاره وتحديد طريقته وشوقه إلى الإصلاح العلمي في الدين»[1].

ـ نسبه ولقبه

هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ابو حامد، حجة الإسلام[2]. والغزالي ـ بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة ومد الألف لام ـ هذه النسبة إلى الغزّال، على عادة أهل خوارزم وجرجان فإنهم ينسبون إلى القصار القصاري وإلى العطار العطاري، وقيل أن الزاي مخففة نسبة إلى السمعاني في كتاب «الأنساب» والله أعلم[3]. وبذلك تكون نسبته إلى صناعة الغزل عند من

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، القسم الدراسي، ص١٢.

(٢) الزركلي: الاعلام، ج٧، ص٢٢.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج١، ص٩٨.

يقول بتشديد الزاي أو إلى غزالة ـ من قرى طوس ـ عند من يقول بالتخفيف[١].

وجاء في رواية ابن الصلاح على لسان الغزالي أنه قال «الناس يقولون لي الغزّالي، وإنما أنا الغزالي منسوب إلى قرية يقال لها غزالة»[٢]. وهناك من لا يوافق على هذا الرأي بحجة أن صاحب معجم البلدان لم يسمع بغزالة عندما زار طوس إلا أن هذا لا يشكل دليلا قاطعاً على عدم وجود هذه القرية بدليل أن ياقوت أشار أن لطوس حوالي ألف قرية[٣]. فلعلها إحداها.

ولقد تطرق الزبيدي في مقدمة كتابه الكبير «إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين» إلى ذلك تحت عنوان «بيان حال المنتسب إليه» وأورد آراء عدة حول هذا الموضوع[٤].

واستمر التعاطي مع هذه المسألة حتى يومنا هذا حيث يورد «وات» مناقشة هامة وقيّمة حول نسبة الغزالي إلى غزالة[٥].

ويورد عبد الأمير الأعسم عدة آراء حول هذه النقطة الخلافية في كتابه «الفيلسوف الغزالي» ويرجح بدوره نسبته إلى الغزّال وهي مهنة أبيه[٦]. وهذا ما لا نميل للأخذ به لقناعتنا بأن كلام الغزالي عن نفسه يبقى الأصدق والأقرب إلى الحقيقة، لطالما لم يتوفر دليل أكيد على بطلانه.

وعرفت أوروبة الغزالي قديما ـ بعد عصر الترجمة ـ بإسم Algazal Abu Hamet أما اليوم فهو معروف بـ Alghazali Abu Hamid[٧]. ليس بالضرورة أن يكون له ولد بهذا الإسم فلقد ذكر أنه لم يعقب إلا البنات[٨].

---

(١) الزركلي: الاعلام، ج٧، ص٢٢.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي: ص٨٢.

(٣) الحموي: معجم البلدان: ج٤، ص٤٩.

(٤) المرتضى الزبيدي: اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احياء علوم الدين ص١٨.

(٥) Watt, w. Montogomery, Muslem intellectual, A study of Al-Ghazali, Edinburgh, pp.181.

(٦) عبد الامير الاعسم: الفيلسوف الغزالي، ص٨.

(٧) Wat, W. Montogomery, Islamic Philosophy and Theology, Edinburghe, 1962. p.114.

(٨) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١١٠.

ويشار إليه بالفقيه الشافعي لكونه أكبر فقهاء الشافعية في زمانه ورائد من رواد التجديد من بعده.

وهو أشعري من مؤسسي المدرسة الأشعرية وعلم من أعلامها الثلاثة الذين جاءوا من بعد الأشعري، وهم الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، والجويني (ت٤٧٨هـ)، والغزالي (ت٥٠٥هـ).

ويلقب بالطوسي نسبة لطوس إحدى مدن خراسان وهي المنطقة التي شهدت مولده[1].

ويعرف الغزالي من خلال القاب كثيرة منها: حجة الإسلام، إمام أئمة الدين، الإمام البحر، أعجوبة الزمان، زين الدين، إمام الفقهاء، محجة الدين، جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم.

مولده ونشأته:

جاء في الطبقات الكبرى أن الغزالي «ولد بطوس سنة خمسين واربعمائة، وكان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكان بطوس، فلما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولدي هذين فعلمهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما. فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النذر الذي كان خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما فقال لهما: «اعلما إني قد أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به. وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما» ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما. وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»... ويحكي أن أباه كان فقيراً صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف، ويطوف على

(١) الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩.

المتفقهة ويجالسهم ويتوفر على خدمتهم، ويجد في الإحسان إليهم، والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى، وتضرع. ويسأل الله أن يرزقه إبناً ويجعله فقيها، ويحضر مجالس الوعظ. فإذا طاب، وقته بكى وسأل الله أن يرزقه إبنا واعظا. فاستجاب الله دعوتيه. أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه، كلمته شهد بها الموافق والمخالف، وأقر بحقها المعادي والمخالف، وأما أحمد فكان واعظاً يلين الصم والصخور عند سماع تحذيره، وترعد فرائض الحاضرين في مجالس تذكيره»[1].

ـ دراسته:

يقول عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي[2] عن الإمام الغزالي إنه «أخذ طرفاً في صباه بطوس من الفقه على الإمام أحمد الراذكاني[3] ثم قدم نيسابور مختلفا إلى درس إمام الحرمين[4] في طائفة من الشبان من طوس. وجدّ واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة، وبز الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين، وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم ويرشدهم ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف. وكان الإمام مع علو درجته وسمو عبارته، وسرعة جريه في النطق والكلام، لا يصفي نظره إلى الغزالي سراً لإبانه عليه في سرعة العبارة وقوة الطبع، ولا يطيب له تصديه للتصانيف وإن كان متخرجا به منتسبا إليه كما لا يخفى من طبع البشر، ولكنه

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٢، ١٠٣.

(٢) ابو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل بن عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر ابن احمد بن محمد بن سعيد الفارسي الحافظ. كان إماما في الحديث والعربية قرأ القرآن الكريم وتفقه على امام الحرمين ابي المعالي الجويني. (٤٥١ ـ ٥٢٩هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص٢٢٥).

(٣) احمد بن محمد الطوسي، ابو حامد الراذكاني وهذا الراذكاني احد اشياخ الغزالي في الفقه. تفقه عليه قبل رحلته الى امام الحرمين. (السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص٣٦).

(٤) عبد الملك بن عبد الله يوسف بن محمد الجويني، ابو المعالي ركن الدين الملقب بامام الحرمين. اعلم المتأخرين من اصحاب الشافعي (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ). (الزركلي: الاعلام، ج٤، ص١٦٠).

يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهراً خلاف ما يضمره ثم بقي كذلك إلى انقضاء أيام الإمام»[1].

ويلاحظ من خلال هذه الرواية أن دراسة الغزالي خلال فترة ما قبل وفاة الجويني جاءت على مرحلتين الأولى بطوس على الراذكاني والثانية في نيسابور على الجويني. وهذا ما أخذ به قدماء المؤرخين باستثناء السبكي الذي انفرد من بينهم في الحديث عن دراسة الغزالي في جرجان على الشيخ الإسماعيلي[2]، ومما قاله: «قرأ في صباه طرفا من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس»[3]. هذا ويروي الإمام أسعد الميهني[4] عن الغزالي قوله «قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلي مقدمهم وقال ارجع ويحك وإلا هلكت فقلت اسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي وما هي تعليقتك، فقلت كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها فضحك وقال كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلي المخلاة، قال الغزالي هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري . . . فلما وافيت طوس أقبلت على الإشتغال ثلاث سنين

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٧.

(٢) محمد بن الامام ابي بكر احمد بن ابراهيم بن اسماعيل ابو نصر الاسماعيلي كان عالما رئيسا (ت٤٠٥هـ). (السمعاني: الانساب، ج١، ص١٥٣والسكبي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص٣٧). لم يرتجم السبكي لغيره بهذا الاسم لذلك يبدو وكأن الامر قد اختلط بينه وبين الامام ابي القاسم اسماعيل بن مسعدة بن اسماعيل بن الامام ابي بكر احمد بن ابراهيم بن اسماعيل الاسماعيلي (٤٠٧ ـ ٤٧٧هـ) اوحد عصره وفريد وقته. (السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٣، ص١٢٩ ـ ١٣٠).

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٣.

(٤) ابو الفتح اسعد بن ابي نصر ابن ابي الفضل الميهني الفقيه الشافعي الملقب محي الدين، فوض اليه التدريس في النظامية ببغداد مرتين (ت ٥٢٧هـ). (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج١، ص٢٠٧).

حتى حفظت ما علقته وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي»[1].

«ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين، وجدّ واجتهد حتى برغ في المذهب، والخلاف، والجدل، والأصلين، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم... وكان رضي الله عنه شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصا على المعاني الدقيقة، جبل علم مناظراً محجاجاً. وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول: الغزالي بحر مغدق والكيا[2] اسد مخرق، والخوافي[3] نار تحرق، ويقال إن الإمام كان بالآخرة يمتعض منه في الباطن وإن كان يظهر التبجح به في الظاهر»[4].

ويبدو أن في رواية الامتعاض الآنفة الذكر ما لا ينسجم وأخلاق عالم كبير كالإمام الجويني الذي شهد للغزالي باتساع معرفته فقال عنه أنه «بحر مغدق» مما يدل على تعظيم وتقدير له. أما فيما يتعلق بقوله للغزالي «دفنتني وأنا حي هلاّ صبرت حتى أموت»[5] فالمقصود بذلك حسب ابن الجوزي «أن كتابك لقد غطى على كتابي»[6]. وبدورنا نرى أن في هذا اعترافاً للغزالي بعلمه إضافة لكونه اعتزازاً وافتخاراً به وإشارة أكيدة إلى اغتباط الجويني لا امتعاضه من تلميذه خاصة وأنه أكد على هذا النبوغ عندما قال فيه أنه «بحر مغدق». ومما يثير الشكوك حول

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٣.

(٢) ابو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري، الملقب عماد الدين المعروف بالكيا الهراسي الفقيه الشافعي تفقه على امام الحرمين ابو المعالي الجويني، وكان من رؤوس معيدي امام الحرمين في الدرس والثاني بعد ابي حامد الغزالي. (٤٥٠ ـ ٥٠٤هـ). (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٣، ص٢٨٦).

(٣) ابو المظفر احمد بن المظفر الخوافي الفقيه الشافعي. كان انظر اهل زمانه. تفقه على امام الحرمين الجويني وكان رفيق ابي حامد الغزالي في الاشتغال. (ت٥٠٠هـ). (ابن خلكان: وفيات الاعيان ج١، ص٩٦ ـ ٩٧).

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٣.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص١٦٩.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

مقولة الامتعاض المذكورة تقديمه للغزالي على غيره من الأقران واتخاذه مساعداً له في التدريس، مما يزيدنا قناعة بوضع علامات استفهام حول ما قيل في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

أما بالنسبة لدراسة الغزالي يبدو أن رواية السبكي عن طريق الميهني أقرب للصواب لما يمكن استخلاصه من آثار عميقة لحادثة سرقة التعليقة على شخصية الغزالي في التعاطي مع العلوم وتحصيلها، وبالتالي تحقيق طموحاته في تلقي العلوم الشرعية على الجويني علاوة على أن الحادثة تشير إلى تلقي الغزالي للعلم في جرجان. فاستناداً إلى ما سبق يمكننا تقسيم دراسة الغزالي إلى ثلاث مراحل فيما لو استثنينا المرحلة التي تلت وفاة الجويني:

- المرحلة الاولى بطوس.
- المرحلة الثانية في جرجان.
- المرحلة الثالثة في نيسابور.

ولقد اكتملت في المرحلة الثالثة معالم شخصية الغزالي التي اتسمت باتجاهات فكرية خاصة به في شتى العلوم سواء الدينية أو الدنيوية منها.

ولقد كانت مرحلة ما بعد وفاة الجويني ٤٧٨هـ متميزة عن غيرها بسبب استغراق الغزالي في التعلم الذاتي والبحث المضني عن الحقيقة، إلى جانب إقباله في نهاية المطاف على علوم الحديث، وفي ذلك يقول عبد الغافر الفارسي: «ثم حكي أنه راجع العلوم وخاض في الفنون وعاود الجد والاجتهاد في كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها حتى انفتح له أبوابها وبقي مدة في الوقائع وتكافىء الأدلة وأطراف المسائل، ثم حكي أنه فتح عليه باب من الخوف بحيث شغله عن كل شيء وحمله على الإعراض عما سواه حتى سهل ذلك وهكذا هكذا إلى أن ارتاض كل الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنا نظن به تمرسا وتخلقا طبعا وتحققا، وإن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله»[1].

وفي مجال إقباله على تحصيل علم الحديث يشير عبد الغافر إلى أن الغزالي

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٩.

عمد في خاتمة أمره لمجالسة أهل الحديث ومطالعة الصحيحين. ويؤكد على أنه لو عاش لسبق الكثيرين في هذا المجال. ومن الذين أخذ عنهم الحديث أبي سهل محمد بن عبدالله الحفصي المرزوي[1]، وأبي الفتيان عمر بن أبي الحسن الرّواسي الدهستاني[2] وغيرهما[3].

وفي التصوف قرأ على الإمام الفارمدي الصوسي[4]. وطالع كتب أبي طالب المكي[5] والحارث المحاسبي[6] والجنيد[7] والشبلي[8] وأبي يزيد البسطامي[9] وغيرهم[10]. أما علوم الفلسفة لا شيخ له فيها حسب ما صرح بذلك في كتابه «المنقذ من الضلال»[11].

---

(١) ابو سهل محمد بن عبدالله الحفصي المرزوي. حدث بنيسابور ودرس بالنظامية (ت٥٠٦هـ). (السمعاني: الانساب، ج٢، ص٢٣٩).

(٢) ابو الفتيان عمر بن عبد الكريم بن سعدوية الدهستاني الرواسي. شيخ مشهور عارف بالطرق كتب الكثير وجمع الابواب وصنف، خرج من نيسابور الى طوس فأنزله ابو حامد الغزالي عنده وقرأ عليه الصحيح (الذهبي: سير اعلام النبلاء ج١٩، ص٣١٧ ـ ٣١٩).

(٣) انظر السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٥ ـ ١١٩.

(٤) الامام الكبير، شيخ الصوفية ابو علي الفضل بن محمد الفارمدي الخراساني الواعظ شيخ الشيوخ في عصره (الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج١٨، ص٥٦٥).

(٥) ابو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي الواعظ المكي صاحب كتاب (قوت القلوب) كان رجلا صالحا مجتهدا في العبادة وله مصنفات في التوحيد (ت ٣٨٦ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٤، ص٣٠٣).

(٦) ابو عبدالله الحارث بن اسد المحاسبي البصري الاصل الزاهد المشهور، احد رجال الحقيقة له كتب في الزهد والاصول وكتاب (الرعاية) له (ت٢٤٣هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٢، ص٥٧ ـ ٥٨).

(٧) ابو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزار القواريري الزاهد المشهور، اصله من نهوند ومنشأه العراق وكان شيخ وقته وفريد عصره (ت٢٩٧ هـ وقيل سنة ٢٩٨هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج١، ص٣٧٣).

(٨) دلف بن جحدر ويقال بن جعفر. اشتهر بالصلاح وسلك مسالك المتصوفة، اصله من خراسان ونسبته الى قرية «شبله» من وراء النهر. ولد بسر من رأى وتوفي في بغداد (٢٤٧ ـ ٣٣٤هـ). (الزركلي: الاعلام، ج٢، ص٣٤١).

(٩) طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن علي البسطامي. الزاهد المشهور. كان جده مجوسيا ثم اسلم (ت٢٦١ هـ وقيل ٢٦٤ هـ) (ابن خلكان: وفيات الاعيان، ج٢، ص٥٣١).

(١٠) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص ١٣١٠ ـ ١٣٢.

(١١) أ ـ المرجع السابق، ص ٩٥ .
ب ـ المرتضى الزبيدي: اتحاف السادة المتقين بشرح اسرار احياء علوم الدين ج١، ص١٩.

ـ تجربته في النظامية:

كان لوفاة الإمام الجويني آثاراً بالغة الأهمية على حياة الغزالي الذي لم يكن يفارق أستاذه. فلقد كان ملازماً له، مشاركاً إياه في إعادة بناء العقيدة الأشعرية بروح من التجدد. مما جعله مميزاً عمن سبقوه سواء في عملية الدفاع عن هذه المدرسة أو الإسهام في بناء صرحها.

ولقد عيّن الغزالي مدرساً في النظامية بعد وفاة الجويني إثر لقائه نظام الملك، ففي جمادي الأول من عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م باشر التدريس في النظامية وهو في سن الرابعة والثلاثين من العمر مما يعكس مقدرة علمية متفوقة أهلته لتحقيق هذا الشرف العظيم في سن مبكرة، حيث أنه نادراً ما تأتى لعالم أن يبلغ شأواً كهذا في سن كهذه، وتحدّث المؤرخون عن هذه الفترة من حياة الغزالي مبينين كيف «علت حشمته ودرجته في بغداد حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة»[١].

ومما قاله السبكي في معرض حديثه عن هذه المرحلة من حياة الغزالي «ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى «العسكر» قاصداً الوزير نظام الملك إذ كان في مجلسه مجمع أهل العلم وملاذهم، فناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وقهر الخصوم، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته ببغداد وأمره بالتوجه إليها. . . فقدم بغداد في سنة اربع وثمانين واربعمائة ودرس بالنظامية وأعجب الخلق حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشارته اللطيفة، وأحبوه وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا، والتصنيف مدة، عظيم الجاه، زائد الحشمة، عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الإسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفضت ما فيها من التقدم والجاه وترك كل ذلك وراء ظهره»[٢] متخليا عن التعليم في النظامية حيث كان مستغرقاً بالتدريس

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق ص١٠٣، ١٠٤.

والإفادة لثلاث مائة نفر من الطلبة[1]. «واستناب أخاه في التدريس»[2] بدلا منه.

ـ رحلته داخل العالم الإسلامي:

اختلف رجال الطبقات والمؤرخون والباحثون قديماً وحديثاً حول حادثة سفر الغزالي وخروجه من بغداد سواء لجهة المدة التي قضاها أو الأمكنة التي توجه إليها. وكان لهم في ذلك آراء اقتربت حينا وابتعدت أحياناً كثيرة.

ويمكن تصنيف الأسباب التي تكمن وراء رحلة الغزالي إلى فئتين رئيستين:

١ ـ الأسباب التي تعزى لتصوف الغزالي وزهده وهي التي عبر عنها في كتابه «المنقذ من الضلال».

٢ ـ الأسباب ذات البعد السياسي وهي التي أفرزتها الأحداث والصراعات بين الفئات المتناحرة في تلك الفترة.

وهناك من اختلق أسباباً أخرى أو دمج بين أكثر من سبب، إلا أن ما سبق ذكره يشكل القاعدة الأساسية التي انطلق منها جميع الذين تطرقوا للحديث عن هذه المرحلة من حياة الغزالي.

أما بالنسبة لما قاله الغزالي عن نفسه في هذا المجال فقد جاء في كتابه «المنقذ من الضلال» حيث يقول:

«ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من كل الجوانب، ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت. فتيقنت أني على شفا جرف هار وإني قد أشفيت على النار، إني لم اشتغل بتلافي الأحوال.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٩٥.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٤.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخبيل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن (هذه العلائق) فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب والفرار!

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت اليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الإختيار إلى الإضطرار، إذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطبيباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة ولا استطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب: فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: «هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم».

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة

الأصحاب على عزمي على المقام في الشام، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً. واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة، إذا لم يكن فيهم من يجوز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب ديني، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعد عن العراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرب من الولاة فقد كان يشاهد الحاحهم في التعلق بي والإنكباب علي، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: «هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم».

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفا على المسلمين»[١].

هذا ما كان عند الغزالي من أسباب دعته للرحيل... والذي يرجع إلى كلام أصحاب الطبقات وقدامى المؤرخين من أمثال عبد الغافر الفارسي، وابن عساكر الدمشقي: وابن الجوزي، وابن خلكان، والذهبي، واليافعي اليماني وغيرهم، يجد أن هناك شبه إجماع على اعتبار أن سبب رحلة الغزالي هو زهده وتصوفه، وبهذا فإنهم يأخذون بما قاله الغزالي عن نفسه.

وهناك من عزى ذلك الى علاقته بابن تاشفين ورضاه عن اطلاق لقب أمير المؤمنين عليه، وإمكان تسبب ذلك بانزعاج وإثارة حفيظة ذوي السلطان في بغداد[٢].

وبالنسبة للمحدثين والمعاصرين، فلقد ذهب عدد كبير منهم باتجاه سعى من خلاله إغفال ما قاله الغزالي عن نفسه، إضافة إلى تجاهل ما تمسك به

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٣٤ ـ ١٣٧.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ١٨ ـ ٢١.

أصحاب الطبقات من أسباب. فكارادوفو مثلا يقول معلقا على سفر الغزالي: «فإن الرغبة في السلوك مع الصوفية لا ينظر إليها في ذلك الحين بالذات كدافع أساسي لخروجه من بغداد»[1].

ويرى آخرون أن للحوادث السياسية ـ التي شهدتها البلاد الإسلامية ـ أثرها في خروج الغزالي من بغداد[2]. وهذا ما يشير إليه الأعسم[3]، ويعتبره من الاسباب الرئيسة إلا أنه يغالي في تصوير تأثير الخوف على تحرك الغزالي من مكان إلى آخر لدرجة لامست اتهامه بالجبن وهذا ما يتنافى كلية مع شخصية الغزالي العالم العامل بما يعلم.

ولو سلمنا فرضاً بصحة الآراء التي تعتبر أن أسباب السفر سياسية يصبح من حق المرء أن يتساءل فيما إذا تعرض الغزالي لضغوط حاولت إرغامه على القاء دروس وإصدار فتاو وإبداء آراء لا تتفق وقناعاته خصوصاً وأن الغزالي قد كتب كتابه «المستظهري» بناء لطلب الخليفة.

إلا أن الغزالي لم يفصح عن أسباب محددة أو حوادث معينة وقفت وراء مغادرته بغداد. وإذا كان هناك من يرى أن اعتراف الغزالي ـ في المنقذ ـ لا يرضي النقد العلمي في توضيح أسباب خروجه وعزلته. إلا أننا نرى أنه من الاصوب أن نلتزم بحرفية ما قاله عن نفسه حيث أنه عزى خروجه لأسباب دينية ونفسية مردها تصوفه وزهده، الذي عبّر عنه بإسلوب مشوق وجذاب ترك من خلاله الباب مفتوحاً لمن يرغب في الاجتهاد، طمعاً في الوقوف على الأسباب.

وهناك نقطة هامة في حياة الغزالي لم يتطرق إليها أحد من القدامى أو المحدثين في الوقت الذي يمكن أن نخلص من خلالها إلى إضافة ـ قد تكون ـ مقبولة على ما قاله الغزالي في دواعي خروجه من بغداد. وبتقديري أن شبح اليتم ـ بمعنييه الحقيقي والمجازي ـ الذي كان يطارده طيلة حياته قد شكل أحد العوامل

---

(١) كرادوفو: الغزالي، ص٤٨، ٤٩.

(٢) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص٢٠.

(٣) عبد الامير الاعسم: الفيلسوف الغزالي، ص٢٠.

الحافزة له على مغادرة بغداد علّه يحظى بالأبوة التي افتقدها طفلا واستمر في افتقادها طيلة حياته وكان آخرها فجعه بالجويني ومن ثم بنظام الملك الذي شكلت وفاته منعطفاً هاماً في حياته خاصة وأَنه كان قد تبنى فكره وآراءه وشكل له حماية نفسية ومعنوية فكان من الطبيعي جداً أن ينعكس ذلك على مجرى حياته. فما كان منه إلا أن سعى خارج بغداد طمعاً في إيجاد البديل الذي تجسد في اللجوء إلى مجير المستضعفين ومجيب دعوة الداعين الله رب العالمين.

ولم يقتصر الخلاف حول سفر الغزالي على اسباب خروجه فحسب بل تعداها ليطال المدة التي قضاها مسافراً والبلاد التي زارها... وقبل أن نستعرض الآراء الخاصة بهذا الموضوع، يستحسن أولا أن نستمع إلى ما قاله الغزالي عله يلقي الضوء على ما نسعى للوصول اليه....

يقول أبو حامد: «ثم دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين لا شغل إلي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي... ثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي... ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت الى الحجاز... ثم جذبتني الهمم، ودعوات الاطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. فآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير في وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين»[1].

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٣٨، ١٣٩.

ويورد عبد الكريم العثمان في كتابه «سيرة الغزالي» آراء عدد من المؤرخين ورجال الطبقات الذين تطرقوا لهذه النقطة فيقول«ومن الذين نحوا نحو هذا الاتجاه»[١] ـ أي الذين اعتبروا أن رحلة الغزالي دامت سنتين ـ ابن الجوزي وأبو الفداء وابن العماد والقاضي ابن العربي.

ويقول ابن الجوزي «وفي ذي العقدة خرج ابو حامد الغزالي من بغداد متوجها إلى بيت المقدس تاركاً للتدريس في النظامية زاهداً في ذلك لابساً خشن الثياب بعد ناعمها، وناب عنه أخوه في التدريس، وعاد في السنة الثالثة من خروجه وقد صنف كتاب «الإحياء» فكان يجتمع إليه الخلق الكثير كل يوم في الرباط يسمعونه منه»[٢].

ويقول أبو الفداء في حوادث ٤٨٨هـ «وفيها سار ابو حامد الغزالي إلى الشام وترك التدريس في النظامية لأخيه نيابة عنه، وتزهد ولبس الخشن وزار القدس وحج ثم عاد إلى بغداد، وسار إلى خراسان»[٣].

أما ابن العماد فيذكر في الشذرات في حوادث سنة ٤٨٨هـ أيضا «وفيها قدم الإمام الغزالي دمشق متزهداً وصنف الاحياء وأسمعه بدمشق وأقام فيها سنتين ثم حج ورد إلى وطنه»[٤].

ويحدث القاضي ابن العربي أنه لقي الغزالي في بغداد وفي رباط أبي سعد بالذات في جمادي الاخرى، سنة ٤٩٠هـ «ورد علينا دانشمند»[٥] يعني الغزالي فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلا على الله تعالى فمشينا إليه وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له أنت ضالتنا التي كنا ننشد وإمامنا الذي به نسترشد فلقينا لقاء المعرفة وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة»[٦].

---

(١) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص٢٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩، ص٨٧.
(٣) ابو الفداء: تاريخ ابي الفداء، ج٤، ص١٢٢.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ج٣، حوادث ٤٨٨، ص٣٨٣.
(٥) دانشمند: صاحب العلم.
(٦) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٤٨٢.

«ولكن بعض رجال الطبقات يرون أنه كان مدة العزلة كلها في بلاد الشام بين دمشق والقدس. ذهب منها مرة إلى الحج. أي أن الغزالي أمضى عشر سنين في الشام. . . وممن نحا هذا النحو عبد الغافر وابن عساكر والسبكي»[١].

أما بالنسبة للبلاد التي زارها، فلو أننا تخطينا الخلاف حول سير خط رحلته وسواء أكان ذهابه للحج أولا أم أنه جاء فيما بعد، إلا أنه اختلف في موضوع سفره إلى مصر. فهناك من يقول بأن الغزالي قصد مصر وأقام بالاسكندرية. ومن الذين أخذوا بهذا الرأي صاحب معجم البلدان الذي يقول في ذلك «وقيل أنه قصد الاسكندرية وأقام بمنارتها»[٢]. وجاء في تاريخ أبي الفداء أن الغزالي «قصد دمشق وأقام بها مدة ثم انتقل إلى القدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة»[٣].

ونميل بدورنا للأخذ بما قاله الغزالي لقناعتنا ـ كما سبق وأشرنا ـ أن حديث الرجل عن نفسه يبقى الأصدق والأقرب إلى الحقيقة، فكيف إذا كان صادراً عن رجل بمستوى علم الغزالي وأخلاقه؟! فانطلاقا من وجهة النظر هذه فإننا نلتقي مع ما جاء على لسان اليافعي اليماني في تعليقه على بعض من سبقوه في الحديث عن سيرة الغزالي. ومما قاله:

«قلت: وأما قول الذهبي[٤] إنه صنف الاحياء، وأسمعه بدمشق فمخالف لما ذكر الإمام ابو حامد المذكور في كتابة (المنقذ من الضلال) إنه أقام في الشام قريباً من سنتين مختلياً بنفسه، ولم يذكر إسماعه الاحياء ولا تصنيفه إياه، ولو كان لذكره كما ذكر علوماًأخرى، صنف فيها قبل السفر أيضاً. فتصنيف الاحياء مع ما

---

(١) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص٢٣ ـ ٢٤.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩.

(٣) ابو الفداء: كتاب المختصر في اخبار البشر، ج٤، ص١٤٤.

(٤) محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، ابو عبدالله: حافظ مؤرخ، علامة محقق تركماني الاصل من اهل ميفارقين مولده ووفاته في دمشق تصانيفه كثير تقارب المئة. كف بصره سنة (٧٤١هـ). وحل الى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان (٦٧٣ ـ ٧٤هـ/ ١٣٧٤ ـ ١٣٤٨م) (الزركلي: الاعلام، ج٥، ص٣٢٦).

اشتمل عليه من العلوم الواسعة، المحاكية للبحر الذي امواجه متدافعة لا يمكن وضعه في سنتين ولا ثلاثة ولا اربعة.

وأما ما ذكره ابن كثير[1] وغيرهم من كونه حج قبل سفره إلى الشام، وأنه أقام في الشام عشر سنين، وأنه دخل مصر والاسكندرية، ورام الاجتماع بملك المغرب، فكل ذلك مخالف لصريح ما نص عليه أبو حامد في كتابه المذكور فإنه ذكر فيه أنه توجه إلى الشام قبل توجهه إلى مكة ثم توجه إلى الحج بعد السنتين المذكورتين، ثم كر راجعاً إلى وطنه وأولاده. وهذا يدل على بطلان القول المذكور وفساده. والعجب كل العجب من قوله إنه قصد سلطان المغرب بقضاء أرب، وهو من ملاقاة السلاطين قد هرب»[2].

وإذا كنا نختلف مع ابن الأثير لقوله بأنه صنف الاحياء خلال مدة سنتين إلا أننا نلتقي معه بأن الغزالي «عاد إلى بغداد بعدما حج في السنة التالية وسار إلى خراسان»[3].

ومما يقوي هذا الرأي في نظرنا بالإضافة إلى ما ذكرناه أن الصليبيين استولوا على بيت المقدس عام ٤٩١هـ وذلك بعد أن ملكوا أنطاكية وقتلوا ملك معرة النعمان وتوالى استيلاؤهم على بلاد الشام واحدة بعد الأخرى ومع ذلك لا نسمع للصليبيين ذكراً في كتابات الغزالي، ولا تحريضا منه للمسلمين على الجهاد والدفاع عن الدين والبلاد، ولا نظنه لو كان في الشام آنذاك يغفل عن مثل هذا الواجب. وقد سبق له أن شارك في تبيان خطر الباطنية ووقف أمامهم وهم في قوتهم وعظمتهم»[4] إضافة إلى أنه وقف إلى جانب الخلفاء وتكلم عن ظلم

---

(١) اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي ابو الفداء، عماد الدين. حافظ مؤرخ فقيه. من كتبه «البداية والنهاية» (الزركلي: الاعلام، ج١، ص٣٢٠) (٧٠١ - ٧٧٤هـ = ١٣٠٢ - ١٣٧٣م).

(٢) اليافعي اليماني: مرآة الجنان، اخبار سنة ٤٨٨هـ. ج٣، ص١٤٦.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٨، ص٥٠٦ - ٥٠٧.

(٤) عبد الكريم العثمان: سيرة الغزالي، ص، ٢٤.

السلاطين للرعية في الوقت الذي لم يكن فيه للخليفة حول ولا قوة أمام سلطة السلاطين الذين كانوا يمسكون بمقاليد الأمور ويسيطرون على مقدرات البلاد.

ويمكننا من خلال ما سبق أن نرجح الاعتقاد بأن الغزالي:

١ ـ لم يبق في دمشق إلا سنتين عاد بعدها إلى بغداد.

٢ ـ لم يعزم لملاقاة السلطان يوسف بن تاشفين.

٣ ـ لم يسافر إلى مصر، خاصة وأنه لم يشر في كتبه إلى مثل هذه الرحلة[١].

ـ مؤلفاته[٢]:

الغزالي علم من أعلام الفكر الإنساني الذين بلغوا ـ في حياتهم ومماتهم ـ مكانة رفيعة. ولقد لعبت الحقيقة والأسطورة دوراً في ذلك تبعاً لما فطر عليه الناس من نسبة جلائل الأعمال إلى من يحظون بالشهرة والمجد حتى ولو لم يكن هم أصحابها ولذلك ليس غريباً أن ينسب إلى الغزالي كما نسب لغيره من العظماء أعداد كثيرة من المؤلفات التي شغلت الباحثين في التحقيق منها على مدار سنوات طويلة.

فالبحث عن مؤلفات الغزالي بدأ فعلياً في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي مع ر. جوشه R. Gosche الذي كتب بحثاً تناول فيه حياة الغزالي ومؤلفاته وكان ذلك عام ١٨٥٨م حيث تناول بالبحث أربعين مؤلفا تقريبا.

وتبعه مكدونالد D.B. Macdonald في بحث نشرته «مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية» JAOS سنة ١٨٩٩. كما تعرض المستشرق أغناطيوس جولدتسير لكتب الغزالي في كتاب نشره في الجزائر سنة ١٩٠٣. ثم عاد وتعرض لكتب الغزالي في مقدمة كتاب «فضائح الباطنية» الذي نشره سنة ١٩٢٦ في ليدن.

---

(١) عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، ص٢٣. وقمير: الغزالي، ج١، ص٣.

(٢) اكثره مستقى من كتاب عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي، ص٩ ـ ١٩.

وفي مقالة نشرت سنة ١٩١٤ تحدث جيردنر W.H.T. Gairdner عن كتاب «مشكاة الأنوارومشكلة الغزالي».

ويعتبر ما قام به ماسينيون أول محاولة جدية لترتيب مؤلفات الغزالي في كتاب أسماه «مجموع نصوص غير منشورة خاصة بتاريخ التصوف في بلاد الإسلام» نشر في باريس سنة ١٩٢٩م. واعتمد ماسينيون المنحى التاريخي لهذه المؤلفات، إلا أنه لم يتطرق إلى المؤلفات المنحولة.

ويعتبر كتاب اسين بلاثيوس Asin Palacios الضخم أول بحث جاد عالج الصحيح والمنحول من كتب الغزالي. ولقد جاء الكتاب في أربعة مجلدات نشرت في مدريد بين عامي ١٩٣٤ ـ ١٩٤١.

ويعادل هذا الكتاب في الأهمية البحث الذي كتبه مونتجمري وات W.M.Wat ونشرته «مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS سنة ١٩٥٢ بعنوان «صحة المؤلفات المنسوبة إلى الغزالي» معتمداً في ذلك على ثلاثة معايير هي:

١ ـ إن الغزالي يعد النبوة ملكة فوق العقل.

٢ ـ إن الغزالي يرتب كتبه ترتيبا منطقيا.

٣ ـ إن للغزالي موقفا من العقائد السنية.

ولا يفوت مونتجمري وات من التنبيه إلى ضعف هذه المعايير. وعلى الرغم من ذلك نراه يأخذ بها ويزاوج بينها ويرتبها ترتيبا تاريخياً معتمداً على الإشارات الواردة في كتب الغزالي.

وهي القاعدة التي اعتمدها جورج حوراني في مقال حول «الترتيب التاريخي لمؤلفات الغزالي. نشر في مجلة الجمعية الشرقية الأمريكية JAOS في اكتوبر ـ ديسمبر سنة ١٩٥٩م (المجلد رقم ٧٩، العدد ٤، ص ٢٢٥ ـ ٢٣٣). ويعتبر الثبت الذي تقدم به حوراني أدق من ذلك الذي قدمه مونتجمري رغم أنه لا يختلف عنه في الخطوط العامة.

ويعتبر كتاب موريس بويج Maurice Bougges «بحث في الترتيب التاريخي

لمؤلفات الغزالي» الذي نشره ميشيل الار Michel Allard في بيروت سنة ١٩٥٩ مع إضافة زيادات عليه أفضل ما كتب حتى الآن عن مؤلفات الغزالي لجهة حصر عددها والبحث في ترتيبها والتحدث عن كل كتاب منها من حيث صحته.

وفيما يلي الترتيب الزمني لمؤلفات الغزالي وفق ما أورده موريس بويج:

(أ) الفترة الأولى (من ٤٦٥ ـ ٤٧٨هـ) أي قبل وفاة إمام الحرمين:

١ ـ التعليقة في فروع المذهب.

٢ ـ المنخول في أصول الفقه.

(ب) الفترة الأولى من التعليم العام (من ٤٧٨ ـ ٤٨٨هـ):

٣ ـ البسيط.

٤ ـ الوسيط.

٥ ـ الوجيز.

٦ ـ خلاصة المختصر.

٧ ـ المنتحل في علم الجدل.

٨ ـ مآخذ الخلاف.

٩ ـ لباب النظر.

١٠ ـ تحقيق المآخذ.

١١ ـ المباديء والغايات.

١٢ ـ شفاء الغليل.

١٣ ـ فتوى (لابن تاشفين).

١٤ ـ فتوى خاصة بلعن يزيد بن معاوية.

١٥ ـ غاية الغور في دراية الدور.

١٦ ـ تهافت الفلاسفة.

١٧ ـ مقاصد الفلاسفة.

١٨ ـ معيار العلم.

١٩ ـ معيار العقول.

٢٠ ـ محك النظر في المنطق.

٢١ ـ ميزان العمل.

٢٢ ـ المستظهري.

٢٣ ـ حجة الحق.

٢٤ ـ الإقتصاد في الاعتقاد.

٢٥ ـ الرسالة القدسية في العقائد.

٢٦ ـ المعارف العقلية والاسرار الالهية.

٢٧ ـ قواعد العقائد.

(ج) فترة العزلة من (٤٨٨ ـ ٤٩٩هـ):

٢٨ ـ احياء علوم الدين.

٢٩ ـ كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب.

٣٠ ـ جواب (الغزالي على مؤيد الملك بشأن دعوته للتدريس بالنظامية).

٣١ ـ مفصل الخلاف.

٣٢ ـ جواب المسائل الاربع التي سألها الباطنية بهمذان.

٣٣ ـ المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.

٣٤ ـ رسالة في رجوع اسماء الله إلى ذات واحدة على رأي المعتزلة والفلاسفة.

٣٥ ـ بداية الهداية.

٣٦ ـ الوجيز.

٣٧ ـ جواهر القرآن.

٣٨ ـ الأربعين في أصول الدين.

٣٩ ـ المضنون به على غير أهله.

٤٠ ـ المضنون به على أهله.

٤١ ـ الدرج المرقوم بالجداول.

٤٢ ـ القسطاس المستقيم.

٤٣ ـ فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة.

٤٤ ـ القانون الكلي في التأويل.

٤٥ ـ كيمياء السعادة.

٤٦ ـ أيها الولد.

٤٧ ـ نصيحة الملوك.

٤٨ ـ زاد آخرت.

٤٩ ـ رسالة إلى أبي الفتح أحمد بن سلامة بالموصل.

٥٠ ـ الرسالة اللدنية.

٥١ ـ رسالة إلى بعض أهل عصره.

٥٢ ـ مشكاة الإنوار.

٥٣ ـ تفسير ياقوت التأويل.

٥٤ ـ الكشف والتبيين في غرور الخلف أجمعين.

٥٥ ـ تلبيس إبليس.

(د) الفترة الثانية من التعليم بين (٤٩٩ ـ ٥٠٣هـ):

٥٦ ـ المنقذ من الضلال.

٥٧ ـ عجائب الخواص.

٥٨ ـ غاية الغور في دراية الدور.

٥٩ ـ المستصفى من علم الأصول.

٦٠ ـ سر العالمين وكشف ما في الدارين.

٦١ ـ الإملاء على الإحياء.

(هـ) السنوات الاخيرة (من ٥٠٣ ـ ٥٠٥هـ):

٦٢ ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

٦٣ ـ الجام العوام في علم الكلام.

٦٤ ـ منهاج العابدين.

ويحاول بويج أن يعرف بكل كتاب مستنداً إلى ما جمع من أخبار حوله من مخطوطات القاهرة واستانبول. ويصل بمجموع ما نسب من كتب للغزالي إلى الرقم ٣٨٣. أما ألآر فقد وصل بها إلى ٤٠٤.

وبالنسبة للبحث الذي تقدم به عبدالرحمن بدوي فإنه يختلف عما فعله بويج والآخرين من وجوه عدة أجملها المؤلف في ست نقاط[١].

ويمكن حصر أهم ما ألّف الغزالي في ثلاثة كتب حتى لو لم يؤلف غيرها لبقي هو الغزالي العملاق المعروف بشخصيته المتميّزة بعملها ومعرفتها وهذه الكتب هي:

١ ـ المنقذ من الضلال.

٢ ـ تهافت الفلاسفة.

٣ ـ الاحياء (وهو أهمها).

«ويعد الغزالي بحق، إمام أهل البيان، في الأسلوب العلمي، والإسلوب الاجتماعي، وقد حرص أشد الحرص على إفهام القارئين وإقناعهم بما يريد إبلاغهم إياه، فجانب التعقيد والاصطلاحات الفنية، وأكثر من ضرب الأمثال في تقريب المعاني الدقيقة، كما يعد بحق إمام العلماء الذين حاولوا تقريب الفلسفة، ومدركات الصوفية إلى عقائد الدين وقواعدها»[٢].

ـ وفاته:

كان الإمام الغزالي قد استقر في طوس عندما ألزم بالعودة إلى نيسابور

---

(١) انظر عبد الرحمن بدوي: مؤلفات الغزالي: ص١٨ ـ ١٩.

(٢) احمد فريد رفاعي: الغزالي، ص١٢.

للتدريس استجابة لرأي الوزير فخر الملك ـ ابن نظام الملك ـ في الوقت الذي لم يغب عنه خطر الفرق الهدّامة والتيارات الالحادية الباطنية، فلقد كان يعيش هذه الأزمة، ويستشعر خطرها إلا أنه كان يتحين الظروف المناسبة للوقوف بوجهها وتبيان زيفها ومن ثم درء خطرها. ويصور الغزالي ذلك أصدق تصوير في كتابه «المنقذ من الضلال» حيث يقول: «فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الاسباب، ورأيت نفسي ملبة بكشف هذه الشبهة حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم، أعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم. فما تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عمّ الداء، ومرض الاطباء، وأشرف الخلق على الهلاك! ثم قلت في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة (ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة والدور دور الباطل)، ولو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم وأنّى تقاومهم، فكيف تعايشهم) ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟.

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت نفسه لا بتحريك من خارج. فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة وبلغ الإلزام حدا كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد الوحشة. فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة والكسل والاستراحة... فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة... ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمائة وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمائة»»[1].

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٥٧ ـ ١٥٩.

ولم يلبث الغزالي أن ترك نيسابور مرغماً بسبب الظروف التي أحاطت به إثر سقوط الوزير فخر الملك ذبيحاً بيد الباطنية. ولم يحدد أي مصدر إلى متى استمر الغزالي بالتدريس بنظامية نيسابور. ومعلوم أن فخر الملك قد قتله أحد الباطنية في اليوم العاشر من المحرم سنة ٥٠٠هـ[١]. ويشير عبد الغافر الفارسي إلى هذه الفترة من حياة الغزالي فيقول: «ثم ترك ذلك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته واتخذ في جواره مدرسة لطلب العلم، وخانقاه للصوفية، وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن، ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس»[٢].

وعلى الرغم من انشغال الغزالي في التعلم والتعليم والتربية الروحية غير أنه «لم يترك... مشاكل الناس بل عايشها وعاش معهم فبعث في سبيل ذلك، رسائل كثيرة إلى السلاطين والوزراء والأمراء ينصحهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحذرهم من الظلم وكثرة الضرائب على الشعب»[٣].

«وبقي هكذا عالما معلماً زاهداً ناصحاً مربياً داحضاً لحجج الفرق الهدامة إلى أن لبى نداء ربه»[٤]. «فنقله إلى كريم جواره بعد مقاساة أنواع من التقصر والمناوأة من الخصوم... وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين البخاري ومسلم... ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام يستفرغه في تحصيله، ولا شك أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية واشتغل بآخر عمره بسماعها...»[٥].

«وكانت وفاته بطوس في يوم الاثنين رابع عشر جمادي الآخرة سنة خمس وخمسمائة ومشهده بها يزار بمقبرة الطابران. قال أبو الفرج بن الجوزي في كتاب الثبات عند الممات. قال احمد أخو الإمام الغزالي لما كان يوم الاثنين

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج٩، ص١٠٠.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٩.

(٣) الغزالي: ايها الولد، القسم الدراسي، ص٢٣.

(٤) الغزالي: المرجع السابق، ص٢٤.

(٥) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج٤، ص١٠٥،١٠٦.

وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال علي بالكفن، فأخذه وقبله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة ومات قبل الاسفار قدس الله روحه»[1].

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الفصل الثالث

الغزالي وعصره

- مقدمة.
- موقف الغزالي من الأحوال السياسية السائدة.
- موقف الغزالي من التيارات الفكرية والدينية.
- موقف الغزالي من الأحوال الاجتماعية.
- موقف الغزالي من علوم عصره.

ـ مقدمة:

إن الفكر سواء كان تربويا أم غير ذلك لا ينبت في فراغ وإنما ينبت في تربة معينة ذات بعدين اثنين أولهما يتصل بالمفكر نفسه، وما أحاط به من ظروف خاصة. والثاني يتصل بالمجتمع الذي نشأ فيه ذلك المفكر، والآثار التي تركها عليه وعلى فكره، سواء كانت هذه آثار سلبية تعتبر رد فعل للواقع الاجتماعي. أو قد تكون آثار تعديل مسار تجمع بين السلب والايجاب كما نرى في المفكرين المصلحين من أمثال مفكرنا الغزالي[1]. وهذا ما سنطلع عليه من خلال المواقف التي عبر عنها الإمام الغزالي في الأحوال التي سادت العصر الذي عاش فيه، حيث استطاع أن يكون «ذا أثر على التفكير الإسلامي، ولعل هذا الأثر يظهر في ناحيتين: الناحية الأولى في موقفه أمام الفلاسفة، وهدم مبادئهم وقد أدى ذلك إلى الحد من شأن الفلسفة والشك في قيمتهاوالتهجم عليها، ولولا الغزالي وأثره في القرن الخامس لسطعت جذوتها، ولكن حملة الغزالي قد صرفت الناس عن الفلسفة والفلاسفة وجذبتهم إلى الدين والتعلق به.

أما الناحية الثانية، فهي أن الغزالي المتصوف قد أثرت تعاليمه وكتبه في الشرق ولفتت كثيرا إلى الدين وأهله، وأشاعت الثقة بالعقائد الموروثة؛ تلك الثقة التي كادت أن تتزعزع أمام الفلاسفة ومن شايعهم. ولهذا عد الغزالي في نظر علماء المسلمين حامي الإسلام أو حجة الإسلام».

---

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة ايها الولد)، ص١٧، ١٨.

من هنا تبرز أهمية موقف الغزالي من أحوال عصره خاصة وأنه «يهتم بالناس جميعاً لا بأفراد منهم»[1].

ـ موقف الغزالي من الأحوال السياسية السائدة:

لقد عكست الأحوال السياسية نفسها على العلماء المسلمين مما حدى بهم للبحث في موضوع الحكم وإبراز ما للحاكم وما عليه تماماً كما فعل الإمام العزالي الذي اعتبر السياسة من أشرف العلوم، فكانت له مواقف وملاحظات هامة على الحكم والحكام رغم صداقته وعلاقته المتميزة بنظام الملك. فلقد اندفع للكتابة في مجال السياسة والحكم والعلاقة بالسلاطين انطلاقا من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فحذر من أموال سلاطين عصره واعتبرها حراما لأنها مجموعة من الخراج المضروب على المسلمين. ومن أنواع الرشوة ومن الجزية المأخوذة ظلما من أهل الذمة لذلك لا يجوز أخذ شيء من هذه الأموال لأن الحلال فيها معدوم[2].

ويفرد الغزالي فصلا كاملا يتناول فيه موضوع التعامل مع الحكام الظالمين حيث يعرض بشجاعة منقطعة النظير الأدلة الشرعية التي يجب على المسلم مراعاتها في تعامله مع رجال السلطة وأهل الحكم.

ويتحدث الغزالي عن الفتن التي قد تنجم عن مخالطة السلاطين فيقول «الداخل على السلطان متعرض لأن يعصي الله تعالى إما بفعله أو بسكوته وإما بقوله وإما باعتقاده فلا ينفك عن أحد هذه الأمور»[3].

كما وأن الغزالي يحذر من الدخول على الحكام الظلمة ويقول إن لذلك ثلاثة أحوال:

الحالة الاولى: وهي شرها أن تدخل عليهم.

---

(١) بهي الدين زيان: الغزالي ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية، ص٨٢.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج٢، ص١٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٧.

الحالة الثانية: دونها، أن يدخلوا عليك.

الحالة الثالثة: وهي الأسلم أن تعتزل عنهم فلا تراهم ولا يرونك[١].

- ويقر الغزالي بجواز الدخول على السلاطين في حالتين:

«إحداهما: أن يكون من جهتهم أمر إلزام لا أمر إكرام، وعلم لو أنه امتنع أوذي أو فسد عليهم طاعة الرعية. واضطرب عليهم أمر السياسة فيجب عليه الإجابة لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق حتى لا تضطرب الولاية.

والثاني: أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواه أو عن نفسه إما بطريق الحسبة أو بطريق التظلم فذلك رخصة بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولا فهذا حكم الدخول»[٢].

وانطلاقاً من هذه القناعات ألف الغزالي كتاب «التبر المسبوك» بهدف نصيحة السلطان محمد بن ملكشاه انسجاما مع إيمانه العميق بأن الدين النصيحة وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات كل مسلم خاصة أهل العلم والمعرفة وهو ما يؤكد عليه في قوله: «فهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوة السلاطين لكونهم اتكلوا على فضل الله تعالى أن يحرسهم ورضوا بحكم الله تعالى أن يرزقهم الشهادة فلما اخلصوا لله النية أثر كلامهم في القلوب القاسية فلينها وأزال قساوتها وأما الآن فقد قيدت الاطماع ألسن العلماء وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا. ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأرذال، فكيف على الملوك والأكابر؟ والله المستعان على كل حال»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٩.
(٣) المرجع السابق، ص٣٨٥.

ولم يقف الغزالي عند حد الموعظة إنما ترجم ذلك واقعا ملموسا ومواقف جلية. فهو لم يتردد في إصدار فتواه إلى جانب الخليفة المقتدي عندما توترت العلاقة بين الخليفة وخاتون زوجة السلطان ملكشاه بعد أن رفض المقتدي أن يحضر أمر الجيش وجباية الأموال بابنها محمود نظراً لصغر سنه. ولقد أيد الغزالي موقف الخليفة وأفتى بعدم جواز هذا الأمر[١].

فالغزالي لم ترهبه سلطة السلاطين عن قول كلمة الحق في الوقت الذي لم يمنعه ضعف الخلفاء عن الوقوف إلى جانبهم والدفاع عنهم ففي «فضائح الباطنية» نرى كيف أنه في الباب التاسع من الكتاب يقيم البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر[٢].

فمؤازرة الإمام الغزالي للخلافة العباسية ودفاعه عن المستظهر والولاء الكامل له لم يكن طمعا بالمال أو الجاه وإنما كان طاعة لله ورسوله ولما يمثله المستظهر بصفته خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في سياسة الدنيا والدين.

ـ موقف الغزالي من التيارات الفكرية والدينية:

وفي غمرة الأحوال الدينية والفكرية التي كانت سائدة عشية الغزو الخارجي للعالم الإسلامي وفي خضم التشرذم والصراعات بين القوى الإسلامية كان لا بد من وقفة لرأب الصدع ووقف النزف وإعادة اللحمة ومواجهة الصراع «بإعادة صياغة مفهوم الإسلام على نحو يسلك الجماعة الإسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة»[٣].

فعلى الصعيد الفكري حمل الغزالي لواء «اعادة صياغة مفهوم الإسلام» بالاتجاه نحو القرآن نفسه كمصدر أساسي. وإعطاء الإسلام تكامله وشموله

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الاسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، ص٤٠.

(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، ص١٦٩.

(٣) انورالجندي: الاسلام وحركة التاريخ، ص٢٧٠.

بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية والفلسفات القديمة[١]. ولقد أظهر في اختياراته الشخصية الدينية كل ما في الإسلام من مظاهر ومعان روحية وإليك ما قاله عن نفسه[٢].

«ولم أزل في عنفوان شبابي... مذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين اقتحم لجة هذا البحر العميق... وأتوغل في كل ظلمة... واستكشف أسرار مذهب كل طائفة.. ولا أغادر باطنيا إلا وأحب أن اطلع على باطنيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن اعلم حامل ظاهريته، ولا فلسفيا إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ولا متكلما إلا واجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيا إلا واحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عباداته ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته. وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور ودأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله تعالى وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي»[٣].

وانحصر أصناف الطالبين عند الإمام في اربع فرق:

«١ ـ المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢ ـ الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام العصوم.

٣ ـ الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ ـ الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة»[٤].

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) فيليب حتي ورفاقه: تاريخ العرب، ص٥١٩.

(٣) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٧٩ ـ ٨١.

(٤) المرجع السابق، ص٨٩.

وبطبيعة الحال كان للغزالي موقف من كل هذه الأصناف يمكن إيجازه على النحو التالي:

*** علم الكلام:**

يحدد الغزالي موقفه إزاء علم الكلام من خلال ما ورد على لسانه في «المنقذ» عندما يقول:

«ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي إنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة... وحراستها عن تشويش أهل البلاغة. فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار. ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها. فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله، ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه فأحسنوا الندب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها: إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا فلم يكن الكلام في حقي كافيا، ولا لدائي الذي كنت اشكوه شافيا. نعم لما نشأت صنعة الكلام، وكثر الخوض فيه، وطالت المدة، تشوق المتكلمون إلى محاولة الندب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها. ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق. ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك

لغيري، بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة، ولكن حصولا مشوبا بالتق
بعض الأمور التي ليست من الأوليات! والغرض الآن حكاية حالي لا الإنك
من استشفى به. فإن أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء. وكم من دواء ي
مريض ويستضر به آخر»[1].

ويشمل اصطلاح علم الكلام جميع الفرق التي اعتمدت على الع
الدفاع عن العقيدة الدينية ويعد المعتزلة أشهر من زاول علم الكلام. ولئ
المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام على أن الاعتماد على العقل واجب
اختلفوا في مصدر هذا الواجب، فقالت المعتزلة: إن هذا المصدر ذاتي
ناجم عن طبيعة العقل نفسه، وإن هذا العقل إذا بلغ تمامه استطاع أن يص
معرفة الله. أما سائر المتكلمين فيثبتون تقدم النقل على العقل ويقولون لولا
الشرع لما تمكن العقل من معرفة الله. ويأتي على رأس هؤلاء الأشاعرة
يذهبون إلى أن العقل لا قيمة له بذاته وأن براهينه لا تكون صادقة إلا إذ
مبنية على معطيات الشرع. وإذا تذكرنا أن الغزالي كان أشعري النزعة لم
لوقوفه إزاء العقل موقفا قريباً من مذهب الأشاعرة وإن كان مختلفاً عن
غايته[2].

وفي كتاب «إلجام العوام عن علم الكلام» يحذر الغزالي العامة من
في الخوض في علم الكلام حيث يرى إن «السكوت عن السؤال واجب
العوام لأنه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما ليس أهلا له»[3].

وبهذا فإن سعي الغزالي لتحديد موقفه من علم الكلام وإظهار إيج
وسلبيات هذا العلم وإمكانيات الإفادة منه ينبع من حرصه على خدمة ا
والمسلمين.

---

(١) المرجع السابق، ص٩١ - ٩٣.
(٢) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص٣٤٦.
(٣) الغزالي: الجام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٤، ص٦٨.

* الفلسفة:

بالنسبة لما يتعلق بموضوع الفلسفة فلقد صنّف حجة الإسلام ك
الفلاسفة» حيث بيّن فيه مجموع المسائل التي غلطوا فيها واعتبرها ع
رآها مخالفة للدين ينبغي تكفيرهم في ثلاث منها وتبديعهم في الأخرى

والمسائل الأساسية الثلاث التي كفر الفلاسفة فيها هي:

١ ـ قدم العالم وأزليته.

٢ ـ اقتصار علم الله على الكليات دون الجزئيات.

٣ ـ إنكار حشر الأجساد.

وتعتبر مسألة السببية من المسائل الهامة التي تعرض لها الغزالي
«الإقتران بين ما يعتقد في العادة سبب، وما يعتقد مسبباً، ليس ضرور
ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر، مثل الري والشرب وال
والاحتراق ولقاء النار. . . وهلم جرا إلى كل المشاهدات. . . فإن
سبق من تقدير الله سبحانه، يخلقها على التسوق لا لكونه ضرورياً ف
قابل للفوت»[٢] وفي الحديث عن احتراق القطن عند ملاقاته النار يرى
فاعل الاحتراق في القطن ليس النار، وإنما هو الله فإن النار وهي ج
له. ويضيف موضحاً رأيه «وليس لهم دليل، إلا مشاهدة حصول الا
ملاقاة النار، والمشاهدة تدل على الحصول عندها، ولا تدل على ال
وإنه له علّة له سواها»[٣].

وبديهي أن الأسباب التي حملت الغزالي على إنكار مبدأ السبب
النهاية إلى رغبته في ترك باب المعجزات مفتوحاً. فهو لم ينكر فعل
ليعلّق الأفعال والأسباب كلها بإرادة الله. وهو لم يجوز أن يلقي نبي

---

(١) الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص٢٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يحترق إلا باعتقاده أن الله قادر على خرق العادات. . والسببية الحقيقية ـ في نظ
الغزالي ـ ترجع إلى علاقة إرادية بين الله والعالم. أما ارتباط الأسباب والمسببا
الطبيعية بعضها ببعض فليس له قيمة بنفسه، ولا معنى له إلا إذا استند إلى إرا
الله[1].

أما فيما يتعلق بأصناف الفلاسفة فيقول الغزالي: «إنهم على كثرة فرقه
واختلاف مذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون
والآلهيون»[2]. ولقد كان حكمه عليهم واضح عندما قال: «فاسمع الآن حكاياته
وحكاية حاصل علومهم فإني رأيتهم أصنافاً ورأيت علومهم أقساماً وهم على كثر
أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين وبي
الاواخر منهم والاوائل تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه»[3].

وينكر الغزالي على الفلاسفة سحب المقولات الرياضية والمنطقيات لتطبيق
على الأمور الدينية لأنه «لايتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً»[4]. ويرى
أن مصدر انحرافهم هو إيمانهم واتباعهم «لأسماء هائلة كسقراط (٤٧٠
٣٩٩ق.م) وإيقراط (٤٦٠ ـ ٣٧٧ق.م) وأفلاطون (٤٢٧ ـ ٣٤٧ق.م
وأرسطوطاليس(٣٨٤ ـ ٣٢٢ق.م) وأمثالهم، وأطناب طوائف من متبعيه
وظلالهم في وصف عقولهم وحسن أصولهم ودقة علومهم»[5].

فالغزالي يهدف من وراء ذلك للرجوع إلى النبع الصافي للعقيدة. ففي
معرض شرحه للأسباب التي دعته إلى وضع كتاب التهافت يقول «أما بعد فإني ق
رأيت طائفة يعتقدون في أنفسهم التميز عن الأتراب والنظراء بمزيد الفط
والذكاء، قد رفضوا وظائف الإسلام من العبادات واستحقروا شعائر الدين م

---

(١) المرجع السابق، ص٢٢٧ ـ ٢٣٧.
(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٩٦.
(٣) المرجع السابق، ص٩٥.
(٤) المرجع السابق، ص١٠٠.
(٥) الغزالي: تهافت الفلاسفة، ص٥٩ ـ ٦١.

وظائف الصلوات والتوقي عن المحظورات واستهانوا بتعبدات الشرع وحـ
يقفوا عند توقيفاته وقيوده فلما رأيت هذ العرق من الحماقة نابضاً عـ
الأغنياء انتدبت لتحرير هذا الكتاب رداً على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت
وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالآلهيات، وكاشفاً عن غوائل مذهبهم وعـ
هي على التحقيق مضاحك العقلاء وعبرة عند الاذكياء[1].

* الباطنية:

يعتبر «الحسن بن الصباح أجد دعاتهم وكان لا يدعو إليه من الناس
جاهلاً»[2]. من أجل السيطرة على عقولهم. ولقد «التف عليه بشر كـ
غفير»[3] فكان بمثابة العقل المدبر الذي نظم طائفة الباطنية خلا
السلجوقية، ولقد أثبتت الأحداث أن خطر هذه الحركة كان بالغ الأثر
الأصعدة لدرجة أن وقع أفعالهم طغى على وقع أخبار الحملات الصليبـ
مما يجعل بعضهم يذهبون بعيداً بتفكيرهم لدرجة تكاد تجعلهم على
الإعتقاد بوجود علاقة ما بين الحملات الخارجية على الديار الإسلامـ
الباطنية على الديانة الإسلامية عبر الفتن والاغتيالات والسيطرة على بعضـ
والقلاع إضافة إلى إباحة نهب أموال المسلمين وسفك دمائهم. وهذا
الأحداث التي أرّخ لها إبن الأثير وابن الجوزي وغيرهما.

لذا لم يكن غريباً على الإمام الغزالي أن يقف بوجه هذه الفئة للتـ
دفاعا عن الحق وقطعاً لدابر الملحدين من خلال بيان فساد مذهبهم في
كتاب حيث أنه يقول «وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت
كتاب «المستظهري» أولاً، وفي كتاب «حجة الحق» ثانيا. . . وفي كتا
الخلاف» ثالثا. . . وفي كتاب «الدرج المرقوم بالجداول» رابعاً. و

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٢، ص١٥٩.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

«القسطاس المستقيم» خامساً، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم وإظهار الإستغناء عن الإمام المعصوم لمن أحاط به»(١).

ويشير الغزالي في كتاب «فضائح الباطنية» إلى بواعث ظهورهم، وأهداف دعوتهم ومرامي بدعتهم عندما يقول «مما تطابق عليه نقلة المقالات قاطبة أن هذه الدعوة لم يفتتحها منتسب إلى ملة ولا معتقد لنحلة معتضد بنبوة فإن مساقها ينقاد إلى الإنسلال من الدين كانسلال الشعرة من العجين. ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكية وشرذمة من الثنوية والملحدين وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدمين وضربوا سهام الرأي في استنباط تدبير يخفف عنهم ما نابهم من استيلاء أهل الدين، وينفس عنهم ما دهاهم من أمر المسلمين حتى أخرسوا ألسنتهم عن النطق بما هو معتقدهم، من إنكار الصانع وتكذيب الرسل وجحد الحشر والنشر والمعاد إلى الله»(٢).

ويسعى الغزالي للكشف عن أساليبهم وطرقهم في الوصول إلى المسلمين من خلال الإستشهاد بما يقولون: «فسبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم هم أركهم عقولا وأسخفهم رأيا وألينهم عريكة لقبول المحالات، وأطوعهم للتصديق بالأكاذيب المزخرفات، وهم الروافض. ولنتحصن بالإنتساب إليهم والإعتزاء إلى أهل البيت عن شرهم... ونتبالى لهم على مااحل بآل محمد صلى الله عليه وسلم»(٣). ولقد كان لهذا الأسلوب أثره البالغ مما جعل عقيدة الباطنية تلقى قبولاً واستحساناً ورواجاً عند عامة الناس على الرغم من ضعف الحجة وفساد الطريقة(٤).

ولقد صنف الإمام هذه الفئات إلى ثمانية أصناف حيث يقول: «وهم ثمانية أصناف: الصنف الأول طائفة ضعفت عقولهم، وقلت بصائرهم وسخفت في أمور آراؤهم لما جبلوا عليه من البله والبلادة»(٥). ويتابع الغزالي تعداده إلى أن يقول

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٢٧.
(٢) الغزالي: فضائح الباطنية، ص١٨.
(٣) المرجع السابق، ص١٩.
(٤) المرجع السابق، ص٣٣.
(٥) المرجع السابق، ص٣٣ ـ ٣٤.

«وطائفة استولت عليهم الشهوات فاستدرجتهم متابعة اللذات واشتد عليهم وعيد الشرع وثقلت عليهم تكاليفه»[1].

ومن يعود إلى ما قاله الإمام بن الجوزي في كتابه «تلبيس ابليس» والديلمي في كتابه «بيان مذهب الباطنية وبطلانه» يرى أنهما يعكسان رأياً مطابقاً لرأي الإمام الغزالي في الباطنية ومشاربها وأسباب ظهورها ومراميها.

ويمكننا القول أن آراء الغزالي قد جاءت رداً على ما ساد الدولة الإسلامية من انحلال خلقي واضطراب سياسي وبعد عن الدين ـ سواء على يد الباطنية أم أتباع المذاهب الفلسفية ـ فكانت مواقفه نابعة من حرصه على الإسلام وليست نتيجة تأثير سياسي كما يحلو لبعضهم أن يقول. فالإمام عندما وقف إلى جانب الخلافة تحدث عن ظلم السلاطين، وما يجب أن يكون عليه الوزراء الظلمة لم يكن بذلك مسايراً أو متملقاً للقوى الحاكمة وإنما كان متحدياً لها إستجابة لدافع الدين وتكريساً لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقتداء بالرسول الكريم.

*** الصوفية:**

لقد أسهمت ثورة الغزالي على الفلاسفة إسهاما فاعلا في نصرة الصوفية التي كانت تمثل حركة مضادة لما كان يجري من نزاعات بين الفرق الإسلامية أدت إلى بلبلة الأفكار، وتفريق المسلمين وغلبة التعصب[2]. فالتصوف كان العلاج لأمراض العصر لأن «ما في التصوف من الدعوة إلى طهارة الباطن، وحب الخير، وبغض الشر، وما إلى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس البشرية من خبيث الصفات يرجع في جوهره إلى روح الإسلام. أما ما يختص بقطع العلائق مع الناس والتزهيد في الحياة فهو بعيد عن روح الدين»[3].

وعلى الرغم من أن لفظ التصوف لم يرد في الكتاب ولا في السنة إلا أن

---

(١) المرجع السابق، ص٣٦.

(٢) عبد النعيم حسنين: سلاجقة ايران والعراق، ص١٧٤، ١٧٥.

(٣) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص٨٠.

الله ورسوله قد أمرا بالتقوى والصدق والاخلاص ونهيا عن النفاق والرياء والخيانة. إذن فكل ما ينطبق عليه الصدق والإخلاص فهو من الإسلام في الصميم، وكل ما ينطبق عليه الرياء والنفاق فليس من الإسلام في شيء وبهذا المقياس وحده يمكننا الحكم على التصوف وكل ما قد يطرأ على الدين[١].

فالصوفية في نظر الغزالي «خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة»[٢] و«طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل (بها) إلى تخلية القلب من غير الله(تعالى)»[٣]. وهذا «ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات». ويشير الغزالي إلى أن الصوفية «أرباب أحوال لا أصحاب أقوال»[٤]. و«هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[٥].

وبما أن تصوف الغزالي وأمثاله هو التقوى والحب والإخلاص لله وللإنسانية كان حقا وهداية[٦]. حيث أنه ابتعد عن جنوح المتصوفة الذين شطحوا فانتهوا «إلى دعوى الإتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالخطاب»[٧]. كما وأنه

---

(١) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية القاهرة. ص٥١٣.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٣.

(٥) المرجع السابق، ص١٣٩.

(٦) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي» ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية القاهرة. ص٥١٣.

(٧) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤٨.

تجنب الذين تفيقهوا فتكلموا «كلمات غير مفهومة لها ظواهر رائقة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل. . . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أنه يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يحمل على أن يفهم منها معاني ما أريد بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه»[1].

فمفتاح طريق الغزالي «استغرق القلب بالكلية بذكر الله»[2]. حيث ينتهي الأمر بعد ذلك إلى قرب «يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الإتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ[3]».

«فتصوف الغزالي تصوف مسلم سني متعبد آمن بالله والنبوة، وباليوم الآخر وكف نفسه عن الهوى، وأعرض عن الجاه والمال، وهرب من الشواغل والعلائق وأقبل بكنه همته على الله تعالى، لذلك كان التصوف عنده مبنيا على علم وعمل»[4]. وهو في ذلك يقول «وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي. . . وكتب «الحارث المحاسبي» والمتفرقات المأثورة عن «الجنيد» و«الشبلي» و«أبي يزيد البسطامي». . . وغيرهم. . . وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تكون صحيحا وشبعانا؟ وبين أن تعرف حد السكر. . . وبين أن تكون سكران. . . فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا»[5].

و«لقد رجع الغزالي إلى القلب لينقذ هذا الدين من المفاهيم الفاسدة والأفكار الخاطئة لتي هددته بخطر بالغ، لقد أراد الغزالي هذا الدين خالصا من تأويلات أهل الباطن وإمعانهم في التعسف والتكلف، ومن جهل أهل الظاهر

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٤) جميل صليبا: تاريخ الفلسفة العربية، ص٣٨٠.

(٥) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٣٠ ـ ١٣٣.

وجمودهم على الالفاظ ومن شطحات الصوفية التي تجاوزت كل حد ومن أوهام الفلاسفة وتخيلاتهم التي اعتبرت حقائق الروح في مرتبة أدنى من أقيسة أرسطو وتصوراته. . .»[١].

ففي زمن «كان جوهر الإسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصفى الغزالي الإسلام من جديد، وأزال عن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الإسلام أسلحة قوة ثم تحولت مع الزمن ومع انفصالها عن شمول الإسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الإسلام نفسه، صارع قوى المتكلمين والباطنية والفلاسفة وواجه انحرافاتها وردها جميعها في صياغة جديدة وصبها جميعها من جديد في «بوتقة الإسلام» ليبرز الإسلام بمفهومه الاسنى وقد استصفى عناصر القوة والحيوية التي تتمثل في هذه الافكار والدعوات وأعادها إلى منابعها من الإسلام وأقام من جوهرها بناء فكر الإسلام في شموله»[٢].

ـ موقف الغزالي من الأحوال الاجتماعية:

وفي هذه البيئة الاجتماعية التي اختلطت فيها العادات والمعتقدات والأجناس والألوان برزت العصبية والعنصرية كظاهرة اجتماعية وآفة من آفات المجتمع التي كانت سببا في نشوء الصراعات بين العناصر المختلفة، إضافة إلى أنها كانت عاملا من عوامل انحلال الاخلاق وتفشي المجون ومعاقرة الخمرة والاستهتار بالقيم مما حدا بالغيارى على الإسلام للتصدي لهذه الآفات والظواهر المرضية البعيدة عن منهج الإسلام.

ولقد شاءت إرادة المولى عز وجل أن يشهد الغزالي مشكلة العصر، فعاشها في عقله ووجدانه وكتاباته. وعمد للكشف عنها وتشخيصها ومن ثم تحديد

---

(١) محمد جواد مغنية: «مصدر المعرفة عند الامام الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ص٥٢١.

(٢) انور الجندي: الاسلام وحركة التاريخ، ص٢٧٠، ٢٧١.

العلاج المناسب لكل ظاهرة بما يتمشى معها ويناسبها من الجرعات كماً وكيفاً. انتهى

- تابع كتاب الرسالة الإسلامية من ص ٦٥ الفقرة الثالثة لغاية ص ٨٥ ناهدة

«لذا فإن علم الأخلاق عند الغزالي هو علم نفس خلقي على الخصوص»[١] «وعمل الغزالي يقوم بوجه خاص، على الاستقصاء في الفروق وفيما دق من التحليل النفسي»[٢].

ومن يرجع إلى كتاب «الاحياء» يرى مدى موضوعية الإمام الغزالي ودقته في تشخيص الآفات الاجتماعية. ففي الجزء الثالث الذي يتضمن ربع المهلكات يتجلى الإمام الغزالي كعالم في الأخلاق خبير في نفوس الناس قادر على سبر غورها والوصول إلى نتائج باهرة في علاجها ووضع حد لمعاناتها طمعاً في تحقيق المجتمع الإسلامي الخالي من الامراض والجدير بلقب خلافة الله تعالى في الارض.

ويتأكد لنا من خلال هذا الجزء وغيره إضافة إلى ما ورد في كتاب «الأدب في الدين» وسواه، مدى شمولية وتكاملية نظرة الغزالي إلى المجتمع بأسره حيث إنه استطاع بفضل عقيدته الإسلامية أن يضع منهجا من السلوك القادر على توحيد القيم والاتجاهات بما يتلاءم مع الكتاب والسنة. ولئن أخذ بعضهم على الإمام الغزالي ذلك ـ رغم ما يميز هذه الآداب من شمولية وتجانس ـ بحجة ما تلحقه من جمود وقيود وحدود بكل من التربية والأجيال والثقافة ـ حسب ما يرددون ـ فإن المرء ليتساءل: هل نسي هؤلاء أن الإسلام منهج حياة صالح لكل زمان ومكان؟! أم أنه غاب عنهم أن الاعتدال والوسطية سمة هذا الدين الحنيف البعيد عن الجمود والقيود والمحدودية؟! فإذا ما قدر لهم ووعوا هذه الحقائق يكون مطلوبهم الخروج عن تعاليم الإسلام تحت مظلة الانفتاح على الثقافات الهدامة

(١) كرادوفو: الغزالي: ص١٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص١٣١.

وهذا ما لا يرضاه مسلم. تماماً كما لم يرض به الغزالي الذي انبرى
لمأساة المسلمين في عصره والعصور التي تلت.

ولقد عكس الإمام الغزالي في مواقفه الوضع الذي كان سائداً في
«كتاب ذم الغرور» الكتاب العاشر من ربع المهلكات، يتحدث عن أجنا
وأصناف المغتربين بأسلوب واقعي مشوق جذاب يتسم بالصدق والصرا
على الإقناع. علاوة على أنه يعكس مدى اطلاع الإمام الغزالي ومعر
الناس حيث يقول «والمغترون هم الذين اراد الله أن يضلهم فجعل صد
حرجاً كأنما يصعد في السماء. والمغرور هو الذي لم تفتح بصيرته ليك
نفسه كفيلا وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدا والشيطان دليلا»[١]. وي
حديثه فيقول «ونحن نشرح أجناس الغرور وأصناف المغترين من القضا
والصالحين الذين اغتروا بمباديء الأمور. الجميلة ظواهرها القبيحة سر
ومن ثم يخلص لتحديد المغترين في أربعة أصناف[٣].

الصنف الاول: من العلماء.

الصنف الثاني: من العباد.

الصنف الثالث: من المتصوفة.

الصنف الرابع: من أرباب الأحوال.

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يت
الاتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس بإسم التقى وهم ف
أنصار غي وضلال[٤]. فتراه يتكلم في هذه الشؤون بحماسة عظيمة ليس
لمطالعاته في المؤلفات القديمة، وإنما هي أثر لغضبته من قوم عاش بين
من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء[٥].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٣٩٩.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص٢٤ ـ ٢٥.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ويبدو أن كرادوفو كان محقاً عندما قال «وفي الشرق لم يسبق الغ
فلسفة الاخلاق»[١]. مما يؤكد عظمة الدور الذي قام به الغزالي لعلاج
الاجتماعية التي عصفت بمجتمع عصره. فكان عالما ومصلحا اجتماع
لاعتماده على تحليل النفس كوسيلة لتشخيص الظواهر المرضية وإيجاد
الناجعة. وبهذا يكون الإمام السباق للإسهام في وضع أسس «علم
الاجتماعي» بلغة أهل هذا العصر.

ـ موقف الغزالي من علوم عصره:

إن استهلال الغزالي كتاب «الاحياء» بالحديث عن العلم والتعلم
وإيراد الشواهد النقلية والعقلية لإظهار فضيلة كل منها ورفعة مكانة أص
يعكس مدى اهتمامه بالعلم وإيمانه به كوسيلة لبناء شخصية الإنسان المسل
المجتمع الإسلامي الذي يضمن لأفراده البيئة الحافزة على الإخلاص في
وتحقيق سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى.

ففي الباب الأول من الجزء الأول من كتاب «الاحياء» يتحدث الغز
فضل العلم ومكانة العلماء ومن جملة ما يورد قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾[٢] ويعقب على ذلك قائلا
كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهي
شرفا وفضلا وجلاء ونبلا»[٣]. ومما يأتي على ذكره أيضا ليعزز وجهة نظ
الرسول صلى الله عليه وسلم «العلماء ورثة الانبياء»[٤]. «ومعلوم» كـ
الغزالي «إنه لا رتبة، فوق النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة»[٥].
كل الفخر لأهل العلم ودعاته كما يقول الإمام علي رضي الله عنه[٦].

---

(١) كرادوفو: الغزالي، ص١٤٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨.
(٣) الغزالي: الاحياء ج١، ص١٥.
(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ١٠.
(٥) الغزالي: المرجع السابق ص١٦.
(٦) المرجع السابق، ص١٨.

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى ا

وقدر كل امرء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم اع

ففز بعلم تعش حيا به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم اح

ومن ثم ينتقل الغزالي للحديث عن فضيلة كل من التعلم والتعليم إلى
ينهي هذا الباب وهو يقول:

«وأشرف موجود على الأرض جنس الإنس، وأشرف جنس من جو
الإنسان قلبه، والمعلم مشتغل بتكميله وتجليته وتطهيره وسياقته إلى القرب
الله عز وجل، فيعلم العلم من وجه: عبادة لله تعالى ومن وجه خلافة لله تع
وهو من أجل خلافة الله، فإن الله قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخ
صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون في الإنفاق منه على
محتاج إليه، فأي رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه
تقربهم إلى الله زلفى وسياقتهم إلى جنة المأوى. . .»[١].

والعلوم تختلف مثلما تختلف الأفراد «والخلق مع هذه العلوم وهي مع
إما كالغذاء لهم وإما كالدواء»[٢] إلا أن الدواء الذي ينفع أحدهم قد يضر بالآخ
ورب سائل يقول أليس الغزالي ممن يؤمنون بأن «العلم هو معرفة الشيء على
هو به وهو من صفات الله تعالى، فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه ع
مذموما»[٣]؟ ولن تطول حيرة السائل ولا انتظاره لسماع وجهة نظر الغزالي
ذلك حيث يقول «والعلوم إنما هي بالإضافة فلقد يوجد لله تعالى:

خلق تضر الحقائق بهم ... كما تضر رياح الورد بالج

وقد قال صلى الله عليه وسلم «حدثوا الناس بما يعرفون»[٤] وقال عيسى ع
السلام لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤.

(٢) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص١٥٤.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.

فمن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وتعليقا على هذه النقطة يوضح الغزالي رأيه فيقول «فاعلم أن العلم لا
لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة» سيتم الحديث عنها في الف
السابع الخاص بالمنهاج.

ولقد أشار الغزالي إلى الالتباس والتحريف، الذي لحق بعلوم الشريعة
عصره وكان له موقف من ذلك ومما يقوله: «إعلم أن منشأ التباس الع
المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغر
الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول، وهي خمسة الفا
الفقه، والعلم، والتوحيد، والتذكير، والحكمة فهذه أسام محمودة والمتصو
بها أرباب المناصب في الدين، ولكنها نقلت الآن إلى معان مذمومة، فصا
القلوب تنفر عن مذمة من يتصف بمعانيها لشيوع إطلاق هذه الأسامي عليها»[٢]

وانطلاقاً من هذا الفهم للعلوم المختلفة تمكن الغزالي من تحديد موقفه
علوم عصره كالفلسفة وعلم الكلام والتصوف والفقه والمناظرة وغيرها من الع
إيمانا منه بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعوذوا بالله من علم لا ينفع
ومعلوم كما يقول الغزالي «إن العلم لا يكون جهلا ولكنه يؤثر تأثير الجهل
الاضرار»[٤]

---

(١) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج ١، ص١٥٥.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤٤.
(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الدعاء حديث رقم ٣.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤٣.

الفصل الرابع

الغزالي ونظرته العقدية

- مقدمـــــة
- اللـــــه
- الكـــون
- الإنســـان
- المـجـتـمـع
- الحياة الآخرة

ـ مقدمة:

إن الفكر التربوي عند الإمام الغزالي حصيلة «تصور إسلامي شامل متكامل للكون والإنسان والمجتمع والمعرفة البشرية والقيم الإنسانية لأن عملية التربية وأنشطتها المختلفة لا يمكن أن تتم، ولا يمكن حتى تصورها بمعزل عن هذه النواحي. . . والفلسفة التربوية كفلسفة تطبيقية لا بد أن تحدد موقفها من المباحث الفلسفية الرئيسية، وهي: مبحث الوجود ومبحث القيم وأن تتضمن المباديء التي تصور موقفها من هذه المباحث»[1]. وبناء عليه فإن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يشكلان الأساس الذي انطلق منه الغزالي في التعبير عن فكره التربوي وذلك بسبب «الارتباط الواضح بينهما وبين حياة الإنسان وفلسفة هذه الحياة[2].

فالتربية عند الغزالي إذن تنبع من نظام كلي قدم التفسير الواضح لجوانب الحياة المختلفة وحدد نوع العلاقةِ التي يجب أن تربط بين الإنسان وخالقه ومخلوقاته. هذه العلاقة التي تقوم على الإيمان والعبودية من خلال اعتراف الخلق «لله بالملك والسلطان والأمر والنهي، ولأنفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة»[3].

والعقيدة الإسلامية التي اعتنقها الغزالي وأفنى حياته في الدفاع عنها تقوم

---

(١) عمر محمد التومي الشيباني: من أسس التربية الاسلامية، ص٣٧.

(٢) عبد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الاسلامية في الحديث الشريف، ص١١١.

(٣) ابو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٨٤.

على تكامل النظرة إلى كل من المادة والروح باعتبارهما مظهرين متكاملين للكون والحياة خاصة وأن «للقرآن الكريم منهجه الذي يتوجه إلى النفس بأكملها فهو يقدم إليها غذاءه كاملا يستمد منه العقل والقلب كلاهما نصيبا متساوياً»[1].

فالشخصية الإسلامية المتميزة التي سعى الغزالي لإيجادها لم تكن مثالية غير واقعية كما يحلو لبعضهم أن يقول، حيث أن التاريخ الإسلامي شهد ولادة مثل هذه الشخصية فترة جيل مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم وأجيال الصحابة العلماء من بعده. ويجب أن لا يخفى أنّ خاصية تميز هذه الشخصية «تعود في الأصل إلى تميز النظرية الإسلامية في التربية عما سواها من نظريات بدوافعها وأهدافها»[2].

وهذا هو التميز الذي سعى الغزالي لتحقيقه في بناء الشخصية الإسلامية من خلال فهمه للإسلام. فلا معنى في نظره «لأن يكون الإسلام دين الدولة في مجتمع من المجتمعات الإسلامية إلا إذا كانت جميع نظم هذا المجتمع ـ بما فيه ذلك نظامه التعليمي ونظامه التشريعي ونظامه الاقتصادي ـ منسجمة مع الإسلام وأحكامه... ولا يمكن لفكرة الحياد الديني أن يكون لها وجود شرعي في المجتمعات الإسلامية، لما فيها من إقصاء للإسلام عن واقع الحياة وعن معالجة مشاكلها ومن حصر له في حدود ضيقة كالعبادة بمفهومها الضيق ومادة الدين في المناهج الدراسية والأحوال الشخصية»[3].

وبناء عليه جاء موقف الغزالي واضحا من الخلفاء والسلاطين والعلماء والاتجاهات الفكرية المختلفة التي شهدها. كل ذلك على ضوء إيمانه بالعقيدة الإسلامية فكرا وممارسة لأنه أدرك أن الإيمان هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين شخصية المسلم، لأنه هو الجذر الأول في بناء شخصيته

---

(١) محمد عبدالله دراز: دستور الاخلاق في القرآن، ص١٤.

(٢) الزرنوجي: تعليم المتعلم طريق التعلم، القسم الدراسي، ص١١.

(٣) عمر محمد التومي الشيباني: من أسس التربية الإسلامية، ص٣٠٠.

وهو العنصر الأساسي المحرك لعواطفه والموجه لإرادته. ومعلوم أن «الإيمان الصادق الراسخ في القلب لا بد وأن يوجه السلوك ويحرك العواطف فيظهر له آثاراً عملية»[1] وذلك لأن «مثل الإيمان والإسلام كمثل الشجرة وجذرها»[2].

لذا كان لا بد من تحديد المبادىء والمعتقدات والفروض والمسلمات التي آمن بها الغزالي والتي تشكل الأساس الذي أقام عليه رسالته التربوية وعالج في ضوئه مشكلاته التعليمية التعلمية على أساس أن التربية عملية تطبيقية تحتاج لأن يحدد صاحبها موقفه من المباحث الرئيسة المحيطة به كمبحث الله والكون والإنسان والمجتمع واليوم الآخر.

ـ الله:

يرى الإمام الغزالي أن الإيمان بالله تعالى أساس كل ما عداه ولذا نجده مذكوراً في القرآن في آيات تزيد على (٧٦٣) آية كما حصرها في كتابه «جواهر القرآن» إذ لا تكاد تخلو سورة من السور من إسم الله.

ومعرفة ذات الله تشكل الركن الأول من أركان الإيمان وتستلزم هذه المعرفة معرفة وجوده تعالى وهو ما تقودنا إليه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[3]. ومن يتفكر في عجائب خلق الله، وبالترتيب والاحكام العجيبين لهذا الخلق يدرك أنه لا بد من وجود صانع «وتكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره»[4] ولذلك خاطب عباده قائلاً: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[5]. وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[6].

(١) عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني: العقيدة الاسلامية، ص٨٧.
(٢) المرجع السابق، ص٨٨.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٤) الغزالي: الاحياء ج١، ص١٢٦.
(٥) سورة ابراهيم، الآية: ١٠.
(٦) سورة الروم، الآية: ٣٠.

ويؤكد الغزالي على ضرورة «العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل»[1] وإنه «تعالى مع كونه أزليا أبديا ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه»[2].

والله جل وعلا «ليس بجوهر يتحيز»[3] كما وإنه «ليس بجسم مؤلف من جواهر»[4]. و«ليس بعرض قائم بجسم أو حال في محل»[5]. فهو «منزه الذات عن الاختصاص بالجهات»[6] وهو «مستو على العرش بالمعنى الذي أراده تعالى بالإستواء - بعيدا عن سمات الحدوث والفناء»[7]. حيث يقول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾[8].

وعلى الرغم من صفة التنزيه «عن الصورة والمقدار»[9] والتقديس «من الجهات والاقطار»[10] فإن الله تعالى «مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار»[11] لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾[12] في الوقت الذي تستحيل رؤيته في الدنيا تصديقاً لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[13].

والوحدانية - في نظر الغزالي وكافة المسلمين - أساس في معرفة ذات الله

(١) الغزالي الإحياء ج ١، ص١٢٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع السابق، ص١٢٨.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) سورة فصلت، الاية: ١٢.
(٩) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٢٨.
(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(١١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(١٢) سورة القيامة، الايتان: ٢٢، ٢٣.
(١٣) سورة الانعام، الآية: ١٠٣.

تعالى الذي «انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإيجاد والاختراع لا مثل له يساهمه ويساويه ولا ضد له فينازعه ويناديه»[1] لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾[2].

وفي الركن الثاني من أركان الإيمان الخاصة بمعرفة ذات الله تعالى يؤكد الغزالي على صفة القدرة عند الله. فهو الذي أحكم صنع العالم مما يعبّر عن صدق ما جاء به القرآن الكريم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3] هذا إلى جانب صفة العلم بجميع الموجودات والإحاطة بكل المخلوقات بحيث ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[4]. وهو ما يعززه قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾[5]. إضافة إلى أن في علمه وقدرته سبحانه تأكيد على كونه حياً «فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته»[6]. وكل ما هو موجود يستند بالضرورة لإرادة الله تعالى القدير السميع البصير الذي «لا يعزب عن رؤية هواجس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يشذ عن سمعه صوت دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء»[7].

ويتحدث الإمام الغزالي عن صفة الكلام الخاصة بالله تعالى «وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف»[8] علاوة على أنه لا شبه لكلام الله تعالى كلام ولا لوجوده وجود. والكلام القائم بذاته قديم وهكذا بالنسبة لجميع صفاته فهو يرى أن ما يجب للذات من نعوت القدم يجب للصفات لذلك جاء علم الله تعالى قديم «ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بأحداث الحوادث في أوقاتها اللائقة بها على وفق سبق العلم الأزلي»[9].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٢٩.
(٢) سورة الانبياء، الآية: ٢٢.
(٣) سورة الملك، الآية: ١.
(٤) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٥) سورة الملك، الآية: ١٤.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٢٩.
(٧) المرجع السابق، ص١٣٠.
(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٩) الغزالي: المرجع السابق، ص١٣١.

وحصيلة القول في صفات الله تعالى إنه «عالم بعلم، حي بحياة، قادر بقدرة، ومريد بإرادة، ومتكلم بكلام، وسميع بسمع، وبصير ببصر، وله هذه الاوصاف من هذه الصفات القديمة..»[1] أضافة إلى أن هذه الصفات حسب الغزالي كلها قائمة بذات الله تعالى[2].

ـ الكون:

يرى الإمام الغزالي أن العلم بأفعال الله تعالى يعتبر الركن الثالث من الأركان التي يبنى عليها الإيمان[3]. ومعلوم أن الكون من فعل الله وصنعه بحيث أنه يشمل كل خلق لله يقع عليه إسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف. وهذا يعني «أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلقه، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته»[4]. وليس بالإمكان إحصاء ذلك، ولا يمكن الإحاطة بجميع مخلوقات الله حيث أنها تقسم إلى فئتين الأولى: «ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكم من الموجودات التي لا نعلمها»[5] ويوضح هذا قوله تعالى) ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[6] والثانية: «ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها»[7] حيث يكون بمقدور الإنسان أن يتفكر في تفصيلها. وتنقسم هذه الفئة إلى ما يمكن إدراكه بحس البصر وما لا يمكن إدراكه بالبصر[8] وما يجب أن لا يغفل عن بال أحد أن مخلوقات الله لا تتحرك إلا بأمره «فلا تتحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع السابق، ج٤، ص٤٦١.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) سورة الواقعة، الآية: ٦١.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٤٦١.
(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.

حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانية، ودال على جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالة عليه»[١] وبحثنا تعالى للتفكر بهذه الآيات فيقول: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[٢].

والوجود حسب القرآن الكريم يقسم إلى نوعين: ما يمكن إدراكه بالعقل عن طريق الحواس وهو «عالم الشهادة» وما لا يمكن إدراكه ببصر أو حواس وهو «عالم الغيب» كالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك[٣]. «وطريق معرفته الكشف الروحي والوحي أكمل أشكاله وأروعها ومن الخطأ أن تطبق مقاييس عالم الشهادة على عالم الغيب، لذلك كان الطريق إلى معرفة مخلوقات عالم الغيب كالملائكة والجن والشياطين هو الوحي الإلهي الملقى إلى الأنبياء»[٤] فإدراك الغيبيات أو معرفة معاني أسماء الله الحسنى لا تتأتى إلا «على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى تتضح لهم حقائقها بالبرهان الذي لا يجوز فيه الخطأ، وينكشف لهم اتصاف الله عز وجل بها انكشافاً يجري في الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للإنسان بصفاته الباطنة التي يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر»[٥].

ومعرفة الكون ومخلوقات الله دليل لمعرفة الباري عز وجل ويبدأ بمعرفة النفس حسب ما يشير إليه الغزالي قائلاً: «فيا من هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[٦] وبعد معرفة النفس لا بد من

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٤٦١.

(٤) احمد محمد جمال: محاضرات في الثقافة الاسلامية، ص٧١.

(٥) الغزالي: المقصد الاسنى، ص٤٣.

(٦) سورة الذاريات، الآية: ٢١.

التوجه للأرض لتكون الخطوة الثانية باتجاه معرفة الخالق. أي في حال تعرفك على «طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها»[1] ومن ثم يوصي الإمام الغزالي بالإرتفاع إلى ملكوت السموات. ولقد كثر في القرآن الكريم ذكر الأرض للتفكر في عجائبها «فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات»[2] حيث قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾[3] وعلى الرغم من أن الأرض ميتة «فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات»[4].

ولا يغفل الإمام الغزالي عن السموات وعظم أمرها عندالله تعالى «فما من سورة إلا وتشمل على تفخيمها في مواضع، وكم من قسم في القرآن بها»[5] ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾[6] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾﴾[7] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾[8].

والنظر إلى الملكوت حسب الغزالي لا يعني رؤية زرقة السماء وضوء الكواكب وغير ذلك من عجائب خلق الله. فالبهائم تشارك الإنسان في هذا النظر. ويشير الغزالي إلى أن «كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ولا يحيط أحد بعلمه إلا بما شاء»[9] ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ

---

(١) الغزالي: الاحياء ج٤، ص٤٦٦.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٤٦٦.
(٥) المرجع السابق، ص٤٧١.
(٦) سورة البروج، الآية: ١.
(٧) سورة الطارق، الآية: ١.
(٨) سورة الذاريات، الآية: ٧.
(٩) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٤٧١.

أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(١).

ومعرفة عقل الإنسان لبيت الله كمعرفة النملة لبيت الإنسان وهو ما عبر عنه الغزالي في قوله «فأنت أيضا غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان السموات إلا ما تعرف النملة منك ومن سكان بيتك»(٢). وإن كانت النملة عاجزة عن معرفة ذلك إلا أن الإنسان يملك القدرة على هذه المعرفة التي تبقى حقيرة بالنسبة لما عرفه الأنبياء كلهم قليلة بالإضافة إلى ما عرفته الملائكة المقربون كإسرافيل وجبرائيل وغيرهما ثم أن جميع علوم الملائكة والجن والإنسان إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى دهشاً وحيرة قصورا وعجزا أقرب»(٣). فسبحان الذي خاطب خلقه قائلا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٤).

ـ الإنسان:

قال تعالى في خلق الإنسان: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾(٥) وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾(٦) وفي القول الثاني لله تعالى إشارة للفصل بين الإنسان والبهيمة التي اقتصر خلقها على الجسد والروح بينما تميز الإنسان بنفخة الرحمن التي عبر عنها الغزالي بالنفس فقال: «والفصل بين الآدمي والبهيمة هي النفس التي أضافها الله تعالى اليه»(٧) لقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾(٨) فهي بالتالي علة التكليف «ولو أن البهيمة أعطيت النفس التي أعطيها الإنسان لكانت عاقلة مكلفة فخرج من الجملة أن للإنسان روحاً ونفساً وجسماً

---

(١) سورة الجن، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٤٧٣.
(٣) المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٤) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.
(٥) سورة المؤمنين، الآية: ١٢.
(٦) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٧) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٨٩.
(٨) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

وللبهيمة جسماً وروحاً لا غير»[1] ففاق الإنسان بذلك خلقاً كثيراً بسبب استعداده لمعرفة الله سبحانه[2]. وبذلك استحق التكريم والتشريف الذي قال فيه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾[3].

ويقرر الغزالي في معرض حديثه عن الإنسان أنه «حيوان ناطق مائت منتصب القامة ضحاك»[4] ويدخل الجسم تبعاً لرأيه «تحت الكون والفساد المركب المؤلف الترابي الذي لا يتم أمره إلا بغيره»[5]. ويتوصل الغزالي لتعريف الجسم فيقول عنه «المؤتلف من المواد والعناصر الحاملة لروحه ونفسه وهو الشكل المنتصب ذو الوجه واليدين والرجلين الضاحك»[6].

واستناداً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[7] أي جهلها حيث لم يعرف ربها. يقرر الغزالي بأن من عرف نفسه فقد عرف ربه. فمعرفة النفس في نظره خطوة على طريق معرفة الله تعالى إذ «ليس من شيء أقرب إليك من نفسك فإذا لم تعرف نفسك فكيف تعرف ربك؟[8] ومعرفة النفس هذه لا تعني مطلقاً الإلمام بمعرفة «الجسم الظاهر» وإنماهي المعرفة التي توجبك «أن تعرف نفسك بالحقيقة حتى تدري أي شيء أنت ومن أين جئت... ولأي شيء خلقت، وبأي شيء سعادتك، وبأي شيء شقاؤك»[9]. فلتعرف نفسك عليك أن تعلم «أنك من شيئين: الأول هذا القلب والثاني يسمى النفس

---

(١) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٨٩.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٣.
(٣) سورة الاسراء، الآية: ٧٠.
(٤) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٨٨.
(٥) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٣، ص٩١.
(٦) الغزالي: معراج السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٨٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٣٠.
(٨) الغزالي: كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٥، ص١٢٤.
(٩) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والروح»[1]. فحقيقة الإنسان باطنه وهي الجزء العلوي منه الذي يرمز إليه الغزالي بألفاظ متعددة لا بد أن نعرض لمفهومها عنده لأنه يستعملها أحيانا بمعان تكاد تكون مترادفة وأحيانا أخرى تكون متمايزة، مما يتسبب في إرباك وحيرة لجهة إدراك مراميها أو تدبر معانيها خاصة وأن الغزالي نفسه يشير إلى صعوبة ذلك حتى على العلماء حيث يقول «ويقل في فحول العلماء من يحيط بهذه الأسامي ـ النفس والروح والقلب والعقل ـ واختلاف معانيها وحدودها ومسمياتها»[2].

ولا بد من الإشارة إلى استعمال هذه الالفاظ في القرآن الكريم قبل الحديث عن معانيها عند الغزالي. فلقد ورد استعمالها في مواقع عديدة بحيث استعملت لفظة الروح في ٢١ موقعاً، والنفس في ٣٦٥ موقعاً والقلب في ١٣٢ موقعاً والفؤاد الذي جاءت استعمالاته كاستعمالات القلب ـ إشارة إلى القلب الذي في الصدر ـ في ١٦ موقعاً. ومن أبرز المواقع التي برزت فيها هذه الالفاظ:

١ ـ الروح:

أ ـ ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[3].

ب ـ ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[4].

ج ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[5].

د ـ ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾[6] ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[7].

٢ ـ النفس:

أ ـ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[8].

ب ـ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[9].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧١.
(٥) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.
(٦) سورة مريم، الآية: ١٧.
(٧) سورة الانبياء، الآية: ٩١.
(٨) سورة يوسف، الآية: ٥١.
(٩) سورة القيامة، الآية: ٢.

ج ـ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾[1].

٣ ـ القلب:

أ ـ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2].

ب ـ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3].

ج ـ ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[4].

ولقد جاءت استعمالات الفؤاد في مواقع مشابهة لاستعمالات القلب:

ـ ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[5].

ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾[6].

٤ ـ العقل:

واستعمال العقل في القرآن الكريم لم يأت بصيغة الإسم المفرد وإنما ورد بصيغة الفعل الذي يدل على الفهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾[7].

ومن خلال هذه الاستعمالات للالفاظ الأربعة اجتهد الإمام الغزالي في توضيح دلالاتها وتبيان حدودها وتحديد نوع العلاقة التي تربطها بالخالق والمخلوق، وفيما يلي محاولة لبلورة رأي الإمام الغزالي في هذه الالفاظ:

١ ـ النفس:

يطلق الإمام الغزالي لفظ النفس على معنيين:

---

(١) سورة الفجر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٤.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٧.
(٥) سورة الحج، الآية: ٤٦.
(٦) سورة الملك، الآية: ٢٣.
(٧) سورة الملك، الآية: ١٠.

أحدهما المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة في الإنسان وهو استعمال المتصوفة إذ «يسمون الروح الحيواني نفسا»(١) «لأنهم يريدون بالنفس الأصل الجامع للصفات المذمومة من الإنسان فيقولون: لا بد من مجاهدة النفس وكسرها»(٢) استناداً لقول الرسول عليه السلام «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك»(٣).

والثاني: هي اللطيفة الربانية التي هي الإنسان بالحقيقة وهي نفس الإنسان وذاته وتوصف بأوصاف حسب اختلاف أحوالها. فإذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة. وإذا لم يتم سكونها إلا أنها أصبحت مدافعة ومعترضة عن النفس الشهوانية سميت النفس اللوامة. أما إذا تخلت عن الإعتراض وانساقت وراء الشهوات ووساوس الشيطان سميت النفس الأمارة بالسوء(٤).

وقال تعالى في وصف أحوال النفس المختلفة:

أ ـ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾(٥).

ب ـ ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾(٦).

ج ـ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾(٧).

٢ ـ القلب:

ويطلق الغزالي لفظ القلب على معنيين:

أحدهما: «اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من

---

(١) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٣، ص٩٢.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٥.
(٣) اخرجه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس، المغني بذيل الاحياء ج٣، ص٥.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٥.
(٥) سورة الفجر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٦) سورة القيامة، الآية: ٢.
(٧) سورة يوسف، الآية ٥٣.

الصدر»[١] حيث يحتوي على «دم أسود هو منبع الروح ومعدنه»[٢] ويشترك الإنسان الحي والميت والبهائم في هذا القلب الذي ينتمي لعالم الملك والشهادة[٣].

والثاني: «هو لطيفة ربانية روحانية لها بذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب»[٤] وتعلقه بالقلب الجسماني «يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان»[٥].

٣ ـ الروح:

ويطلق الغزالي هذا اللفظ على معنيين:

أحدهما: «جسم لطيف منبعه تجويف القلب الجسماني فينشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن، وجريانه في البدن وفيضان أنوار الحياة والحس والبصر والسمع والشم منها على أعضائها يضاهي فيضان النور من السراج الذي يدار في زوايا البيت»[٦] ويشير الإمام الغزالي كيف أن «هذا الروح لا يهتدي إلى العلم ولا يعرف طريق المصنوع ولا حق الصانع، وإنما هو خادم أسير يموت بموت البدن. . . وليس خطاب الباري سبحانه، ولا تكليف الشارع لهذا الروح»[٧]. إضافة إلى أن هذا الروح موجود عند جميع الحيوانات.

والثاني «هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. . . وهو الذي أراده الله

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٤.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٣، ص٩٢، ٩٣.

بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] والإنسان إنما يكلف ويخاطب لأجل هذا المعنى»[2].

٤ ـ العقل:

يشترك العقل في معان مختلفة يمكن حصرها في معنيين:

أحدهما: «أنه قد يطلق ويراد به العلم بحقائق الأمور فيكون عبارة عن صفة العلم الذي محله القلب»[3].

والثاني: «أنه قد يطلق ويراد به المدرك للعلوم فيكون هو القلب»[4] أي «تلك اللطيفة الربانية»[5].

ويتضح لنا مما سبق أن الغزالي يستعمل هذه الالفاظ على وجهين يتعلق أحدهمابعالم الخلق والآخر بعالم الأمر وطبيعي أن يكون الأول أقل شرفا من الثاني وهو ما يصرح به الغزالي عندما يقول بأن «معاني هذه الأسماء موجودة: وهي القلب الجسماني والروح الجسماني والنفس الشهوانية والعلوم، فهذه أربعة معان يطلق عليها الالفاظ الأربعة، ومعنى خامس: وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان والالفاظ الأربعة بجملتها تتوارد عليها فالمعاني خمسة والالفاظ أربعة وكل لفظ أطلق لمعنيين»[6].

ويشير الغزالي إلى استعمالات هذه الالفاظ بالنسبة له قائلا «فالقلب والروح عندنا والمطمئنة كلها أسامي النفس الناطقة والنفس الناطقة هي الجوهر الحي الفعال المدرك وحيثما نقول الروح المطلق أو القلب فإنما نعني به هذا الجوهر»[7]

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٥.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع السابق، ص٦.
(٧) الغزالي: الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٣، ص٩٢.

وهو ما يؤكده في «معارج القدس» عندما يشير إلى أن المراد بألفاظ «النفس والروح والقلب والعقل» هو «النفس الإنسانية التي هي محل المعقولات»[1].

وبالنسبة لطبيعة الإنسان: فمن المعلوم أنه مجبول بطبيعته على التوحيد ولقد «بعث الله الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا (لا إله إلا الله) وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللعالم إله فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم»[2] ولقد خلق الله الناس مفطورين على الإعتراف له بالربوبية وحده وأودع هذا فطرتهم. فهي تنشأ عليه. وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[3]. وفي هذا إشارة لتشريف وتكريم الله للإنسان مما جعله أهلا لحمل الأمانة ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[4].

«فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره»[5].

فالإنسان إذن وحسب ما جاء في القرآن الكريم «مجبول على التوحيد فطبيعته الأصلية خيّرة ثم إنه قد ينحدر إلى الشر وذلك نظراً لقابليته للإختيار وليس معنى هذا إنه خير مطلق أو شر مطلق بل إن لديه من الإمكانيات ما يفعل به الخير والشر»[6]. ولقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[7]. ومعنى ذلك «إنا خلقنا القلب وأعطيناه الملك والعسكر وجعلنا النفس مركبه حتى

---

(١) الغزالي: معارج القدس، ص١٦.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٦.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الاحزاب، الآية: ٦٢.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٣.
(٦) علي خليل ابو العنين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص١٠٤.
(٧) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

يسافر عليه من عالم التراب إلى أعلى عليين»[1].

ولئن انفرد تعالى في خلق الخلق واختراع حركات العباد، فإن هذا لا يتناقض مع كون هذه الحركات «مقدورة للعباد على سبيل الإكتساب»[2]. ويرى الغزالي «أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه. فلا يجري في الملك والملكوت طرفة عين ولا لفتة خاطر ولا لفتة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وبإرادته ومشيئته»[3] سبحانه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾[4].

فالغزالي في كل ما يورده عن الإنسان يؤكد على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية لجهة كون الإنسان وحدة متكاملة وليس أجزاء منفصلة، فهو «ليس بالكيان المادي من فيزياء وكيمياء وسلوك آلي ميكانيكي كما ينظر إليه الفلاسفة الماديون، كما أنه ليس بالروح التي تتجرد عن المادة وتزدري بها كما يفعل بعض المتقشفين، فالإنسان مكون من مادة وروح معا»[5]. «وهذه الطبيعة المزدوجة ليست أمرا طارئاً على الإنسان ولا ثانوياً فيه بل هي فطرته التي فطره الله عليها وأهّله للخلافة في الأرض منذ خلق آدم خلقاً جمع بين قبضة الطين ونفخة الروح»[6].

فليس غريبا إذاً أن يحتل الإنسان منزلة عظيمة في الإسلام وذلك «لأن الله سبحانه خالقه وخالق الكون ومدبر الأمر كله أراد له ذلك يوم خلقه»[7] ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[8].

(١) الغزالي: كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الامام الغزالي ج٥، ص١٣٠.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٣٢.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) سورة الانبياء، الآية: ٢٣.
(٥) محمد فاضل الجمالي: تربية الانسان الجديد، ص١٠٠.
(٦) يوسف قرضاوي: الايمان والحياة، ص٧٦.
(٧) عبد الغني عبود: الاسلام والكون، ص٨٩.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

ـ المجتمع:

إنسجاماً مع ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية حيث الإعتقاد بوحدانية الله هو أساس العقيدة، لا بد أن يقوم المجتمع الإسلامي على رهط الحق «الذين هذاهم الله إلى المنهج الرشيد والملك السديد وأنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد فسلك بهم إلى إتباع رسولهم المصطفى واقتفاء آثار صحبهم الأكرمين المكرمين بالتأييد والتسديد»[1].

فالركيزة الأساسية للمجتمع الإسلامي ـ كما يرى الغزالي ـ هي الإيمان بالله ايماناً لا يتزعزع ولا يهتز. وسلوك المسلم تعبير عن هذا الإيمان، فكسله وراحته وعيشه على كدح الآخرين مناقض لإيمانه بالله تعالى الذي قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾[2]. فالعمل ضرورة من ضرورات المجتمع الإسلامي «فمن استعمل قواه على وجه التوصل بها إلى العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة»[3]. وإتقان العمل يدفع صاحبه درجات، لأن في ذلك إستجابة لقول الله تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[4]. فالتفاضل إذن مرده للعمل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[5].

والإيمان بالله ـ الذي يعتبره الغزالي الأساس لبناء المجتمع الإسلامي ـ دعوة للمؤمن ليتحسس مشاعر أخيه وليعمل على شد أزره في النوائب لأن الأنانية والإبتعاد عن مشاكل المسلمين دليل نقص في الإيمان لأن للمسلم حقوق كما يشير الغزالي لذلك، ومنها «أن تسلّم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبر قسمه إذا أقسم عليك،

---

(١) الغزالي: الإحياء ج ١، ص١٠٨.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.
(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص٢٣.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
(٥) سورة الانعام، الآية: ١٣٢.

وتنصح له إذا انتصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك»[1]. وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلّم قوله «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»[2]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[3].

والفرد في المجتمع الإسلامي مدعو لتحمل المسؤولية وتبعاتها وفي طليعتها إلتزام أوامر ربه ونواهيه فيما يوكل اليه من عمل إذ «ليس التشمر في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه»[4]. فالمسلم في إطار مجتمعه يتحمل قسطاً من المسؤولية بمقدار ما يوكل إليه من واجبات، ويتجلى هذا في قول الرسول الكريم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ـ»[5].

ومجالات الحياة في المجتمع الإسلامي متاحة لجميع أبنائه على السواء خاصة وأن الله تعالى قد ساوى بين الناس في الحقوق والواجبات وسخر ما في الكون لمنفعة الجميع فقال وهو أصدق القائلين ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾[6]. ولا يعني هذا مطلقاً أن توزع هذه النعم جزافا بحيث يتساوى في ذلك العامل والخامل لأن القاعدة في الإسلام أن ينال كل واحد ثمرة كدّه وجدّه بحيث يكون التمايز قائماً على البذل والسعي لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٢١٠.
(٢) اخرجه الحاكم من حديث حذيفة، والطبراني في الاوسط من حديث ابي ذر وكلاهما ضعيف.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧١.
(٤) الغزالي: الإحياء، ج٢، ص٦٩.
(٥) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ١١، وكتاب الجنائز حديث رقم ٣٢.
(٦) سورة ابراهيم، الآيات: ٣٢، ٣٣، ٣٤.

لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾[١].

ومبدأ تكافؤ الفرص من أهم المباديء التي بني عليها المجتمع الإسلامي وهو ما طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم على نفسه وعلى أسرته عندما وقف وناداهم قائلا «يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا يا بني عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً يا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً»[٢].

ويقوم المجتمع الإسلامي على الوحدة والمحبة والإيثار والتعاون خاصة وأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾[٣] والرسول الكريم يؤكد على ذلك فيقول «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٤]. وفي هذا الخطاب دعوة للوحدة ونبذ لتفرقة الصف وتمزيق الشمل علاوة على أن ظلم المسلم لأخيه المسلم وخذلانه وتحقيره له مرفوض. وهو ما عبر عنه الرسول الكريم عندما قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقّره، التقوى ها هنا مشيراً إلى صدره بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٥].

والمجتمع الإسلامي يكفل للمسلمين وغير المسلمين أن يعيشوا آمنين فلا تقتحم بيوتهم ولا يتعدى عليهم لما للبيوت من حرمة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) رواه البخاري في كتاب الوصايا حديث رقم ١١.

(٣) سورة الصف، الآية: ٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصلاة، حديث رقم ٨٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب المظالم حديث رقم ٣.

لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن إنسان المجتمع الإسلامي يستحق كرامته لإنسانيته وليس للونه أو طبقته أو ثروته فحقوق الإنسان في هذا المجتمع مستمدة من هذه الإنسانية التي ترجع لأبوية آدم وحواء كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا﴾[2].

والشورى الإسلامية تقوم على المساواة والمسئولية الفردية، وقيام الحكم على العدالة استناداً لدستور معلوم من الحدود والتبعات. وهذه هي العناصر التي نادى بها الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسان. وتعتبر المساواة والمسؤولية الفردية والشورى من أهم الأسس التي قام عليها المجتمع الإسلامي إمتثالا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3].

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[4].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[5].

وذلك لأن الإيمان بالله تعالى إيمان بحق العدل والمساواة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[6].

وللأسرة في المجتمع الإسلامي مكانة رفيعة لكونها نواة المجتمع المسلم. ومعلوم أن الزواج يشكل نقطة البدء لتكوين الأسرة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

---

(١) سورة النور، الايتان: ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٤) سورة الطور، الآية: ٢١.
(٥) سورة الشورى، الآية:٣٨.
(٦) سورة الكهف، الآية:٤٩.

أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

وحدد القرآن الكريم الأسس التي تقوم عليها العلاقات الأسرية من أجل توفير السلامة لهذا المجتمع الصغير الذي يجب عليه توفير المناخ الصالح لتربية الطفل ضمن جو علائقي يقوم على أساس من التشاور والتراضي والمعروف في المعاشرة والتعاون. ولا تقتصر على العلاقات بين الزوجين فقط بل تمتد إلى الأقارب ولذا نص القرآن على الإحسان للوالدين ولذي القربى ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[2].

وبما أن الأسرة كيان يستمر حتى بعد وفاة أفراده فلقد شرع الإسلام نظام الميراث حفاظاً على المصلحة الاجتماعية فكان من حق الأبناء أن يرثوا ما تركه أباؤهم ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾[3].

ولقد شكلت هذه الآداب والقيم منطلق دعوة الغزالي لبناء المجتمع الإسلامي فكان ميزانه «ميزان الآداب السماوية وميزان المثالية الخلقية»[4] من خلال نظرته إلى الحياة نظرة مميزة تميز الإسلام عن غيره من الأديان ولذلك «لم يتخيّل الدنيا ملحمة بين كباش تتناطح وإنما تصورها حنانا ورحمة وطاعة وعبادة فالمجد عنده مجد النفوس المطمئنة المتحابة والنصر لديه هو الفوز على النزوات والشهوات والتطهر من الرذائل الهابطة إلى الظلمات»[5].

كل ذلك لأنه آمن بالإسلام قلباً وقالباً ونظر إلى«الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية وعبادة الله لا للدرهم والدينار، والتغالب والتفاخر والتنابذ بالألقاب». فكانت دعوته الأخلاقية تهدف لإقامة مجتمع إسلامي فاضل آمن به «ومن ثم ابتدع له أخلاقاً كاملة على أسس دينية وطاعات روحية وقلبية»[6].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة النساء، الآية:٣٦.
(٣) سورة النساء، الآية:١٧٦.
(٤) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٨٧.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ـ الحياة الآخرة:

إن «الإيمان باليوم الآخر الركن الثاني من أركان العقائد، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر. والمؤمن يذكره دائماً فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ويبتعد عن الشر خوف عذابه»(١).

والدنيا كما يقول الغزالي «عدوة لله، وعدوة لأولياء الله، وعدوة لأعداء الله، أما عداوتها لله فإنها قطعت الطريق على عباد الله... وأما عداوتها لأولياء الله (عز وجل): فإنها تزينت لهم بزينتها وعمتهم بزهوتها ونضارتها، حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله فإنها إستدرجتهم بمكرها وكيدها فاقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها. فاجتنوا منها حسرة تتقطع دونها الأكباد ثم حرمتهم السعادة أبد الآباد. فهم على فراقها يتحسرون ومن مكائدها يستغيثون ولا يغاثون»(٢). ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٨٦﴾(٣).

هذا يعني أن حياة الإنسان لا تنتهي عند وفاته لأن الموت في نظر الإسلام انتقال إلى حياة أخرى فحال الروح بعد الموت يدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح»(٤). ودليل ذلك قوله تعالى في الشهداء ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾(٥). وكذلك مخاطبة الرسول الكريم لقتلى قريش يوم بدر «يا فلان، يا فلان،... قد وجدت ما وعدني ربي حقا. فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا» فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات؟ فقال صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام إلا أنهم لا يقدرون على الجواب»(٦). كما وأنه لا يخلو الميت عن سعادة

---

(١) علي الطنطاوي: تعريف عام بدين الاسلام، ص١٠٤.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٢١٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٦.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٥٢٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.
(٦) رواه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ٧٨.

أو شقاوة يقول صلى الله عليه وسلم «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة»[1]. ويعلق الغزالي على ذلك مشيراً إلى أن هذا نص صريح على أن الموت هو تغير حال فقط[2].

وفي مقارنة بين الدنيا والآخرة يشير الغزالي إلى أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كسعة الدنيا إلى ظلمة الرحم[3] معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه»[4]. «وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن إمه»[5].

فبداية حياة الآخرة إذاً تكون لحظة خروج الروح من الجسد وهذا ما يؤمن به المسلم إيماناً قاطعاً لأنه وعد الرحمن الذي قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾[6].

ويتحدث الغزالي عن مراحل هذه الحياة مستنداً إلى ما جاء في الكتاب والسنة حيث يبدأ ببيان كلام القبر للميت ثم بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، ومن ثم صورتهما وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر. وفي الباب الثاني من كتاب ذكر الموت وما بعده يتحدث عن أحوال الموتى بالمكاشفة بالمنام. ويتناول في الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الإستقرار في الجنة أو في النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار وفيه يبين الإمام الغزالي «نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله،

---

(١) رواه الترمذي في باب القيامة حديث رقم ٢٦.

(٢) الغزالي: الاحياء ج٤، ص٥٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص٥٢٨.

(٤) اخرجه ابن ابي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلفي عن سليم بن عامر الجنائزي مرسلا هكذا (المغني، ذيل الاحياء ج٤، ص٥٢٨).

(٥) الغزالي: الاحياء ج٤، ص٥٢٨.

(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها وصفة المساءلة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الخصماء ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الحوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالها وحيّاتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وسررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى»[1].

«وبهذا تكتمل العدالة الإلهية في الأرض وفي السماء حيث ينال كل واحد جزاء عمله كاملا. ولذا كان اليوم الآخر في القرآن واضح المعالم»[2] لأن الساعة من تدبير الله عز وجل ولا يعرف موعدها أحد سواه ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾[3].

وبذلك تكتمل ملامح النظرة العقدية عند الإمام الغزالي والتي حدد على ضوئها منهجه وأهدافه التربوية حيث سعى لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة اقتداء بالرسول الكريم الذي تمكن من تحقيق ذلك واستطاع أن يخرج «عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم»[4].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٤، ص٥٤٣.
(٢) علي خليل ابو العنين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص١٣٣.
(٣) سورة الاعراف، الآية: ١٨٧.
(٤) ابو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٦٨.

الفصل الخامس

التربية في نظر الإمام الغزالي

- مقدمـــــــة
- التربية رسالة
- مفهومهـــــا
- أهميتهـــــا
- أهدافهـــــا

ـ مقدمة:

التربية ضرورة فردية واجتماعية على حد سواء، حيث إنه ليس بإمكان أي من الفرد أو المجتمع الإستغناء عنها. وكلما سلك الإنسان درباً من دروب الحياة كلما أحس بأهمية الحاجة إليها.

ولقد كانت التربية قبل مجيء الإسلام امتيازاً للطبقات ذات الجاه أو المال أو السلطة. ومع ظهور فجر الإسلام أصبحت حقاً لجميع الناس أغنيائهم وفقرائهم، أسيادهم وعبيدهم، فتيانهم وفتياتهم، شيوخهم وأطفالهم. نسائهم ورجالهم. وبذلك نعم أفراد المجتمع الإسلامي، بالتربية لكونها رسالة قبل أن تكون مهنة أو وظيفة.

ولم يكن غريباً أن ترافق التربية الدعوة الإسلامية منذ لحظاتها الأولى وأن يكون الرسول ـ وهو خريج المدرسة الآلهية التي سبق وأعدت غيره من الأنبياء ـ أول معلم في الإسلام «وكان بدء نزول الوحي عليه بمثابة (إجازة) له بعد أربعين عاماً من تربيته في هذه المدرسة الآلهية. وما أن أمر ـ بعد نزول الوحي ـ بتبليغ الرسالة وتحمل تبعاتها حتى اتخذ للإسلام أول مدرسة وهي (دار الإرقم بن ابي الأرقم) التي كان يجتمع فيها مع القلة القليلة التي آمنت به أول الرسالة، يتلو عليهم آيات القرآن ويعدهم إيديولوجياً لتحمل ما ينتظرهم من أعباء»[1].

والإسلام لم يتردد في إعلان موقفه من العلم والعلماء والتعليم والتعلم فقد

---

(١) عبد الغني عبود: الايديولوجيا والتربية، ص٤٢١.

أشار الإمام الغزالي إلى ذلك في الباب الأول من كتاب العلم[١]. مما يؤكد على أن الدين الإسلامي دين نور وعلم لا دين ظلمة وجهل. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾[٢]. فللعلماء منزلة عظيمة في الإسلام تلي منزلة الأنبياء. يقول الرسول عليه السلام «العلماء ورثة الأنبياء[٣] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة»[٤].

«ولقد أبرز القرآن الكريم قيمة العلم ومكانته في كثير من الآيات وذكرت مشتقات العلم في نحو ثمانماية وخمسين موضعاً تكريماً له وتعظيما. ومن الآيات سبعمائة وخمسين آية في الكونيات تتضمن أصولا وحقائق ذات صلة وثيقة بعلوم الفلك والنبات وطبقات الأرض والزراعة والهندسة والتعدين والصناعة والتاريخ والجغرافية المناخية»[٥]. يقول تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[٦].

ويبدو من خلال الآيات القرآنية الكثيرة مقدار حض الإسلام على العلم وأمره بالتعلم. ولقد أعلى الإسلام من شأن العلماء ومجّد العقل والمعرفة، وعاب على الجهل وأهله فقرنه بالعمى وشبهه بالضلالة والظلمات. إضافة إلى أن القرآن الكريم اعتبر التعليم من وظائف الرسول وعمله إذ يقول ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[٧].

«وإذا كان الإسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكافة مظاهرها، فقد كان الإلمام به ودراسته أمراً لا بد منه لأفراد الجماعة الإسلامية، والتعليم أول

---

(١) الغزالي: الإحياء ج١، ص١٥ ـ ٢٤.
(٢) سورة المجادلة، الآية ١١.
(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ١٠.
(٤) الغزالي: الإحياء ج ١، ص١٦.
(٥) امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن الكريم وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص١١٤.
(٦) سورة الانعام، الآية: ٣٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٢٨.

الوسائل لنشر الفكرة الإسلامية بين المؤمنين بها وشرحها لهم. ومن ثم كان التعليم أمراً لازماً للدعوة الإسلامية لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف إليها بحيث تتلاءم وحياة الأفراد»[1] مع الفكرة الإسلامية وقيم المجتمع الإسلامي الجديد.

ـ التربية رسالة:

ويرى الغزالي أن المراد بقوله تعالى ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[2] هو التعليم والإرشاد. أما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[3] ففيه إيجاب للتعليم. وبالنسبة لقوله تعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[4] فهو تحريم للكتمان[5].

ولقد «كان النبي صلى الله عليه وسلم أول من جمع العرب حوله في حلقة لأخذ العلم. فلم تكن العرب في الجاهلية تعرف الاجتماع لهذا الغرض»[6] ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[7].

فاقتداء بصاحب الشرع اعتبر الغزالي التربية والتعليم رسالة إذ على المربي أن «لا يطلب على إفادة العلم أجراً ولا يقصد به جزاء ولا شكراً، بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منّة عليهم وإن كانت المنّة لازمة عليهم»[8].

وفي نظر الغزالي إن ثواب المعلم أعظم من ثواب المتعلم عند الله تعالى

---

(١) محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، ص٢٥.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٠.
(٦) محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الاسلامية الكبرى، ص٢٥.
(٧) سورة فصلت، الآية ٣٣.
(٨) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٠.

على الرغم من أنه يقرّ بأن المعلم ما كان لينال هذا الثواب لولا المتعلم الذي «يعيرك الأرض لتزرع فيه لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده منّة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى»(١) امتثالا لقوله تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(٢).

ولقد حذر علماء المسلمين من طلب العلم لأغراض دنيوية واعتبروا «أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم والزلفى لديه في جنات النعيم، لا من طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مكاثرة في الأتباع والطلاب»(٣).

ويميّز الغزالي بين نوعين من العلوم من خلال تعليقه على مقولة «تعلم العلم لغير الله حرام» بشكل يحدد فيه الدلالة على لفظة «العلم» ويقيدها «بالعلوم الدينية» حيث يقول «فإن قلت تعلم العلم لغير الله حرام، أي علم كان أم مخصوص ببعض العلوم (فأقول) هو مخصوص بالعلوم الدينية التي هي من جملة العبادات فأما ما ليس من العلوم الدينية كالطب والحساب فلا يحرم أن يقصد بتعليمه الجاه وكسب المال وأما ما هو من العلوم الدينية كالتفسير والأخبار وعلم الفقه والأصول والكلام فلا يجوز تعلمها لغير الله»(٤). والغزالي بذلك إنما ينطلق من قول الرسول الكريم «من طلب علما مما يبتغي به وجه الله تعالى ليصيب عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»(٥).

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) سورة هود، الآية: ٩.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع، ص١٣.

(٤) الغزالي: فاتحة العلوم، ص١٥.

(٥) رواه ابو داود في كتاب العلم حديث رقم ١٢.

وليس هناك ما يمنع من أن تكون رسالة التعليم ـ التي تقوم على اقتناع داخلي عميق بما يؤديه صاحبها من عمل ـ مهنة أو وظيفة حيث أن مثل هذا العمل لا بد وأن يتحول إلى رسالة لطالما حدد المعلم أهدافه على ضوء التزامه بعقيدة الإسلام. ولذلك ونتيجة لتطور المجتمع الإسلامي وتعقيدات الحياة فيه لم يجد الغزالي حرجاً في إباحة أخذ الأجرة حتى على إفادة العلوم الدينية حيث يقول «فإن قلت أليس يجوز عند الشافعي رضي الله عنه أخذ الأجرة على تعليم القرآن والنكاح بتعليم القرآن (لما روي) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال زوجتكها بما معك من القرآن. وهذا تعليم لغير الله تعالى (فأقول) هذا جائز ونزيد على هذا فنقول يجوز أخذ الأجرة على الاذان وإقامة صلاة التراويح ويجوز للمعيد أخذ الأجرة على مسائل معينة يكررها وللمدرس على مسائل بعينها يتعب نفسه فيها»[1]

وليس معنى هذا في نظر الغزالي أن الصلاة لغير الله جائزة، وإنما الأجرة على ذلك تكون مقابل تكبد التعب والمشقة والإلتزام بحضور مكان محدد والقيام بالعبادة في وقت معيّن. وفي ذلك يقول «ولا ينبغي أن يظن أن إمام صلاة التراويح يأخذ الأجرة على الصلاة وإن الصلاة لغير الله جائزة بهذا الدليل فذلك حرام بالإتفاق، ولكن إتعابه نفسه في حضور موضع معين وقيامه به في وقت معين ليس بواجب عليه. وليس من نفس العبادة وإنما الأجرة في مقابلة ذلك التعب»[2].

ولئن أباح الغزالي الأجر على إفادة العلم فإنما كان ذلك من منطلق حرصه على نشر العلم وإفساح المجال للمدرس كي يفرغ قلبه عن العلائق التي قد تحول دون القيام برسالة التربية والتعليم ونشر تعاليم الدين وهو في ذلك يقول: «وكذلك للمدرس أن يأخذ ما يكفيه ليفرغ قلبه عن المعيشة ليتجرد لنشر العلم فيكون مقصوده النشر وثواب الآخرة ويأخذ الرزق بلغة ميسرة للمقصود»[3].

---

(١) الغزالي: فاتحة العلوم، ص١٦.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص١٥.

والغزالي بذلك يعبر عن قناعته بأن التربية رسالة انطلاقاً من نظرته العقدية ونظرة الإسلام للتربية والتعليم. ولذلك ليس غريباً عليه أن يولي النية بالغ الأهمية في العملية التعليمية اقتداء بقول الرسول عليه الصلاة والسلام«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى...»[١]. فعلى قاعدة حسن القصد وسلامة النية يقرر الغزالي بأن «المعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة. أعني معلم علوم الآخرة، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه»[٢].

والغزالي بذلك إنما يعبّر عن وجهة نظره كمسلم حيث «إن المعلم احتل في التربية الإسلامية منزلة لم يصل إليها معلم في حضارة قديمة أو حديثة، وهو لا يحتل هذه المنزلة بسبب قربه من السلطة وخدمته لها، وسهره على النظام ليحميه، وإنما هو يحتلها بسبب ضخامة الرسالة التي يضطلع بها، وهي السهر على هداية الناس والسير بهم ـ ومعهم ـ في طريق الله»[٣]. فاحتلال المعلم لهذه المنزلة في التربية الإسلامية نابع من عظم المسؤولية المناطة به «لأنه يحمل على كتفيه أعباء لم يحملها في التاريخ قبله إلا رسل الله»[٤]. ولذا كما يقول الغزالي إن من «اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه»[٥].

وفي ظل التحولات التي شهدتها المؤسسات التربوية الإسلامية في القرن الخامس الهجري، إثر قيام نظام المدارس تحت الإشراف الحكومي أصبح المعلم موظفاً عند الدولة يتقاضى راتباً شهرياً على عمله. ولقد حدا هذا التحول ـ الذي فرضته ضرورات الحياة ـ بالإمام الغزالي لتذكير العلماء والمعلمين بأهمية دورهم

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي حديث رقم ١.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.
(٣) عبد الغني عبود: «المدرس في التربية الاسلامية»، مجلة التربية القطرية، العدد ٢٦، ربيع الثاني ١٣٨٩هـ/ ابريل ١٩٧٨م، ص٣٤.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.

الذي يحتم عليهم أن يكونوا أصحاب رسالة يقدرون خطورتها ويتحملون تبعاتها واعباءها بحيث يجعلون من أنفسهم صورة صادقة صافية لها، أسوة بالمعلم القائد محمد صلى الله عليه وسلم، ولكي يبقى المسلمون دعاة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. ففي حال «جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم: الصبر والتواضع وحسن الخلق. وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم: العقل والأدب وحسن الفهم. وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرئاسة»[١].

ونتيجة إحساس الغزالي بخطورة التحوّل الذي أخضع التعليم لميول الحكام وأهوائهم، ورغبات أصحاب الأوقاف وشروطهم، اندفع للكشف عن مخاطر الإنجراف وراء الحكام والسلاطين قناعة منه بأن «من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه»[٢]. وبذات الإتجاه يقول الإمام الإوزاعي «ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملا»[٣]. والعامل في هذا الموقع يعني الحاكم أو الوالي.

انطلاقاً مما سبق ذكره يمكننا القول بأن التربية في نظر الغزالي رسالة لها مفهومها وأهميتها وأهدافها لجهة بناء الشخصية الإسلامية على مستوى الفرد والجماعة على حد سواء.

ـ مفهوم التربية:

• علاقة التربية بالدين:

إن «الفكر التربوي ـ إيا كانت طبيعته ومنحاه ـ هو أداة الحضارة ووسيلتها في تخليد ذاتها وضمان انسيابها وتناقلها بين الأجيال. إن هذا بطبيعة الحال لا يلغي فعل التربية في الحضارة، ولكنه يرسم دور هذا الفعل ويحدد مداه. وهو لا

(١) المرجع السابق، ص٩٢.
(٢) المرجع السابق، ص٨٤.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يفترض بالضرورة سبق الحضارة على الفكر التربوي، ولكنه لا يجعل الفعل التربوي لاحقاً بها، فبمحض أن تعي حضارة ما ذاتها. . .تحرص على حماية تلك الذات من عوامل الإنحلال والإندثار. وعندما يقع هذا الوعي. . . يتولد التفكير في التربية. . . ويولد معه القلق الخلاق على التماس خير الوسائل وأجداها في حفظ الذات الحضارية. . . أي يبدأ الفكر التربوي. تلك ظاهرة عامة وثابتة في تاريخ الحضارات البشرية كلها»[1].

ويشكل الإسلام كلا متماسكا يمتاز بنظام فكري متكامل وبناء حضاري يحتوي على كل عناصر الحضارة المختلفة كالثقافة والعقيدة والعبادة والسياسة إضافة للجانب القانوني والتشريعي هذا إلى جانب رؤيته الخاصة بفئات المجتمع المختلفة ومعاملة الأقليات والمساواة بين الأجناس. . . كما وأنه يحتوي على مبادئ أخلاقية إنسانية سامية تشمل كافة نواحي الحياة. أي أن لها علاقة وثيقة بكل من الثقافة والعقيدة، والعبادة والسياسة والقانون والمجتمع والأجناس وتفسير التاريخ.

ولقد كان للإسلام السبق في إدراك مدى تكامل وتشابك كل من الجانب المادي والروحي في الإنسان وفي المجتمع الإنساني، الأمر الذي حدى به للإهتمام بكلا الجانبين مما جعله يتميز عن اليهودية التي غالت في تقدير القوة المادية والمسيحية التي غالت في تقدير القوة الروحية. وبذلك كرس الإسلام حقيقة كونه «دين التوازن الحق بين الناحيتين على أساس أن كليهما عنصر أساسي في الطبيعة البشرية وأن كليهما ضروري لتقدم الإنسان»[2].

ولقد تميّز الإسلام بخاصية ثانية هي «الربانية» مما يعني أنه دين رباني لم يلحق به أي تحريف كما لحق بغيره من الأديان. وهذا يقودنا للتسليم بوحدانية التشريع الإسلامي «أي أن المشرّع الوحيد هو الله سبحانه وتعالى. وأن هذا

---

(١) محمد جواد رضا: العرب والتربية والحضارة، ص١٣.

(٢) احمد عبد الحميد غراب: «التصور الفلسفي للاسلام»، مجلة الفكر الاسلامي، السنة الخامسة، العدد ١٠، رمضان: ١٣٩٤هـ - تشرين الاول ١٩٧٤، ص٢٨.

التشريع قد وصل عن طريق الوحي إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، ويتحدد معنى الشريعة الإسلامية، ويتضح أنها تقوم على ثلاث دعائم: عقيدة عقلية، وعبادة روحية ونظام قضائي. وهذا هو المراد عندما يقال: إن الإسلام دين ودولة وعبادة»[1].

والخاصية الثالثة التي تميّز الإسلام عن غيره من الديانات هي «خاصية الثبات للمقومات والقيم، بالتحاكم إلى منهج الله وحده في كل شؤون الحياة»[2]. وهي «متفرعة من التسليم لله بالحاكمية التشريعية، وهي خاصية غير خاضعة للهوى البشري المتقلب أو القيم الإنسانية الزائلة، مع إمكانية الحركة الواسعة داخل هذا الإطار»[3].

هذا إلى جانب خاصية الشمول التي اتسم بها الإسلام خاصة وأنه من عند الله تعالى المحيط بكل شيء علماً والعارف بكل حاجات الإنسان أكثر من الإنسان نفسه.

فحقيقة الإسلام هذه كانت القوة الكامنة وراء أفكار المربين المسلمين الذين جاءت آراؤهم متشابهة لا بل تكاد تكون متطابقة في غالب الأحيان خاصة على صعيد الأهداف وطرائق التعليم التي تبنوها.

فمن ابن سحنون ٢٥٦هـ إلى القابسي القيرواني ٤٠٣هـ إلى الغزالي ٥٠٥هـ إلى ابن جماعة إلى ابن خلدون ٨٠٨هـ إلى ابن حجر الهيثمي ٩٧٤هـ نرى رجالا كالوا بمكيال الإسلام ونهلوا من معينه، وجاهدوا بالكلمة الطيبة لتحقيق أهدافه فلم يكن غريباً أن يعكس فكرهم التربوي طبيعة الدين الحنيف ونظرته لكل من الخالق والخلق. في ظل واقع مميّز للدين الإسلامي مما يؤهله لأن يكون منهج حياة صالح لكل زمان ومكان الشيء الذي لم يتأت لغيره من الأديان.

---

(١) شكري قنديل: «المفهوم التربوي الاسلامي» المرجع السابق، ص٢٢.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

*** التربية لغة واصطلاحا:**

أ ـ التربية لغة:

يعيد علماء اللغة كلمة «التربية» إلى أصول لغوية ثلاثة هي:

١ ـ الاصل الاول: (ربَّ) ـ يربُّ ـ بمعنى أصلحه وتولى أمره وساسه، وقام عليه ورعاه.

٢ ـ الأصل الثاني: (ربا) ـ يربو ـ بمعنى نما ينمو.

٣ ـ الأصل الثالث: (ربي) ـ يربى ـ بوزن خفى ـ يخفى، بمعنى نشأ وترعرع[١].

ب ـ التربية اصطلاحا:

جاء في تفسير البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) المسمى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل». إن «الرب في الأصل بمعنى التربية وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً. ثم وصف به (تعالى) للمبالغة»[٢].

وجاء في المعجم الفلسفي «التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً، تقول ربيت الولد، إذا قويت ملكاته، ونميت قدراته إذا أحكمته التجارب ونشأ نفسه بنفسه. ومن شروط التربية الصحيحة أن تنمى شخصية الطفل من الناحية الجسمية والعقلية والخلقية حتى يصبح قادراً على مؤالفة الطبيعة يجاوز ذاته ويعمل على أسعاد نفسه، وإسعاد الناس، وتعد التربية ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في نموها وتطورها»[٣].

---

(١) أ ـ ابن منظور: لسان العرب.

ب ـ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة.

ج ـ الفيروز ابادي: القاموس المحيط.

(٢) البيضاوي: انوار التنزيل واسرار التأويل، ج١، ص٣.

(٣) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج١، ص٢٦٦.

وترى المربية الإيطالية (منتسوري) أن التربية هي التنمية لأن «الطفل جسم ينمو وروح ينمو»[(١)].

أما المربي الفرنسي المعاصر رونيه أوبير فيقول «التربية: جملة الأفعال والآثار التي يحدثها بإرادته كائن إنساني في كائن إنساني آخر وفي الغالب راشد في صغير، والتي تتجه نحو غاية قوامها أن تكون لدى الكائن الصغير استعدادات منوعة تقابل الغايات التي يعد لها حين يبلغ طور النضج»[(٢)].

ويقول الإمام الغزالي «الصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما ينقش ومائل لكل ما يمال به إليه، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه، وسعد في الدنيا والآخرة وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[(٣)] ومهما كان الأب يصون عن نار الدنيا فأن يصون عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره»[(٤)].

ويعكس كلام الغزالي فهمه للتربية الذي يأخذ بعين الاعتبار فطرة الإنسان معتمداً في ذلك على قول الرسول صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[(٥)] «فإذا كان النشوء صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر. وإن وقع النشوء بخلاف ذلك... نبا قلبه عن قول الحق نبوة الحائط عن

---

(١) محمد عطية الإبراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص ٩٥.

(٢) رونيه اوبير: التربية العامة، ص٢٧.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز حديث رقم ٨٠.

التراب اليابس. فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى»[١] لأن الصبي في الأساس كما يرى الغزالي «خلق قابلا للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين»[٢].

فالمسؤولية إذن حسب الغزالي مسؤولية الأبوين أو المربي في تحديد مصير الطفل لجهة بناء شخصيته القادرة على القيام بأعباء الخلافة. ولقد كان هذا التكليف نتيجة قابلية الإنسان للتعلم يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[٣].

فالتربية عند الغزالي عملية رعاية وبناء لشخصية الطفل بحيث يصبح فرداً صالحاً في مجتمع صالح متوازن متطور قائم على أسس ثابتة تراعي طبيعة الإنسان القائمة على ضرورة التوازن بين متطلبات الجسد والروح إلى جانب الدنيا والآخرة.

ويحدد الغزالي مفهوم التربية بإيجاز ووضوح لا لبس فيهما عندما يقول «ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه»[٤].

وتعريف الغزالي هذا يلخص كل ما توصل إليه من سبقوه أو لحقوه من علماء التربية. ولكن «بين عبارة الغزالي، المختصرة، وعبارات المفكرين المعاصرين غير المسلمين فرق شاسع إذ أن هناك (تشابهاً) أو (اتفاقاً) بينه وبينهم، في (الإطار العام)، إلا أننا إذا تعمقنا قوله وقولهم... وجدنا هذا التشابه أو الإتفاق، مجرد تشابه أو اتفاق ظاهري فقط»[٥]. ومرد ذلك إلى أن «الغزالي قال ما قاله... من منطلق اعتقادي خالص، رآه الإسلام، يرى تكاملا بين ملكات الإنسان ومواهبه، ولا يراها مناطق منفصلة، كما يرى تكاملا بين هذه الملكات

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١.

(٤) الغزالي: ايها الولد، ص١٢٨.

(٥) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة ايها الولد)، ص١٧٥.

الإنسانية مجتمعة وبين النظام الكوني»[1] وذلك انسجاماً مع نظرته العقدية للإنسان والكون. وإذا كان المفكرون من غير المسلمين قد نحوا هذا المنحى فلقد جاء ذلك «تحت وطأه الحاجة إلى مثل هذا التكامل... وفرق كبير بين آراء، يذهب إليها القائل بها مؤمناً بها وآراء يذهب إليها القائل بها مضطراً إليها... أي على النقيض مما يؤمن به حقيقة»[2].

ـ أهمية التربية:

التربية عملية اجتماعية. وهذا ما يجعلها تختلف باختلاف المجتمعات تبعاً للحضارة والثقافة والقيم التي تسودها. ولقد صحبت التربية الإنسان منذ وجوده الأول على الأرض إذاً فهي «وثيقة الصلة بالمجتمع، تعكس فلسفته وأهدافه وظروف حياته وألوان نشاطه، وقيمه ومعتقداته، أي تعكس عموماً إيديولوجيته في الحياة لتجعل الصغار يشبّون على هذه الإيديولوجية فينضمون إلى حملتها من الكبار»[3].

وحيث أن التربية ترتبط بجميع «المؤشرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الإنسان وتربي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية أم اجتماعية أم فكرية أم فنية، أم أخلاقية أم روحية، فالتربية تشمل كل المنظمات والعوامل والأساليب والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهذيبية»[4].

فقوة الشعوب إذن تعتمد اعتماداً رئيساً على «ما يتهيأ للأفراد من إعداد خاص وتربية متمايزة حتى يصبح هؤلاء الأفراد من نوعية متفوقة فإذا هم قادرون على توظيف طاقاتهم بذكاء وفاعلية في استثمار مواردهم الطبيعية فإذا هم جديرون بتحويل ما حولهم إلى قوة واقتدار وذلك بفضل مهارتهم الاجتماعية وقيمهم الخلقية وطاقاتهم الفكرية»[5].

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) عبد الغني النوري، عبد الغني عبود: نحو فلسفة عربية للتربية، ص٢٣.

(٤) محمد فاضل الجمالي: آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص١٢٧.

(٥) محمد الستاوي: «اهداف التربية»، مجلة التربية القطرية، السنة التاسعة، العدد الاربعون، شعبان ١٤٠٠هـ، يوليو ١٩٨٠م، ص٦٦.

وفي هذا دلالة على أهمية التربية ودورها في تقرير مصائر الشعوب حيث إنها تشكل قوة فاعلة سواء على صعيد الفرد أو المجتمع فهي «لا تشمل فقط كل ما نفعله لأنفسنا، أو ما يعمله الآخرون لنا بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع ولكنها فوق ذلك تشمل الآثار غير المباشرة التي تؤثر في أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الإنسانية مثل القانون، ونظم الحكومة، والفنون الصناعية والنظم الاجتماعية، بل إنها تشمل ايضاً آثار البيئة الطبيعية التي لا تتوقف على الإرادة البشرية من عوامل الجو والتربة والموقع الجغرافي. فكل ما يساعد على صقل الفرد وإخراجه بالشكل الذي ينتهي إليه جزء من التربية»[1].

إذاً يمكننا القول أن كل مجهود أو نشاط يؤثر في قوى الطفل أو تكوينه الجسمي أو العقلي أو النفسي أو الخلقي هو عمل تربوي فالتربية من حيث أبعادها تمثل مجمل الجهد الإنساني عبر التاريخ لتحريك المجتمعات البشرية وتطويرها والسير بها قدماً باتجاه الكمال ولذلك التفت حولها اهتمامات كل من الأفراد والمجتمعات على حد السواء.

ومن هنا تتضح أهمية التربية وخطورتها، الشيء الذي أدركه الإسلام منذ بزغ فجره. حيث أن القرآن الكريم والسنة النبوية ـ العملية والقولية والتقريرية ـ شكّلا المرجع الرئيسي للتربية وأصولها وممارساتها «وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته يتمثلون تربية القرآن في السلوك اليومي والمعاملات المختلفة بكل أهدافه وأساليبه وخصائصه. . . ولضمان استمرار هذه التربية فيما أراد الله سبحانه وتعالى أرسل رسله مبشرين ومنذرين فقد كان من فضل الله على الناس أن بعث فيهم محمداً صلى الله عليه وسلم مربياً ومزكياً وموجها»[2]. يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[3]. ويقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ

---

(١) صالح عبد العزيز: تطور النظرية التربوية، ص٢٣.

(٢) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص٢٧.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٢.

ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1]. وما إستجابة الله تعالى لدعاء سيدنا ابراهيم الخليل ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾[2] إلا تأكيد على أهمية التربية في حياة البشرية جمعاء.

وسيراً على خطى الرسول الكريم وأصحابه ومن بعدهم التابعين والعلماء الصالحين أدرك الغزالي أهمية العلم والتعلم والتعليم وبالتالي أهمية التربية وخطورة دورها في بناء الفرد والمجتمع انطلاقاً من فهمه العميق للإسلام على أساس أنه «رسالة تربية قبل أن يكون رسالة تشريع ورسالة خلق بل أن يكون رسالة جهاد ورسالة سمو وقيم قبل أن يكون رسالة كثرة واتساع»[3].

ولقد جمع الغزالي ما بين طرق التربية والتعليم وطرق التزكية والتصفية فأبدع في ذلك مستفيداً مما جاء في القرآن الكريم وأحاديث الرسول وعلوم من سبقوه من علماء المسلمين وغير المسلمين بما يخدم رسالة التوحيد. وتجلى ذلك من خلال ما جاء في رسالة «أيها الولد» وكتاب «احياء علوم الدين» وغيرها من الكتب التي لم تخرج عما ورد في الكتابين السابقين. كل ذلك إيمانا منه بأهمية التربية في عملية بناء الإنسان والمجتمع الإسلامي.

وتعتبر إشادة الغزالي بالعلم والتعليم إشادة بالتربية التي يعتبر العلم من أبرز دعائمها وهذا ما يعكس تعليقه على خديث الرسول صلى الله عليه وسلم «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي»[4] حيث يقول «فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو من علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة»[5].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

(٣) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص٧.

(٤) رواه الترمذي في باب العلم رقم ١٩.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٧.

وفي إشارة ثانية لأهمية التربية القائمة على العلم يورد الغزالي ما جاء في وصايا لقمان لابنه «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء»[1] . . . وهل يا ترى هناك مجتمع يرقى لمرتبة المجتمع الذي حظى أفراده بتربية أورثتهم نور البصر والبصيرة؟ خاصة عندما نعلم أن التربية في نظر الغزالي تخرج الناس من الظلمات إلى النور سواء كان ذلك عن طريق التلقي أو التعلم. فتثقيف النفس وتربيتها جهاد ومن يرى غير ذلك فقد نقص عقله حسب ما يقول الغزالي «من رأى أن الغدو إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص رأيه وعقله»[2].

ومن المؤشرات الدالة على أهمية التربية في نظر الغزالي إيمانه العميق بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، وتأثير التربية عليها إن سلباً أو إيجاباً. وهو في ذلك يشبّه النفس بالبدن فيقول: «وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ـ أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل ـ وكما وأن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال، وإنما تكتمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم»[3].

فالتربية في نظر الغزالي وسيلة لإعادة الاعتدال في حال انحرف الإنسان عن فطرته وهذا ما جاء به الإسلام حيث أن الله تعالى أرسل الرسل للناس لهدايتهم إلى فطرته، وقد يفلح الإنسان بذلك وقد يخيب يقول تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾[4].

---

(١) المرجع السابق، ص١٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

(٣) المرجع السابق ج٣، ص٦٦.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

فإلى جانب رد الاعتدال إلى الفطرة تبرز أهمية التربية في نظر الغزالي كما تشير أقواله السابقة إلى الدور الذي تلعبه التربية في رعاية وتكملة نمو الطفل حيث أن الطفل يولد ضعيفا وغير مكتمل النمو مما يجعله بحاجة للاتكال على غيره أي أنه يفتقر إلى من يرعاه كي يصبح عضواً فاعلا في مجتمعه قادراً على نفع نفسه وغيره والقيام بما خلق لأجله.

ومن دلائل أهمية التربية في نظر الغزالي كونها وسيلة لانتقال العلم من جيل إلى جيل لأن «أحدا لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم»[١]. وفي هذا إظهار لقيمة دور التربية والعلماء الذين لولاهم «لصار الناس مثل البهائم، أي إنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية»[٢].

ولقد لامس مربو هذا العصر عبارة الغزالي، ولا نبالغ إذا قلنا أن هناك تطابقاً ـ رغم اختلاف المنطلقات ـ فيقول أحدهم مثلا «إن التربية عملية ينتقل بها الإنسان من الهمجية إلى المدنية»[٣]. ويصرح آخر بتعبير أكثر جرأة فيقول «إن السبب الذي من أجله نحتاج إلى التربية هو أن الاطفال لا يولدون بشراً، بل يصيرون بشراً بفضل التربية»[٤].

وفي فرضية لطيفة ومعبّرة يطرح مربيان أمريكيان الفكرة التالية قائلين «لو انتقل سكان الكرة الأرضية إلى المريخ تاركين وراءهم الاطفال الصغار ثم عادوا إليهم بعد عشرين عاماً، لوجدوهم قطيعاً من البهائم»[٥].

ومن أجل استمرار الحياة وإعمار الأرض والتغلب على ما قد يواجه الإنسان من تعقيدات وتحولات تبرز التربية كضرورة ملازمة للإنسان. ومن البديهي القول إنه مع اتساع البيئة وتعدد مشكلاتها ومتطلباتها وكثرة مشكلاتها واشتداد أزماتها

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص٢٢.

(٣) Morrison, /Basic Principles in Education, p. 60-83.

(٤) Barzun, ÏTeacher in AmericaÏ p.13.

(٥) Thorndike & Jates, ÏElementary Principles of EducationÏ, p.7.

تبرز أهمية التربية في حياة الإنسان مما يضطره كي يبذل جهوداً جبارة في سبيل تكييف نفسه وبيئته بما لا يتنافى مع الإيمان بالله واليوم الآخر. فبسبب جهل الإنسان بما يخبيء له الغد ولكي ينتظم أمر الدنيا أصبح من واجب التربية أن تعود النشيء على كيفية مواجهة وحل ما يعتريه من مشاكل في هذه الدنيا التي هي مزرعة الآخرة والسبيل إلى السعادة الأبدية في حال أحسنت التربية وفي ذلك يقول الغزالي «فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلا لمن يتخذها مستقراً ووطناً. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين»[1].

والغزالي لا يرى التربية ضرورة فردية فحسب بل ضرورة مجتمعية أيضاً، وحاجة المجتمع الإسلامي إلى التربية ليست بأقل أهمية من حاجة الفرد المسلم إليها، لأنها تحافظ على تراثه الثقافي والفكري وتعمل على تعزيزه ونشره، وهي المهمة الأساس على طريق خلافة الإنسان لله على الآرض، ويقول تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[2] والمراد بذلك حسب الغزالي «التعليم والإرشاد»[3]. ويرى الغزالي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[4] «إيجاب للتعليم»[5] أما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[6] فهو «تحريم للكتمان»[7] تماماً كما قال تعالى في الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٣.
(٢) سورة التوبة. الآية: ١٢٢.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.
(٧) الغزالي: الإحياء، ج ١، ص ٢٠.

قَلْبُهُۥ﴾[1]. وفي الاتجاه نفسه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعلموا العلم وعلموه الناس»[2].

وفي كل ما سبق تأكيد على أهمية التربية كضرورة فردية واجتماعية من أجل الحفاظ على التراث الإسلامي ونشر رسالة الإسلام لتكون دستور الناس أجمعين حتى يرث الله الأرض ومن عليها. خاصة وأنه على دور التربية وواجبها يترتب الجزاء الاخروي كما ذكر الغزالي مستلهما ذلك للما جاء في القرآن الكريم ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[3].

ـ أهداف التربية عند الغزالي:

إن التربية عملية متعددة الجوانب فهناك الأسرة والمدرسة والمجتمع. وهناك المعلم والمتعلم. وهناك الطرائق والمواد التعليمية، علاوة على الأهداف التي تسعى التربية لتحقيقها من خلال رعاية الاستعدادات الفطرية وتنميتها لدى الطفل التي تكفل له النمو السليم.

«وترتبط أهداف التربية بعوامل كثيرة منها حاجات الأطفال الذين يربون، وخصائص الحياة التي يعدون لها، ومنها نوع المجتمع ودرجة التقدم التي وصل إليها والظروف الخاصة به، ومنها آراء المفكرين الذين يهتمون بالشؤون التربوية ورغبات السلطات والهيئات التي تشرف على المدارس»[4].

وبما أن المجتمعات الإنسانية مختلفة في أوضاعها ونظمها ودرجة تقدمها، علاوة على أنها تتطور مع تقدم الأيام بشكل متفاوت، وبما أن لكل مجتمع سلطانه ومفكروه، ولما كانت أهداف التربية تتأثر بكل ذلك فليس غريباً أن تأتي أهداف التربية الإسلامية متميزة عن غيرها من الأهداف تبعاً لتميز نظرة الإسلام لله والإنسان والكون والمجتمع والحياة الآخرة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

(٢) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٢٤.

(٣) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.

(٤) جوزيف عبود كبي ورفاقه: اسس التربية وعلم النفس، ص١٤.

ولقد أدرك المربون المسلمون أهمية التربية وأثرها في بناء شخصية الطفل مما جعلهم يهتمون بعملية تأديبه، وتهذيبه، تطلعاً لتحقيق غايتين: أولاهما: الإعداد للحياة الآخرة وهي الأهم، وثانيهما: تمكين الفرد من معرفة طائفة من العلوم والمهارات التي تؤهله للنجاح في الحياة الدنيا[١].

يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾[٢] فالمتمعن في الآية الكريمة يدرك أن «وسائل بناء الشخصية الإنسانية على أساس من النقاء والطهر واضحة جلية... فالتزكية تمام الأخلاق والتعليم للكتاب تمام معرفة الأوامر والنواهي والحقوق والواجبات كما أنه يفيد معنى زوال الجهل وتعليم الحكمة هو أعلى درجات التعليم لأنها تعني في عرف العلماء الإصابة في القول والعمل، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة ـ بعد تزكية النفس بالأخلاق الحميدة والفضائل السامية ـ فإنه يكون حينئذ قد حصل الخير كله»[٣] تصديقاً لقوله تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[٤].

وفي إطار تحديد أهدافه التربوية يقول الغزالي «ونحن نبتغي من العلم تبليغ النفس كمالها»[٥] وفي هذا تأكيد على أنه يسعى لبناء شخصية متكاملة تنمو في كافة الأبعاد والجوانب الروحية والنفسية والعقلية والاجتماعية والجسمية بشكل مترابط ومنسق، شخصية تعرف «أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها. كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له والميل عن الاعتدال مرض فيه»[٦].

---

(١) عبد الله فياض: تاريخ التربية عند الامامية واسلافهم الشيعة، ص٢١٩.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٣) محمد عبد الستار نصار: «من التوجيه التربوي في الحديث الشريف». مجلة التربية القطرية، السنة السابعة، العدد ٢٧، رجب ١٣٩٨هـ ـ يونيو ١٩٧٨ ص٦٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٥) الغزالي: ميزان العمل، ص ٣٦.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٦.

وحتى يتكامل حسن الصورة الظاهرة لهذه الشخصية مع حسن الصورة الباطنة يرى الغزالي أن هناك «أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الاربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق وهو قوة العلم، وقوة الغضب، وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث»[١].

فحسن وصلاح هذه القوى يورث الحكمة والشجاعة والعفة والعدل وهي فضائل يعتبرها الغزالي أمهات محاسن الأخلاق والباقي فروعها. وفي ذات الوقت يشير الغزالي إلى أن أحدا «لم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الاربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه. فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٢].

والشخصية التي سعى الغزالي لتحقيقها ـ والتي تمثل الكمال الإنساني ـ لن تتمكن من بلوغ سعادة الآخرة في القرب من الله سبحانه وتعالى إلا بعد أن تكون قد حققت سعادة الدنيا عن طريق تصويب النية فيما تقوم به من أعمال وعادات، وهذا ما يفضي به إلى تلميذه عندما يخاطبه قائلاً «أيها الولد كم من ليلة أحييتها بتكرار العلم ومطالعة الكتب وحرّمت على نفسك النوم لا أعلم ما كان الباعث فيه؟ إن كانت نيتك نيل عرض الدنيا وجذب حطامها وتحصيل مناصبها والمباهاة على الأقران والأمثال فويل لك ثم ويل لك وإن كان قصدك فيه إحياء شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وتهذيب أخلاقك وكسر النفس الأمّارة بالسوء فطوبى لك ثم طوبى لك»[٣]. ويعزز الغزالي وجهة نظره بقول الشاعر:

سهر العيون لغير وجهك ضائع　　　وبكاؤهن لغير فقدك باطل[٤]

---

(١) المرجع السابق، ص٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

(٣) الغزالي: ايها الولد، ص١٠٥، ١٠٦.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن مقصود الإمام الغزالي (بإحياء الشرع وتهذيب الأخلاق وكسر النفس) ما هو إلا إصلاح للحياة الدنيا وليس هجرها كما وإننا «نحب أن نوضح. . . أيضاً، أن (وجه الله) في البيت لا يعني هجر الدنيا، بل هو يعني (تقوى) الله في علاقة الإنسان المسلم بالناس والأشياء على السواء»[1].

فالغزالي يسعى لتحقيق الشخصية المسلمة المتميزة بذاتها إلا أن هذا التميز «لا يعني أنها ذات منعزلة بوجودها مكتفية بحدودها، مغلقة بأستارها مغلقة بأقفالها بل هي ذات إيجابية ومتفتحة على الحياة كلها»[2]. وذلك لأنه يرى أن العلم والعمل يجب أن يسيزا على ضوء تعاليم الشارع بعيداً عن شطحات المتصوفة. ذلك لأن الصوفية في نظره هي المجاهدة[3] «وفرق بين منهج التصوف الذي يؤدي إلى (الأندماج) مع الناس والأشياء ارتفاعا بمستوى حياة الإنسان إلى أفق رباني أرحب وأنظف وأكمل، وبين منهج المتصوفة الذي يدعو إلى (هجر) ذلك كله بإسم (الأنقطاع) لله ولعبادته»[4]. فصوفية الغزالي إذن لا تعني ترك السعي في الحياة والانقطاع لله وهجر الناس، لأن كل ذلك يتنافى مع رسالة الاستخلاف التي خلق الإنسان من أجلها. وإنما هي التجسيد العملي لمعنى العبودية بشكل يوظف العبادة التقليدية لله توظيفاً يجعلها متصلة اتصالاً وثيقاً بأمور الحياة اليومية. لتنعكس بشكل إيجابي على التعامل مع الناس والأشياء على حد سواء.

هذا على مستوى الفرد. أما على مستوى الجماعة فلقد سبق لنا واطلعنا على موقف الغزالي من مجريات عصره وفي هذا دلالة على مدى اهتمام الرجل بقضايا المجتمع الإسلامي في الوقت الذي لم يغفل فيه الدعوة المتكررة لمحاسن الأخلاق. ففي رسالة «الأدب في الدين» يضع الغزالي تصوراً كاملا للأداب التي

---

(١) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص٩٧، ٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٠.

(٣) الغزالي: ايها الولد، ص١١٧.

(٤) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص١٣٠.

يجب أن تسود المجتمع الإسلامي لأنه يرى «أن أكمل الأخلاق وأعلاها وأحسن الأفعال وأبهاها، هو الأدب في الدين. وما يقتدي به المؤمن من فعل رب العالمين وأخلاق النبيين»[1].

ولو نظرنا إلى الجزء الخاص بالعادات من كتاب «الاحياء» لرأينا مدى اهتمام الغزالي في أخلاق المجتمع الإسلامي في كافة مجالات الحياة، فهو يرى أن «الإلفة ثمرة حسن الخلق والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر»[2]. وشاهده على ذلك قوله تعالى في مدح النبي الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[3]. وقوله صلوات الله وسلامه عليه «أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[4].

فالتقوى تشكل محور الأخلاق الإسلامية كما وأنها المفسر لما قد يبدو متناقضاً في تصرفات المسلم كالتواضع والأنفة على سبيل المثال لأنه «مع الأنفة وعزة النفس، ينشىء الإيمان بهذه الكلمة التواضع في الإنسان»[5].

وعلى الرغم من وضوح الغايات الاجتماعية التي عمل الغزالي على تحقيقها إلا أن بعضهم رأى أن هذه الأهداف تنحصر في معرفة الدين علماً وعملاً، وإنه يسرف في هذه النظرة بحيث يجعل تلاميذه يستغرقون جميع أوقاتهم وجميع أعمالهم في سبيل الدين وبإسم الدين لدرجة أنهم يصبحون عاجزين عن مواجهة أعباء الحياة وتقلباتها، فإننا نقول إن مثل هذا الرأي قد يكون ناجماً عن الخلط وعدم التمييز بين الإسلام والمسيحية، حيث تخلو المسيحية من النظم المادية في الوقت الذي يحفل فيه الإسلام بالتنظيمات المادية والاقتصادية والاجتماعية إلى

---

(١) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي ج٥، ص٨٩.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٢، ص١٧١.
(٣) سورة القلم، الآية: ٤.
(٤) رواه احمد في المسند ج٢، ص٣٩٢، ٤٤٢.
(٥) المودودي: مبادىء الاسلام، ص٧٦.

جانب المباديء والوصايا الروحية. وقد يكون مرد سوء الفهم أيضاً لقصور أو خطأ في فهم مدلول العلوم الدينية عند علماء المسلمين من قبل مفكري الغرب والمتأثرين بهم. خاصة وأن الأوروبيين فصلوا بين الدين والحياة العامة وسلوك الإنسان وجعلوا الدين مجرد عقيدة فكرية بعيدة عن أي أثر سلوكي. بينما يرى المتتبع لأخبار علماء المسلمين - في القرون الوسطى - كيف أن العلوم الدينية تناولت كافة مشاكل الحياة الإنسانية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها من المشاكل بمنتهى الشجاعة والاهتمام.

ولئن تمتع الغزالي بخصوصية ذات طابع صوفي متميز فإن لذلك ما يبرره حيث أن الرجل انبرى «ليكافح تلك المادية الدنيوية الطاغية وتلك المذاهب الفكرية التي تسبح في ضباب من الظنون والتخمينات تدفع إلى الفروض والإباحية كما تدفع إلى الضلال والجحيم»[1] فاستطاع الغزالي من خلال موقفه هذا أن يجدد «للناس إيمان القلوب، ذلك الإيمان الصافي المتجه إلى اله يدركه العلماء والحكماء والعامة»[2]. فاستحق بذلك لقب مجدد أمر الدين لفترة المائة الخامسة من عمر هذه الأمة.

وإن كان من أحد يسعى لإيجاد طبقة كاملة الرجولة سامية الأخلاق نبيلة الأهداف فإن الغزالي يعتبر رائداً في وضع الصورة الحقيقية لمثل هذا النوع من البشرية لأن «المبادىء الأخلاقية النبيلة التي وضعها الغزالي وشرطها للمؤمن لجديرة بإيجاد مجتمع إنساني ملائكي فاضل سليم من الضغن والتنازع بعيد عن الفحش والرذيلة»[3].

ويذكرنا الغزالي إبان سعيه لتحقيق أهدافه المتمثلة في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة[4] «أن النمو نحو الإنسجام الكامل يتطلب الكثير من التجربة

---

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص١٣٢.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص٦٦، ٦٧.
(٤) انظر كتاب شرح«عجائب القلب»، الاحياء ج٣.

كما يتطلب معرفة عميقة وشاملة بالطبيعة الإنسانية. ولذا فمن المهم أهمية خاصة بالنسبة إلى الإنسان الذي يتطلع إلى مثل هذه المعرفة أن يدرس أسرار الشخصية الإنسانية وخفاياها وأن يتفهم تركيبها. وعليه أن يعرف ما تضمه هذه الشخصية من صفات وخصائص وميول ليستطيع عن طريق معرفته لها معرفة مواضع النبل فيها، ومعرفة مواضيع العيب والدمار. وعليه أن يعرف ما هي الشهوات والنزعات التي قد تسيطر عليها وتتملكها والدوافع التي تستطيع التأثير على اتجاهها، وكيف يمكن ضبط كافة هذه الشهوات والدوافع والرغبات وتطهيرها لتؤدي عملها بصورة سليمة»[1].

---

(١) علي عيسى عثمان: الانسان عند الغزالي، ص١١٥.

الفصل السادس

ميادين التربية عند الإمام الغزالي

- مقدمة
- التربية الروحية
- التربية العقلية
- التربية الأخلاقية
- التربية النفسية
- التربية الجسمية
- التربية الاجتماعية

ـ مقدمة:

إن السعادة التي ينشدها الغزالي تقوم على أساس الفطرة المستمدة من تعاليم الإسلام ونظرته للإنسان وجبلته التي جبل عليها. ومعلوم أن الإسلام ينظر إلى الإنسان من جميع جوانبه الروحية والجسدية والمادية والمعنوية. ولذا فليس غريباً على عالم مسلم كالغزالي أن يحسب لكل جانب حسابه وأن يكون له موقف واضح ممن غالوا في الجري وراء السعادة البشرية في الكمالات الروحية على حساب الغرائز الجسدية. فهو يرى أن «هذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك. . . وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»[1].

وكذلك كان موقف الغزالي واضحاً ممن ر موا أو سعوا لأن تكون سعادة الإنسان في المال أو اللذة والشهوة على حساب الجانب المعنوي. فهو يرى أن «أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فيها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار»[2] وأن البطن في نظره «ينبوع الشهوات ومنبت

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧.

الأدواء والآفات»[1] وتتبع شهوة البطن «شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات، ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة في الجاه والمال الذين هما وسيلة إلى التوسع في المنكوحات والمطعومات، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات. . . »[2].

وبهذا يبين الغزالي خطر الإخلال بالرغبات الفطرية عند الإنسان لما لذلك من تأثير على السعادة الإنسانية التي ترتبط ارتباطا معتدلا بكل من الجانب الروحي والمادي عند الإنسان. وبناء عليه فلقد جهد لنفسه أن تجمع رسالته التربوية بين تأديب النفس وتقوية الجسم وتصفية الروح وتثقيف العقل بحيث تعنى بكافة مجالات التربية: العقلية والأخلاقية والروحية والنفسية والجسمية والاجتماعية دون التضحية بأي منها عى حساب الآخر.

ولبلوغ الهدف الأسمى الذي رسمه الغزالي وهو السعادة والقرب من الله تعالى كان لا بد من الارتقاء لمستوى الكمال الإنساني من خلال بناء الشخصية الإسلامية المتميزة من كافة جوانبها المادية والمعنوية. والغزالي يقوم بذلك إيماناً منه بأن التربية الإسلامية قد أعطت لتربية الروح والنفس القدر نفسه من الاهتمام الذي أولته لتربية العقل والجسم. لذا فالتربية عند الغزالي تعكس توجهاته وقناعته بأهمية تفتيح شخصية الفرد وتنمية جوانبها المختلفة في الاتجاه المرغوب فيه للمجتمع الإسلامي لأن «من استعمل جميع أعضائه وقواه على وجه الاستعانة بها على العلم والعمل فقد تشبه بالملائكة. . . ومن صرف همته إلى اتباع اللذات البدنية يأكل كما تأكل الأنعام فقد انحط إلى حضيض أفق البهائم»[3].

ـ التربية الروحية:

ونسبة هذه التربية إلى الروح بالمعنى الذي أشار إليه الغزالي بقوله «هو

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص١٠ ـ ١١.

اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان... وهو الذي أراده الله تعالى بقوله ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[1] وهو أمر عجيب تعجز أكثر العقول والأفهام عن درك حقيقته»[2]

«والإسلام يعنى عناية خاصة بالروح - إنها في نظره مركز الكيان البشري ونقطة ارتكازه. إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها. إنها المهيمن الأكبر على حياة الإنسان. إنها الموجه إلى النور. يكفي أنها صلة الإنسان بالله»[3]. وإذا كانت طاقة الجسم أو العقل محدودة فإن «طاقة الروح - وحدها - في كيان الإنسان هي التي لا تعرف الحدود والقيود، لا تعرف الزمان والمكان. لا تعرف البدء والنهاية. لا تعرف الفناء... هي وحدها تملك الاتصال بما لا يدركه الحس ولا يدركه العقل. هي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي... تملك الاتصال بالله. كما أنها هي التي تملك الاتصال بالوجود كله من وراء حواجز الزمان والمكان»[4].

والتربية الروحية تجهد في تنمية وتثبيت الوازع الديني والعقيدة الدينية إلى جانب ممارسة الفضائل والشعائر الدينية بعيداً عن التصلب والجمود والاتكالية مع مراعاة التكامل بين الأديان على أساس العمل الصالح والإخلاص وأداء الواجب والإنتاج المثمر وإنكار الذات.

ويرى الغزالي أن «أشرف أنواع العلم هو العلم بالله وصفاته وأفعاله. فيه كمال الإنسان وفي كماله سعادته وصلاحه لجوار حضرة الجلال والكمال»[5] ولذلك ليس غريباً أن تتصدر التربية الروحية اهتماماته في سعيه لبناء الشخصية الإسلامية المتكاملة من خلال تكريس منهج الإسلام في التربية حيث أن «طريقة

---

(١) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٥.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٤١.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص١٠.

الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور»[1]. ومعلوم «أن التكوين الروحي للإنسان قد ميز الإنسان بدوافع معينة كان لزاماً على التربية الاهتمام بها وتعميقها وتوجيهها في مسارها الصحيح فنزعة التدين نزعة فطرية في الإنسان»[2].

يقول تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[3] وهذا ما أدركه الغزالي واعتبره ميزة شرف وفضيلة للإنسان: «أما بعد: فشرف الإنسان وفضيلته التي فاق بها جملة من أصناف الخلق باستعداده لمعرفة الله سبحانه، التي هي في الدنيا جماله وكماله وفخره وفي الآخرة عدته وذخره»[4].

لذا فإن «الروح الإنسانية تدرك بفطرتها وجود الله وتؤمن بوحدانيته ولكنها لا تخلص في عبادته وتسبيحه إلا عندما تتحرر من شهوات الجسم وضغوط رغبات النفس والهوى»[5].

فالقلب الذي هو بمعنى الروح في هذا المقام «هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعي إلى الله وهو المكاشف بما عند الله ولديه... فالقلب هو المقبول عند الله إذا سلم من غير الله. وهو الذي إذا جهله الإنسان قد جهل نفسه وإذا جهل نفسه فقد جهل ربه ومن جهل قلبه فهو بغيره أجهل... ومن لم يعرف قلبه ليراقبه ويراعيه ويترصد لما يلوح من خزائن الملكوت عليه وفيه فهو ممن قال الله تعالى فيه[6] ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[7].

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ص٤٢.
(٢) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص١٨٣.
(٣) سورة الروم، الآية: ٣٠.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٣.
(٥) امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ص٣٥١.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٣.
(٧) سورة الحشر، الآية ١٩.

ويعكس كلام الغزالي أهمية التربية الروحية وأثر ذلك في بناء الشخصية الإسلامية القادرة على تحديد أهدافها من خلال عبادة الله تعالى والإيمانَ بعقيدة التوحيد خاصة وأن «عقيدة الأنبياء واحدة وأنهم جميعاً يدعون إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما يغايره ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً»[1]. وبهذا ومن خلاله يمكن للإنسان المسلم أن يتجنب القلق والصراع الذي يعيشه غيره من بني البشر الذين عجزوا عن تحديد أهدافهم والتعرف على بارئهم عبر مسيرتهم في هذه الحياة.

فالتربية الروحية عند الغزالي تقوم على مبدأين:

المبدأ الأول هو الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه من أهم القوى المؤثرة في حياة الفرد والمجتمع «وهذا الإيمان وحده ينبعث عنه أكمل الصفات الإنسانية والاجتماعية من الإيثار والتضحية والحب والرحمة وإسداء الجميل والتعاون على البر والتقوى واحتمال مشاق الجهاد والبذل في سبيل الحق والخير وإقرار المثل العليا في أرض الله»[2].

ولقد شكل الإيمان بالله واليوم الآخر وبقضاء الله وقدره السبب الحقيقي لانتصار أسلافنا المسلمين على أعدائهم. . . ولم تكن تلك الفتوحات الإسلامية المذهلة معجزة من المعجزات ولا خارقة من خوارق العادات، وإنما كانت نوع من سنن الله الكونية التي جعلها في متناول الناس وفي طوقهم وقدرتهم. إنها نتيجة طبيعية لاستنجاد الأمة بربها ومن نجدة ربها لها أنه نتيجة لسلوك هذه الأمة التي آمنت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا وقائداً وزعيماً إنه نتيجة لذلك الإيمان الذي خالطت بشاشته القلوب «وبهذه العقيدة الصادقة انتصروا وتعلموا وصنعوا واخترعوا وأثروا التاريخ. ونقطة البدء في كل حضارة هي العقيدة، هي القيم الموجهة للجماهير، هي الأفكار التي توجد سلوك قيادتها»[3].

---

(1) رؤوف شلبي: «دروس من الاسراء والمعراج»، مجلة الأزهر، السنة التاسعة والاربعون الجزء الخامس، رجب ١٣٩٧ هـ - يوليو ١٩٧٧م، القاهرة، ص٨٨٧.

(2) عمر عودة الخطيب: المسألة الاجتماعية بين الاسلام والنظم البشرية ص٢٠٤.

(3) محمد جلال كشك: الطريق الى مجتمع عصري، ص١٤ - ٢٠.

ولهذه الأسباب وغيرها يصرّ الإمام الغزالي في رسالته التربوية على العقيدة ووجوب تعليمها فيقول «اعلم أن أول ما ذكرناه في ترجمة العقيد ينبغيْ أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال ينكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً. فابتداؤه الحفظ ثم الفهم ثم الاعتقادوالإيقان والتصديق به وذلك مما يحصل في الصبي بغير برهان»[1].

أما المبدأ الثاني للتربية الروحية فيقوم على الالتزام بآداب الإسلام وأداء فرائضه والتمسك بأحكامه لأن الإسلام نظام شامل لكافة مجالات الحياة. ولقد شرع الإسلام نظما وفرائض تعاون على تثبيت العقيدة وتركيزها في حال توفرت التربية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله لذلك على المتعلم أن «يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه. ويشتغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخاً بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها وبما يسطع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم... فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر وتكون هذه الأسباب كالسقي والتربية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة راسخة اصلها ثابت وفرعها في السماء»[2].

ـ التربية العقلية:

يشير الغزالي إلى أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته بحيث أنه يطلق على معان مختلفة مما تسبب باختلافهم «والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل إسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان»[3] والمعنى المتعلق بموضوع البحث هو الأول، ولقد عرّفه الغزالي على أنه «الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية. وهو الذي

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص١١٣.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص١٠١.

أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل: إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب، به يستعد لإدراك الأشياء. ولم ينصف من أنكر هذا»[1].

وللعقل شرف ومكانة في الإسلام «ولقد سماه الله نورا»[2] لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾[3] «وسمى العلم المستفاد منه روحا ووحيا»[4] لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[5] وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾[6]. «وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل»[7] لقوله تعالى ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[8].

والمتتبع نظرية المعرفة عند الغزالي يرى أنه لم يستقر على موقف ثابت من العقل فلقد «كان قصده من نظرية المعرفة الحد من قيمة العقل الذي كانت تعتد به تلك المذاهب ـ أي المذاهب الفلسفية المنافية للدين ـ في سبيل الحاقه بالشرع في بعض مجالات التفكير المعينة»[9].

وتوصل الغزالي بعد شكه إلى اليقين بعد أن منّ الله عليه بنوره وفي ذلك يقول «حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية. . . فاعضلّ هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال. لا بحكم النطق والمقال

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص٩٩.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٩٩.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٦) سورة الانعام، الآية: ١٢٢.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٩٩.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٩) تيسير شيخ الارض: «نظرية المعرفة عند الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، ص٥٩٥.

حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض. . . ورجعت الضرورات العقلية مقبولة، موثوقا بها، على أمن ويقين. ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل نور قذفه الله تعالى في الصدر. وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف. . . فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف، وذلك ينبجس من الجود الإلهي في بعض الأحايين»[١].

«وعلى هذا النحو يرينا الغزالي أن العقل بنفسه قليل الغناء ولا بد له من مدد من الله لكي يستعيد ثقته بنفسه. إنّ مبدأ عدم التناقض. وهو الركيزة الأولى في بنية العقل يمكن أن يشك فيه ما لم ينبجس نور من الجود الإلهي، ليدعمه من جديد»[٢].

والغزالي بذلك إنما يسعى إلى تحديد مجال النظر العقلي حتى يحول دون تيه الطاقة العقلية في الغيبيات التي لا سبيل للعقل البشري أن يحكم فيها. مستلهماً ذلك من القرآن الكريم الذي «يبدأ بتفريغ العقل من كل المقررات السابقة التي لم تقم على يقين وإنما قامت على مجرد التقليد أو الظن فينعي على المقلدين الذين يقولون ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٣] ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[٤] وينعي على الذين يتبعون الظن: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[٥] ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[٦]. ثم هو يأمر بالتثبت من كل أمر قبل الاعتقاد به واقتفائه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[٧] وهي مسؤولية

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٨٦، ٨٧.

(٢) تيسير شيخ الارض: «نظرية المعرفة عند الغزالي» ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده، ص٥٩٥.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٣.

(٦) سورة النجم، الآية: ٢٨.

(٧) سورة الاسراء، الآية:٣٦.

ضخمة، يبرز التعبير ضخامتها بإفراد السمع والبصر والفؤاد في مبدأ الأمر ليكون كل منها مسؤولاعلى حدة، ثم جمعها كلها بعد ذلك، وإشراكها كلها في المسؤولية، بهذا الجمع والتوكيد: «كل اولئك». وذلك كله ليحس الإنسان بعظم التبعة وهو يقدم على الأمر، فلا يأخذ الأمور باستخفاف، ولا يأخذها بلا تثبت وهو عنها مسؤول»[1].

ويستلهم الغزالي منهجه في التربية العقلية من القرآن الكريم عبر الدعوة الدائمة إلى إعمال العقل في النظر في ملكوت الله في السموات والأرض والإنسان. فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾[2]. ويقول: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[3].

فانسجاماً مع هذا النهج القرآني وضع الإمام الغزالي كتاب «الحكمة في مخلوقات الله عز وجل» ليكون أداة تربوية فاعلة تقوم على التفكر في خلق الله بهدف توجيه العقل البشري إلى ما يجب أن يتجه إليه من إيمان بالله خالق الكون بالحق. ويستهل الغزالي كتابه قائلاً «الحمد لله الذي جعل نعمته في رياض جنان المقربين وخص بهذه الفضيلة من عباده المتفكرين وجعل التفكر في مصنوعاته وسيلة لرسوخ اليقين في قلوب عباده المستبصرين، استدلوا عليه سبحانه بصنعته فعلموه وتحققوا أن لا إله إلا هو فوحدوه وشاهدوا عظمته وجلاله فنزهوه. فهو القيّم بالقسط في جميع الأحوال وهم الشهداء على ذلك بالنظر والاستدلال»[4].

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٧٧، ٧٨.

(٢) سورة عبس، الآيات: ٢٤-٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

(٤) الغزالي: الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٣.

فالغزالي على يقين من أن دراسة الحيوان والجماد والنبات ومعرفة أسرارها يؤدي حتما إلى معرفة الله تعالى ورسوخ اليقين لذلك فهو يعاود التأكيد على هذه الحقيقة في موقع آخر فيقول: «إنه لما كان الطريق إلى معرفة الله سبحانه والتعظيم له في مخلوقاته والتفكر في عجائب مصنوعاته، وفهم الحكمة في أنواع مبتدعاته. وكان ذلك هو السبب لرسوخ اليقين، وفيه تفاوت درجات المتقين، وضعت هذا الكتاب منبّها لعقول أرباب الألباب بتعريف وجوه من الحكم والنعم التي يشير إليها معظم آي الكتاب. فإن الله تعالى خلق العقول وكمل هداها بالوحي وأمر أربابها بالنظر في مخلوقاته والتفكر والاعتبار مما أودعه من العجائب في مصنوعاته»[1] بحيث يؤدي ذلك إلى غاية عملية في حياة الإنسان تبدأ بالتسبيح الذي يشكل مدخلاً إلى «الإيمان الكامل الذي يشمل الحياة كلها والأعمال والمشاعر والافكار»[2] يقول تعالى:

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝١٩٤ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ۝١٩٥﴾[3].

وتعكس الآيات السابقة وجهاً من وجوه التربية العقلية في الإسلام وذلك من خلال توجيه العقل لتدبر آيات الله في الكون حيث تبدأ هذه العملية «بالتفكر وتنتهي بالعمل... العمل بمقتضى الدستور «الحق» الذي نزل به القرآن...

---

(١) المرجع السابق، ص٤.

(٢) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٨٣.

(٣) سورة آل عمران، الآيات: ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥.

والجهاد في سبيل إقرار هذا الدستور وتسيير دفة الحياة على نهجه وشريعته. ثم تصل إلى الغاية القصوى. تصل إلى الجزاء في الآخرة، فتصل الأرض بالسماء، والدنيا بالآخرة. وتصل البشر بالله... وحين يقيس الإنسان هذا اللون من التوجيه للطاقة العقلية في تدبر حكمة الله وتدبيره، بالفلسفة قديمها وحديثها والمعاظلات الذهنية المنبثة في تضاعيفها، يدرك في الحال عظم الفرق وعظمة المنهج الإلهي في تربية العقل البشري. ويعلم أنه سبحانه خلق كل شيء بالحق. وجعله منهجاً لإقامة الحق في الحياة»[1] تصديقاً لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[3] «إلى غير ذلك من الآيات البينات والدلالات الواضحات التي يفهمها متدبرها، والمترقي في اختلاف معانيها يعظم المعرفة بالله سبحانه التي هي سبب السعادة والفوز بما وعد به عباده»[4].

وإذا كان عقل غير المسلمين من أوروبيين وسواهم قد شطح وهو يبحث آيات الكون المختلفة لدرجة وصلت لحد إنكار الله تعالى. نجد أن علماء المسلمين قد تجنبوا مثل هذا الشطح وهم يتأملون في عجائب خلق الله تعالى. فيوم كانت أوروبة تسبح في بحر من الظلمات كان الغزالي يفكر بعقله المستضيء بنور الإيمان بالله في جو من إشراقة الروح حيث التدبر في مخلوقات الله جزء من العقيدة الإسلامية التي تحث قوى الإنسان الواعية على القيام بمهامها بعيدا عن الشطح أو الجنوح. يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[5].

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٣) سورة الانبياء، الآية: ٣٠.

(٤) الغزالي: الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج١، ص٤.

(٥) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٠، ١٩١.

فالتفكر الذي يدعو إليه الإسلام تفكراً هادفاً يؤدي إلى معرفة خالق الكون. ولذلك فإن الإمام الغزالي يرى في القرآن الكريم المرجع الرئيس الدال على الحقيقة لأنه «ليس بعد بيان الله سبحانه بيان»[(١)] والتربية العقلية في نظره تقوم على ربط العلم بالعمل وهذا ما أكد عليه في أكثر من موقع سواء في «الاحياء» أو «ميزان العمل».

ـ التربية الجسمية:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾[(٢)] ويقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾[(٣)] فالتسوية في نظر الغزالي هي «عبارة عن فعل في المحل القابل للروح وهو الطين في حق آدم والنطفة في حق أولاده»[(٤)]. ويشير الغزالي إلى أن الله تعالى يخبر في الآية عن ثلاثة أمور هي الجسم والروح والنفس[(٥)]. فالذات الإنسانية تتشكل من الجسم والروح والنفس إلا أنها أعم وأشمل من أي منها فيما لو ذكرت منفردة.

يقول محمد قطب «حين نتحدث عن الجسم في مجال التربية فليس المقصود هو عضلاته وحواسه ووشائجه فحسب. وإنما نقصد كذلك الطاقة الحيوية المنبثقة من الجسم، والمتمثلة في مشاعر النفس. طاقة الدوافع الفطرية والنزوعات والإنفعالات... طاقة الحياة الحسية على أوسع نطاق»[(٦)].

ويؤكد الغزالي على كون الإنسان نظام. وعلى مكوناته أن تقوم بواجبها حتى يجنب نفسه مالا تحمد عقباه فيقول: «إعلم أن البدن كالمدينة والعقل ـ أعني المدرك ـ من الإنسان كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة

---

(١) الغزالي، الاحياء، ج١، ص١٢٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٩.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٢٩.
(٤) الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٢، ص٤٦.
(٥) انظر البحث نظرة الغزالي العقدية.
(٦) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ص١٠٤.

والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته. والنفس الأمارة بالسوء التي هي الشهوة والغضب كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في إهلاك رعيته، فصار بدنه كرباط وثغر ونفسه كمقيم فيه مرابط فإن هو جاهد عدوه وهزمه وقهره على ما يحب حمده أثره... وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره فانتقم منه عند الله تعالى فيقال له يوم القيامة: يا راعي السوء أكلت اللحم وشربت اللبن ولم تأو الضالة ولم تجبر الكسير، اليوم أنتقم منك»[1].

ويشكل الجسد «الأداة التي عن طريقها تترجم الذات الإنسانية الأعمال وتتبدى أهمية ذلك جيداً إذا عرفنا أن النشاط الإنساني في عمومه عبادة ما دامت لوجه الله تعالى»[2] لذا فإن القرآن الكريم يوصي بالعناية بالجسم والإهتمام به يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[3]. ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[4]. وعن عبدالله بن عمر أنه قال: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت بلى قال: فلا تفعل، قم ونم وصم وافطر فإن لجسمك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً وإنك عسى أن يطول بك عمر وإن من حسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام فإن بكل حسنة عشر أمثالها فذلك الدهر كله»[5].

«وليس يمكن العبد أن يصل إلى سبحانه ما لم يسكن البدن ولم يجاوز الدنيا... فالبدن مركبه الذي يصل به إلى هذا العالم فافتقر إلى تعهد البدن وحفظه، وإنما يحفظ البدن بأن يجلب إليه ما يوافقه من الغذاء وغيره، وأن يدفع عنه ما ينافيه من أسباب الهلاك»[6].

وفي هذا دعوة صريحة للغزالي للعناية بالتربية الجسدية انسجاما مع فطرة

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٨.
(٢) علي خليل ابو العينين: فلسفة التربية في القرآن الكريم، ص١٦٠.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٥) رواه البخاري في كتاب الادب حديث رقم ٨٦.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦،٧.

الإنسان في حدود طاقته وواقع حياته المادي. وتقوم هذه التربية على ضرورة احترام كل طاقة من طاقات الجسم لطالما تقوم بالمهمة التي فطرت عليها. يقول الغزالي: «إن كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خلق له حتى لا يصدر منه أصلا أو يصدر منه مع نوع من الاضطراب. فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش، ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار. وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لأجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه والإستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه»[1].

فالغزالي يسعى كي ينمي الجسم تنمية تسهم إسهاماً فاعلاً في بناء الشخصية الإسلامية المتميزة المتكاملة المتوازنة المقرة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[2] والمدركة «أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل... وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى»[3]. ومن خلال ذلك يستطيع الإنسان المسلم أن يرتقي بطاقاته كلها ويوفرها لأداء رسالته في هذه الحياة ويعمل دائماً على حفظها من الهبوط والإنطلاق في ملذات الحياة[4].

ويعتمد الغزالي في عملية رعاية الجسد على تعاليم الإسلام ولذا فإنه يستقي من هذه التعاليم منهجه في التربية الجسدية. ولقد كان الرسول الكريم القدوة في ذلك حيث يقول صلى الله عليه وسلم «إن لجسمك عليك حقا»[5]. فالحديث الشريف يؤكد على ضرورة مراعاة حقوق الجسم بحيث تعتبر الرعاية الصحيحة وممارسة الرياضة ومزاولة العمل وتوفير الغذاء من أبرز مجالاتها الحيوية.

---

(١) المرجع السابق، ص٦٨.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.

(٤) علي القاضي: «منهج التربية الاسلامية»، صحيفة التربية، العدد الثالث، السنة ٢٩ القاهرة يونيه ١٩٧٧م. ص٥٩.

(٥) رواه البخاري في كتاب الصوم حديث رقم ٥٥.

* مجال الرعاية الصحية:

تعتبر «النظافة إحدى العناصر المهمة في تكوين الحياة الصحية وازدهارها وجعلها بمأمن من التلوث بالأمراض السارية والأوبئة الفتاكة وقد تبناها الإسلام - بصورة إيجابية - ورتب عليها بعض أحكامه وواجباته، ومنح الله تعالى وسام حبه لمن يتصف بها»[(1)] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[(2)] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مفتاح الصلاة الطهور»[(3)]. وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[(4)].

ويرى الغزالي أن للطهارة أربع مراتب:

«المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصديقين. والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها»[(5)].

ويشير الغزالي إلى أن «الإشتغال بالطهارات يجدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف»[(6)].

وما يعنينا الآن هو المرتبة الأولى أي نظافة الظاهر وما لذلك من أثر على صحة البدن. ويقصر الغزالي هذه النظافة على ثلاثة أقسام:

«طهارة عن الخبث، وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن»[(7)].

---

(١) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الاسلام، ص٣٠٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) رواه الترمذي في باب الطهارة حديث رقم ٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦.

(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٥٠.

(٦) المرجع السابق، ص١٥٢.

(٧) المرجع السابق، ص١٥٣.

ويظهر الغزالي في كتاب أسرار الطهارة ـ وهو الكتاب الثالث من ربع العادات ـ مدى اهتمام الإسلام بالنظافة من خلال التشريعات الخاصة بالغسل والوضوء والإستنجاء ونظافة الثياب والحلق وتقليم الأظافر[1].

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[2] إشارة إلى فرض الإغتسال عقب الإتصال الجنسي لما لذلك من فوائد تتعلق بإعادة الحيوية والنشاط بعد انتهاء عملية الجماع وكذلك بعد أن تطهر المرأة من دم الحيض. فالغسل يعيد لها حيويتها ويخلصها من القذارة والأوساخ، التي قد تكون سببا لكثير من الأمراض فيما لو تركت على حالها.

كما وأن للوضوء الذي يتكرر خمس مرات يويما فوائد جمّة على صعيد تنشيط أعضاء الجسم المختلفة ووقاية الجلد من الإصابة بالأمراض الجلدية وكذلك إبعاد الجراثيم عن العين ومجاري الأنف. إضافة إلى وقاية الجوف من الجراثيم التي قد تدخل عن طريق الفم أو تلوث اليدين. فالوضوء من أهم الأنشطة الوقائية لجسم الإنسان حيث أنه يحول دون إصابته بكثير من الأمراض الخطيرة.

أما السّواك بعود شجر الأراك فهو مستحب عند كل صلاة وعند كل وضوء، ويقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[3] ولقد ثبت في وقتنا الحالي ما لهذا النبات من فائدة لما يحتويه من مواد عطرية وأملاح معدنية علاوة على ذلك فإن نظافة الأسنان تجنب الإنسان أمراض التسوس وغيرها من الأمراض الناجمة عن بقايا الطعام بين الأسنان. قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[4].

وفي الإستنجاء الذي شرعه الإسلام لنظافة مخرج البدن أو الغائط غسلا

---

(١) المرجع السابق، كتاب اسرار الطهارة ص١٥٠ وما بعدها.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦.

(٣) رواه ابن ماجه في كتاب الطهارة حديث رقم ٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ٨.

بالماء أو مسحا بما يقلع النجاسة بالغ الأثر في نظافة الجسم والوقاية من الأوساخ والجراثيم التي يحملها كل من البول والغائط.

وطهارة الثوب التي تعتبر شرطاً من شروط صحة الصلاة لها بالغ الأثر على الصحة، إضافة إلى أنها توفر الوقاية من بعض الأمراض.

ويتحدث الغزالي بإسهاب وتفصيل في موضوع النظافة وأثر ذلك على الصحة والفرائض المترتبة على الإنسان في كتاب «أسرار الطهارة» وهو الكتاب الثالث من ربع العبادات[1]. ففي الطهارة وقاية للجسم من كثير من الأمراض التي قد يتسببها الإهمال في النظافة إبتداء من الرأس وإنتهاء بأخمص القدمين. وبرنامج الغزالي في النظافة قائم على الطهارة الشرعية وفي ذلك دلالة كبيرة على مدى اهتمامه بالتربية الصحية والجسمية ولقد جهد في إظهار ذلك من خلال ما جاء في كتاب «أسرار الطهارة».

*** ممارسة الرياضة:**

اعتنى الإسلام بالتربية الرياضية لما لها من فوائد على صعيد التربية الجسمية. ومن أنواع الرياضة التي شرعها الإسلام السبق والرماية والصيد. وفي كل ذلك تنشيط للعضلات وتقوية للجسم وتنمية للإرادة والإعتماد على النفس.

وضمن هذا الإطار، وتطلعاً لتوفير مستوى لائق من الصحة النفسية للطفل يرى الغزالي ضرورة إفساح المجال له باللعب فيقول: «وينبغي أن يؤذن له بعد الإنصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا»[2].

وتستلزم هذه التربية الجسدية القائمة على القوة والإعداد لمواجهة مصاعب

---

(١) الغزالي: الاحياء ج١، ص١٤٩.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.

الحياة «أن ينشأ الشباب على الرجولة والخشونة لا على الميوعة والدعة»[1] يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إياكم والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين»[2].

. وفي رياضة الصبي وتأديبه يقول الغزالي: «وينبغي أن يمنع من النوم نهاراً فإنه يورث الكسل، ولا يمنع منه ليلاً ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر على التنعم بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم... ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل... وبالجملة يقبح إلى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما»[3].

«وليس معنى هذا تحريم الزينة على المسلم فقد أباح الإسلام... الزينة التي لا تجعله متسبها بالكفار أو التي تستعبده وتسترقه وقد حرم الإسلام أموراً واضحة كلبس الذهب والحرير للرجال وإطالة اللباس خيلاء أو التشبه بأبناء الكافرين، ولبس الرجال ملابس النساء والعكس. أما الثياب الجيدة الممتازة ففي لبسها إظهار لنعمة الله على العبد»[4].

في هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[5].

*** توفير الغذاء:**

إن التغذية في الإسلام تقوم على نظام يعتمد الاعتدال في الطعام بعيداً عن الإسراف يقول الله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[6]. فالآية الكريمة توصي بعدم

---

(١) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص١٩٧.
(٢) رواه احمد في المسند ج٥، ص٢٤٣، ٢٤٤.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.
(٤) عباس محجوب: اصول الفكر التربوي في الاسلام، ص١٩٨.
(٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن، رياض الصالحين، ص٢٧٥.
(٦) سورة الاعراف، الآية: ٣١.

الإفراط في الأكل منعاً لإلحاق الأذى بالجسم كما وأنها تضع قاعدة صحية للمسلمين كي يتبعوها تقوم على ضرورة الإعتدال بالأكل. ولا يخفى على أحد ما للإسراف في الأكل من مضاعفات خطيرة قد تؤدي بصاحبها إلى الهلاك.

ويرى الغزالي أن «أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن»[١]. ويورد في سياق حديثه عن فوائد الجوع وآفات الشبع عدداً من الفوائد يمكن الرجوع إليها في كتاب «كسر الشهوتين»[٢]. بناء على ذلك فإن الغزالي يحث على تأديب الصبي للتخلص من آفة الشره: «وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه.. وأن لا يسرع في الأكل وأن يجيد المضغ»[٣] فإلى جانب آفة الشره يسعى الغزالي لتجنيب الطفل مخاطر عدم مضغ الطعام لما يترتب على ذلك من أمراض قد تصيب الجهاز الهضمي، مما يلحق الضرر بصحة أطفال المسلمين ويعيقهم عن القيام بالرسالة التي خلقوا لأجلها.

*** مزاولة العمل:**

يقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[٤] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وأن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٥].

ومعلوم أنه ما لم يتمتع الجسم بمستوى لائق من الصحة لن يكون بمقدور الإنسان المسلم أن يقوم بواجباته تجاه ربه وبيته ومجتمعه. فالعمل ضرورة حتمية لاستمرار الحياة. وتختلف وجهة نظر الإسلام في العمل عن وجهة نظر غيره من الأديان حيث أن «العمل في النظرية الدينية المسيحية تكفير عن الخطيئة أما في

---

(١) الغزالي: الاحياء ج٣، ص٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٩١.

(٣) المرجع السابق، ص٧٨.

(٤) سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

(٥) رواه البخاري في كتاب البيع حديث رقم ١٥.

الدين الإسلامي فالعمل لا يقصد به عقاب، إنما هو تعمير للدنيا فالإنسان خليفة الله في الأرض وبالعمل تعمر الأرض ويسعد الإنسان»[1].

- وانسجاماً مع نظرة الإسلام للعمل وأهميته في الحياة يحث الغزالي تلميذه على العمل ويخاطبه قائلاً: «أيها الولد: لا تكن من الأعمال مفلساً ولا من الأحوال خالياً، وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد. مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية، مع أسلحة أخرى وكان الرجل شجاعا وأهل حرب، فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك: هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها، ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل»[2].

وإذا كان الجسم ضعيفاً عليلاً لن يكون بمقدور الفرد المسلم أن يقوم بواجباته والتزاماته تجاه دينه ودنياه، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه من حق الجسد على صاحبه «الاعتدال في العمل فلا أجهاد ولا بطالة»[3]. «وعلى التربية دور هام في إتاحة الفرصة للإنسان أن يتعرف على قدراته الخاصة وعلى طبيعة مجتمعه وعليها دور توجيه وإذكاء وتكريس الجهود للأعمال التي تناسب قدرات الإنسان»[4] استجابة لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾[5]. وفي مطلق الأحوال لا بد من توفر الصحة الجسمية حتى يقوم الإنسان بواجباته. فلو أنك «قرأت العلم مائة سنة، وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل»[6] لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[7].

---

(١) صلاح عبد الجواد: اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، ج١، ص٦٩.

(٢) الغزالي: ايها الولد، ص٩٧،٩٨.

(٣) محمد علم الدين: التربية الاسلامية، ص١٦.

(٤) عد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الاسلامية في الحديث الشريف، ص٢٦٨.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) الغزالي: ايها الولد ص٩٩.

(٧) سورة النجم، الآية: ٣٩.

ـ التربية النفسية:

اتهم الغزالي بتقليده الفلاسفة اليونانيين ومن تبعهم من علماء المسلمين في النظرة إلى النفس. والحقيقة أنه لم يكن مقلداً قط، وإنما حاول الاستفادة من آراء من سبقوه بما يتفق وعقيدته ويدعم آرائه. لذلك ليس غريباً أن يتقاطع مع الفلاسفة اليونان في عدد من النقاط كالتقائه مع أفلاطون في موضوع خلود النفس وصلتها بالجسم، وموافقته لأرسطو في وحدة النفس على الرغم من معارضة أفلاطون لذلك.

ولقد سبق الحديث عن ألفاظ النفس والعقل والروح[1] ورأينا كيف أنه يستعمل هذه الألفاظ أحياناً وكأنها مترادفات وأحياناً أخرى يميز بين لفظ وآخر.

فهو يرى أن النفس «إذا سكنت تحت الأمر وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة... وإذا لم يتم سكونها صارت مدافعة للنفس الشهوانية سميت النفس اللوامة، فإذا تركت الاعتراض وأذعنت لمقتضى الشهوات ودواعي الشيطان سميت النفس الأمارة في السوء»[2].

وليعمر الإنسان الأرض وتتحقق له الخلافة ويتمكن من إقامة موازين العدل لا بد وأن يكبح جماح شهواته كي لا تستعبده وتجرفه إلى حيث لا يملك لنفسه نفعاً ويحيق به غضب الله.

ويدعو الإسلام لضبط النفس وتهذيبها بعيداً عن كبتها وقمعها لأنها طاقة يحتاج إليها الإنسان. لذا يخطيء من يعتقد «إن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات! فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك»[3]. «وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال

---

(١) انظر البحث نظرة الغزالي العقدية.

(٢) الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٢، ص٤١.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٢.

الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»[1] وإلا لما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[2] ولقال: «والفاقدين الغيظ»[3] فكظم الغيظ الذي دعا إليه الله تعالى رد للغضب والشهوة «إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه»[4]. ويشير الغزالي إلى أن الرياضة تؤدي إلى الوسط وتعود بالشهوة «إلى حد الاعتدال»[5] وهو المطلوب لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[6]. «وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود»[7]. لقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[8].

«وذلك هو منهج الإسلام في تربية النفس إنه لا يكبت رغائبها فيقتل حيويتها ويبدد طاقتها ويشتت كيانها فلا تعمل ولا تنتج ولا تصلح لعمارة الأرض وترقية الحياة. وفي الوقت ذاته لا يطلق رغائبها بلا ضوابط... ووسيلته إلى ذلك... هي الضبط. إنه يعمل على تربية القوة الضابطة وتنميتها منذ نعومة الأظافر»[9].

ومن الضوابط التي تسهم في تعويد النفس على القيام بالأعمال في أوقاتها ومواعيدها العبادات كالصوم والصلاة ولذلك لا يتساهل الغزالي في أي منها في حال بلغ الصبي سن التمييز[10].

ويعتبر الغزالي أن «رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها»[11]. ويرى أن

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٦٢.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.
(٧) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٦٢.
(٨) سورة الاعراف، الآية: ٣١.
(٩) محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، ج١، ص١١٩.
(١٠) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٧٩.
(١١) المرجع السابق، ص٧٨.

معرفة طبيعة النفس البشرية والقوى الغريزية التابعة لها يساعد على تحديد نوع الرياضة المناسبة في علاج الآفات المختلفة للنفس وذلك لأن «الجبلاتَ مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول»[1] إضافة إلى أن منها ما هو أقدم وجوداً من الآخر «فإن قوة الشهوة والغضب والتكبّر موجودة في الإنسان ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة فإنها أقدم وجودا»[2]. لذلك فإن «طريق المجاهدَة والرياضة لكل لأنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله»[3].

ويعتبر الحفز من المرتكزات الهامة للتربية النفسية عند الغزالي ففي حال «ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس»[4].

أما بخصوص التوجيه فيجب أن يتم في جو مريح وبشكل متدرج بعيد عن القسوة في المعاملة فإن أساء «الصبي في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشف»[5] وإذا «عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا... ولا تكثر القول عليه بالعتاب»[6]. فالغزالي في معالجته لهذه المسأله يبرهن عن خبرة واسعة ودراية عميقة في مجال علم النفس التربوي الذي يعتبر رائداً من رواده.

ولم يغفل الغزالي عن مراعاة الفروق الفردية في مجال التربية النفسية عند المتعلمين إذ يرى «إن كل مبرد لا يصلح لعلة سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص... فكذلك النقائض التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار. وكما أن معيار الدواء مأخوذ من عيار العلة حتى أن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف

---

(١) المرجع السابق، ص٦١.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص٧٤.
(٤) المرجع السابق، ص٧٨.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

أن العلة من حرارة أو برودة. فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها أهي ضعيفة أم قوية؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم عالج»[1].

ويستوحي الغزالي موقفه هذا من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[2] وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «حدثوا الناس بما يعرفون اتحبون أن يكذب الله ورسوله»[3].

فمن خلال ما سبق وما سيليه يمكننا القول بأن الغزالي «قد تمكن. . . من دراسة الظاهرة النفسية وتحليلها واستقراء أعمالها وجوارحها وبذلك غلبت عليه الدراسة التجريبية أكثر من الدراسة النظرية العقلية ولقد وضح ذلك في طرقه التي استخدمها في الكشف عن مقومات الظاهرة النفسية والتي يمكن إجمالها على النحو التالي:

أ ـ طريقة التأمل الباطني.

ب ـ طريقة الملاحظة.

ج ـ «طريقة التحليل النفسي»[4].

وينبه الغزالي إلى أن «من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها مقهوراً مغلولا زمامه في يدها تجره حيث شاءت فتمنع قلبه من الفوائد»[5].

وبما أن النفس إحدى قوى الإنسان فإن التربية الإسلامية تتعامل معها على هذا الأساس حتى تمكن الإنسان من أن يكون عبداً صالحاً، لأن العبودية هي

---

(١) المرجع السابق، ص٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.

(٤) لطفي بركات أحمد: في مجالات الفكر التربوي، ص٤٣، ٤٤.

(٥) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٧١، ٧٢.

جوهر الإنسانية، وهذا ما يؤمن به الغزالي إيماناً واجباً حيث يرى «أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى ومخالفة الشهوات[1] ويعمل على تحقيق ذلك بهدي الكتاب والسنة من خلال إنشاء قوة داخلية تساعد على ضبط كافة النزعات والشهوات وتنمية الصفات الفاضلة والنزعات الشريفة لتكون عاملاً مساعداً في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة والمتماسكة والمتوازنة التي تعبد الله كأنها تراه.

ويقرب الغزالي القضايا النفسية إلى إفهام الناس عن طريق الانتقال بهم وبها من اللامحسوس إلى المحسوس. وهو في ذلك إنما يسعى للحصول على أعلى درجة من التأثير على نفوسهم وعقولهم كي يتمكن من إقناعهم بفكرته التي تهدف للتغلب على نزعات النفس الشريرة عن طريق إقامة بناء من الفضيلة المستمدة من نور الإسلام. فالإنسان في نظره «من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع من العداوة والبغضاء والتهجم على الناس بالضرب والشتم. ومن حيث سلطت عليه الشهوة يتعاطى أفعال البهائم من الشره والحرص والشبق وغيره. ومن حيث أنه في نفسه أمر رباني كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾[2] فإنه يدعي لنفسه الربوبية ويحب الإستيلاء والإستعلاء والتخصص والإستبداد بالأمور كلها والتفرد بالرئاسة»[3]. إضافة إلى أنه «يشتهي الإطلاع على العلوم كلها بل يدعي لنفسه العلم والمعرفة والإحاطة بحقائق الأمور... ومن حيث يختص عن البهائم بالتمييز مع مشاركته لها في الغضب والشهوة حصلت فيه شيطانية فصار شريراً يستعمل التمييز في استنباط وجوه الشر ويتوصل إلى الأغراض بالمكر والحيلة والخداع ويظهر الشر في معرض الخير وهذه أخلاق الشياطين»[4] ويتوصل الغزالي إلى القول بأن «المجموع في إهاب الإنسان خنزير وكلب

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٧١، ٧٢.

(٢) سورة الاسراء، الآية: ٨٥.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص١٢.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وشيطان وحكيم»[1] في إشارة واضحة إلى أن الخنزير هو الشهوة والكلب هو الغضب، والشيطان هو المهيج لشهوة الخنزير وغيظ الكلب والحكيم الذي هو مثال العقل يعمل على دفع كيد الشيطان والكشف عن تلبيسه.

ويكشف الغزالي عن النتائج الخطيرة المترتبة على انقياد العقل لأهواء الشيطان وأثر ذلك على نفس الإنسان فيقول: «أما طاعة خنزير الشهوة فتصدر منها صفة الوقاحة والخبث والتبذير والتقتير والرياء والهتكة والمجانة والعبث والحرص والجشع والملق والحسد والحقد والشماتة وغيرها. وأما طاعة كلب الغضب فتنتشر منها إلى القلب صفة التهور والبذالة والبذخ والصلف والاستشاطة والتكبر والعجب والاستهزاء والاستخفاف وتحقير الخلق وإرادة الشر وشهوة الظلم وغيرها»[2]. ويعتبر الغزالي أن طاعة الشيطان تكون «بطاعة الشهوة والغضب»[3] حيث يحصل من جراء ذلك «صفة المكر والخداع والحيلة والدهاء والجرأة والتلبيس والتضريب والغش والخبث والخنا وأمثالها»[4].

وفي حال رجحت كفة الاعتدال نتيجة عملية الضبط وتهذيب النفس وتم «قهر الجميع تحت سياسة الصفة الربانية: لاستقر في القلب من الصفات الربانية العلم والحكمة واليقين والإحاطة بحقائق الأشياء ومعرفة الأمور على ما هي عليه، والإستيلاء على الكل بقوة العلم والبصيرة واستحقاق التقدم على الخلق لكمال العلم وجلاله ولاستغنى عن عبادة الشهوة والغضب ولانتشر إليه من ضبط خنزير الشهوة ورده إلى حد الاعتدال صفات شريفة مثل العفة والقناعة والهدوء والزهد والورع والتقوى والانبساط وحسن الهيئة والحياء والظرف والمساعدة وأمثالها»[5] كما ويترتب على «ضبط قوة الغضب وقهرها وردها إلى حد الواجب صفة الشجاعة والكرم والنجدة، وضبط النفس والصبر والحلم الاحتمال والعفو والثبات

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص١٣.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والنبل والشهامة والوقار وغيرها»[١].

ويثبت الغزالي من خلال الأفكار التي طرحها أهمية التربية النفسية في بناء شخصية الإنسان المسلم على أساس أنه وحدة مترابطة لا سبيل لحل أجزائها. وهو بذلك إنما يعكس وجهة نظر الإسلام في الإنسان.

وخلاصة القول إن التربية النفسية عند الإمام الغزالي تقوم على قاعدة تفسير مظاهر سلوك الإنسان بأربعة دوافع أساسية هي: شهوة الطعام والجنس، والمال والجاه وأساس هذه الدوافع كلها غريزة الطعام التي يسميها الغزالي شهوة البطن وفيها يقول: «والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات، ومنبت الأدواء والآفات، إذ يتبعها شهوة المرأة وشدة الشبق، ثم تتبع شهوة الطعام والمرأة شدة الرغبة في الجاه والمال اللذين هما وسيلة إلى التوسع في الشهوة الجنسية والمطعومات. ثم يستتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ثم يتولد بينهما آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحقد والحسد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء. وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد عنها من بطر الشبع والامتلاء. ولو ذلل العبد نفسه بالجوع، وضيق به مجاري الشيطان، لأذعنت لطاعة الله عز وجل...»[٢].

ـ التربية الأخلاقية:

لقد اهتم الإسلام بالأخلاق واعتبرها أساساً ومنطلقاً للدعوة وما قوله تعالى بحق الرسول الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾[٣] إلا تأكيد على هذا الاهتمام. وللرسول صلى الله عليه وسلم العديد من الأحاديث التي تؤكد على حسن الخلق في الوقت الذي شكلت فيه سيرة الرسول الكريم قدوة لكافة المسلمين حيث كان «خلقه القرآن».

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع السابق، ص٨٧.

(٣) سورة القلم، الآية: ٤.

فالإسلام دعوة تقوم على مكارم الأخلاق. ولقد أولى الإسلام التربية الخلقية بالغ الأهمية على صعيد كل من الفرد والمجتمع. ويشير الإمام الغزالي في كتابه (جواهر القرآن) إلى أن ما يقرب من ربع آيات القرآن الكريم تتعلق بالأخلاق ليس غير. ولقد قام الإمام الغزالي بتصنيف هذه الآيات على قاعدة الأخلاق النظرية والعملية بحيث اشتمل القسم الأول على ٧٦٣ آية بينما اشتمل القسم الثاني على ٧٤١ آية قرآنية وبذلك يصبح مجموع آيات كلا القسمين ١٥٠٤ آية تمثل في مجموعها ربع آيات القرآن الكريم.

ويرى علماء التربية المسلمين بأن «الفضيلة هي الصفة الجامعة للخصائص التي يجب أن يتميز بها الإنسان في الفكر والسلوك معا»[١] مما يجعل الأخلاق جوهر العملية التربوية. وهذا ما يقر به علماء التربية من غير المسلمين من أمثال جون لوك، وجون ديوي الذي يقول «إن عملية التربية والعملية الأخلاقية شيء واحد ما دامت الثانية لا تخرج عن أنها انتقال الخبرة باستمرار من أمر سيىء إلى أحسن منه وأفضل»[٢] ويشير ديوي في موقع آخر إلى «أن النمو الأخلاقي هو الغاية القصوى من العمل المدرسي كله»[٣].

فالخلقية الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم الذي غطت مبادؤه الأخلاقية كافة الأنشطة المتعلقة بحياة الإنسان على كافة الصعد الدينية والفردية والأسرية والاجتماعية والدولية. ولقد حدد القرآن مسؤولية الفرد في الالتزام بهذه الأخلاق وهو ما يبدو واضحاً من خلال ما جاء في كتاب (الاحياء).

ومجال الأخلاق في الإسلام هو «مجال الحياة كلها لأن الأخلاق إذا كانت نمطاً للعمل والسلوك في الحياة فإن عمل الإنسان لمساعدة الآخرين أخلاق، وعمله لكسب قوته وقوت من يعوله أخلاق»[٤] لذلك فإن الأخلاق في الإسلام

---

(١) هشام نشابه: التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، ص٥.

(٢) جون ديوي: تجديد في الفلسفة، ص٢٩٩.

(٣) جون ديوي: المبادئ الأخلاقية في التربية، ص٥٤.

(٤) مقداد يالجن: منهاج الدعوة الى الإسلام في العصر الحديث، ص٣٧.

تهدف إلى «الرضا الإلهي والقياس الخلقي الذي توزن به جميع الأعمال، إنما هو مقدار ما يحصل بها من هذا الهدف المقدس»[1] وذلك لأن حسن الخلق هو أساس الإسلام. قال ابن عباس «ولكل بنيان أساس وأساس الإسلام حسن الخلق»[2]. وقيل أيضاً «ما ارتفع من ارتفع إلا بالخلق الحسن ولم ينل أحد كماله إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم فأقرب الخلق إلى الله عز وجل السالكون آثاره بحسن الخلق»[3].

«والعبادات التي شرعت في الإسلام واعتبرت أركاناً في الإيمان به ليست طقوسا مبهمة من النوع الذي يربط الإنسان بالغيوب المجهولة... فالفرائض... تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»[4] «فالإبتعاد عن الرذائل والتطهير من سوء القول وسوء العمل هو حقيقة الصلاة»[5] لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[6]. كما وأن «تنظيف النفس من أدران النقص والتسامي في المجتمع إلى مستوى أنبل هو الحكمة الأولى»[7] من الزكاة لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[8] وكذلك لم ينظر الإسلام للصوم على أنه مجرد امتناع عن الطعام والشراب، وتأكيدا لهذا المعنى يقول صلى الله عليه وسلم «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس له حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»[9].

يتضح مما سبق أن العبادات وإن كانت متباينة في مظهرها إلا أنها تلتقي في

(١) باقر الصدر: فلسفتنا، ص٤٥.
(٢) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٥٧.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص٧.
(٥) المرجع السابق، ص٨.
(٦) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٧) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص٨.
(٨) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
(٩) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٣٠.

جوهرها عند الهدف الذي حدده الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[١].

والغزالي إنما يستجيب لتعليمات الإسلام وتوجيهات القرآن الكريم عندما «جعل الأخلاق رسالته العليا وربط الأخلاق بالدين رباطاً لا انفصام له، بل جعل الأخلاق هي روح الدين والغاية منه وأضفى على العبادات، أصولها وفروعها ألواناً خلقية تحببها إلى النفوس وتعطرها في القلوب وتملأ الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً.

فللصلاة آدابها التي هي الروح والهدف، وللصيام برنامجه الخلقي الذي لا يستقيم بدونه وللنفس والقلب ولكل جارحة من الجوارح وخاطرة من الخواطر صفة خلقية، ودعوة إلى تطهير وتزكية، حتى همسات القلب وسوانح الفكر يقيدها الغزالي وينظمها ويضع لها دستور الكمال.

وتساير أخلاقيات الغزالي الإنسان في مأكله ومشربه ومنامه وحله وترحاله وتلازمه في تصرفاته مع الأصدقاء والأهل والزوج والولد والمجتمع.

فالأخلاق عند الغزالي شريعة كاملة للحياة بأسرها، شريعة لها مثلها العليا وأهدافها السامية المرتفعة إلى السماء، ثم هي أيضاً تعيش معنا على الأرض متصلة اتصالاً وثيقاً بكل حركة من حركات الروح والقلب والعقل والبدن»[٢].

ولا يقتصر حسن الخلق عند الغزالي على مجرد الفعل وذلك لأن الصورة الظاهرة (الخَلق) قد لا تعبّر عن الصورة الباطنة (الخُلق) «فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء»[٣].

لذا فإن الغزالي يقرر بأن الخُلق هو «الصورة الباطنة»[٤] أي أنه «عبارة عن

---

(١) حديث صحيح رواه احمد والبيهقي والحاكم.

(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٨٤، ٨٥.

(٣) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٨٥.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

هيئة النفس وصورتها الباطنة»[١].

وفي معرض رده على الذين اشتغلوا بالمجاهدة والرياضة والإنشغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق بحجة أن الأخلاق لا يمكن تغييرها يقول الغزالي «لولا كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحسن خلقك للناس»[٢] وكيف ينكر في حق الآدمي وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي عن الاستيحاش إلى الأنس والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية والفرس من الجماح إلى السلاسة والإنقياد وكل ذلك تغيير للأخلاق»[٣].

من هنا تبرز أهمية التربية الخلقية في نظر الغزالي لما لها من تأثير في بناء شخصية الفرد المسلم. وهي عنده تقوم على أسس من أهمها:

أ ـ مراعاة الفروق الفردية «لأن الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحتمله بنيته من الرياضة ويبني على ذلك رياضته»[٤].

ب ـ التدرج في عملية التهذيب لإنه كما يقول الغزالي «لو كان المريد لا يسخو بترك الرعونة رأسا أو بترك صفة أخرى ولم يسمح بضدها دفعة فينبغي أن ينقله من الخلق المذموم إلى خلق مذموم آخر أخف منه كالذي يغسل الدم بالبول ثم يغسل البول بالماء إذا كان الماء لا يزيل الدم»[٥].

ج ـ الوفاء بالعزم لأنه يعتبر أن «الأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم فإذا عزم على ترك شهوة... فينبغي أن يصبر ويستمر، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت»[٦].

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق حديث رقم ١.
(٣) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٦٠، ٦١.
(٤) المرجع السابق، ص٦٦.
(٥) المرجع السابق، ص٦٧.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ومعيار حسن الخلق في نظر الغزالي هو الإيمان وأما سوء الخلق فمعياره النفاق. ويعتمد في تحديد هذين المعيارين على ما جاء في القرآن الكريم من آيات تشير إلى ذلك[1]. ومن علامات حسن الخلق حسب الغزالي أن يكون المسلم «كثير الحياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان قليل الكلام كثير العمل، قليل الزلل قليل الفضول براً وصولاً وقدوراً صبوراً شكوراً رضياً حليماً رفيقاً عفيفاً شفيقاً في الله يرضى في الله ويغضب في الله فهذا هو حسن الخلق»[2].

وبهذا التوجه يكون الغزالي قد أوضح الأسس التي يجب أن تقوم عليها التربية الخلقية في عملية بناء الشخصية الإسلامية المتميزة التي لابد وأن يزيل صاحبها«جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يبغضها فيجتنبها كما يجتنب المستقذرات وأن يتعود العادات الحسنة يشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها»[3]. وفي مثل هذا يقول صلى الله عليه وسلم «جعلت قرة عيني في الصلاة»[4].

وحاصل القول إن حسن الخلق لا يتأتى إلا من خلال أحد طريقين:

الأول مرده إلى «جود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الأنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق... كعيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»[5]

أما السبيل الثاني لحسن الخلق إنما يتأتى عن طريق «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»[6].

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤، ٧٥.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص٥٠.
(٤) رواه النسائي في كتاب النساء، حديث رقم ١.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٣.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والتربية الخلقية عند الغزالي تنبع من نظرة الغزالي «إلى الحياة الدنيا باعتبارها وسيلة لا غاية وعبادة لله لا للدرهم والدينار والتغالب والتفاخر والتنابذ بالألقاب»[1] فلقد «كتب الغزالي أخلاقياته للمجتمع على أسس دينية وطاعات روحية وقلبية»[2] ذلك لأن الأخلاق في الإسلام إنما تستمد سماتها المميزة من صفات الله تعالى انطلاقاً من «الاعتقاد بأن الله مصدر كل شيء»[3] ومعلوم «أن الأسلام يقرن المثل الأعلى في كل فضيلة بالصفات الإلهية ـ «ولله المثل الأعلى» ـ وكل صفة من صفات الله الحسنى محفوظة في القرآن الكريم يترسمها المسلم ليبلغ فيها غاية المستطاع في طاقة المخلوق»[4].

فمن الطبيعي إذن أن يرى الغزالي في حسن الخلق «درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصديقون»[5]. ولبلوغ هذه الرتبة كان لا بد من «التربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم»[6] والغزالي بذلك يجمع بين اتجاهين متمايزين في النظرة إلى الأخلاق. الأول هو الاتجاه الروحي الخاص بالمتصوفين، أما الثاني فهو الاتجاه العقلي الذي يتزعمه المعتزلة ومن سبقوهم ممن ساروا على خطى أرسطو وأصحابه وبهذا يكون الغزالي قد أوجد اتجاهاً روحياً وعقلياً يجمع بين الاتجاهين.

ـ التربية الاجتماعية:

إن اهتمام المجتمعات الإنسانية بالتربية يرجع للخدمات الجلى التي توفرها التربية لهذه المجتمعات لجهة مساعدتها على الإستمرار والتطور والبقاء.

ومعلوم أن لكل مجتمع قيمه وتقاليده وعاداته التي يصر على تعلمها من جيل لآخر. وتشكل التربية الوسيلة الرئيسة لنقل هذا التراث إلى الأجيال الصاعدة

---

(١) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٨٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) أحمد أمين: كتاب الاخلاق، ص١٣٦.
(٤) عباس محمود العقاد: حقائق الاسلام واباطيل خصومه، ص٢٦٦.
(٥) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٧٧.
(٦) المرجع السابق ص٦٦.

من خلال اعداد وتشكيل النشىء وفقاً للثقافة والسمات المميزة لهذا المجتمع.

ولقد «عرف اميل دوركايم E.Durkheim التربية بأنها التأثير الذي تمارسه الأجيال الأكبر سناً على تلك الأجيال التي ليست مؤهلة بعد للحياة الاجتماعية. وهي تستهدف تنمية القدرات الجسمية والعقلية الأخلاقية للطفل حتى يستطيع التكيف مع المجتمع الذي يعيش فيه»[1].

وعلاوة على ذلك فإن توجه أفراد المجتمع نحو القيام بالأعمال التي تتطلبها التغيرات والتطورات التي تلحق بالمجتمع بحيث تكسب النشىء أنماطاً من السلوك تساعده على التكيف مع الأشياء التي دخلت مجتمعه ولا يقتصر عمل التربية على ذلك لأنها لا تكتفي بأن تكون تابعة للتغيرات الاجتماعية بل تلعب دوراً بارزاً في قيادة التطور الاجتماعي «والسعي لخلق حياة اجتماعية أفضل وذلك بتوجيه الأفراد نحو الأهداف والمثل التي يحققونها في مجتمعهم وإغنائهم بما يساعدهم على تحسين الأوضاع الاجتماعية»[2].

وليس بمقدور التربية «أن تقوم بوظيفتها دون هذا التفاعل بين الذات الإنسانية والظروف الاجتماعية»[3] مما يؤكد حقيقة كون «التربية عملية اجتماعية بمعنى أنها تشتق أهدافها من أهداف المجتمع، وتتأثر في تفصيلاتها بثقافة المجتمع، وبضغوط الحياة عليه، ومن ثم تختلف التربية من مجتمع إلى مجتمع، أو يجب أن تختلف. وفلسفة التربية في أي مجتمع لا يمكن فهمها بمعزل عن فلسفة المجتمع. والفلسفة سواء كانت فلسفة تربية أو فلسفة مجتمع إنما هي نظام فكري نشأ في بيئة اجتماعية معينة وتفاعل مع مشكلات هذه البيئة ثم حاول أن يرتفع فوق هذه المشكلات فكراً وتنظيماً محاولاً أن يوجد الحلول لهذه المشكلات»[4].

---

(١) السيد محمد الحسيني: «المعنى الإجتماعي للتربية» مجلة التربية القطرية، السنة السابعة، العدد ٢٨، رمضان ١٣٩٨ هـ - اغسطس ١٩٧٨م، ص٣٨.

(٢) جوزيف عبود كبه ورفاقه: اسس التربية وعلم النفس، ص١٩.

(٣) محمد لبيب النجيحي: الاسس الاجتماعية للتربية، ص ٥٢.

(٤) عبد الغني عبود: «فلسفة التربية الاسلامية» مجلة التربية القطرية، السنة الثامنة، العدد ٣٥ ذو القعدة ١٣٩٩ هـ - اكتوبر ١٩٧٩م، ص٧٥.

إذاً فالتربية تكتسب السمة الاجتماعية لأنها «لا يمكن أن تتم في فِراغ ولا يمكن أن تعيش بمعزل عن مشكلات واحتياجات وتطلعات الأفراد والمجتمعات وإنها قوة اجتماعية هائلة قادرة دائماً على إحداث تغيرات بعيدة المدى في البناء الحضاري للمجتمع هذا فضلاً عن كونها قوة اقتصادية كبرى باعتبارها استثماراً لأعلى ما لدى الأمم من موارد ألا وهي ثروتها البشرية»[1].

وعلى الرغم من القناعة السائدة بأن التربية «نظام اجتماعي ينبع من فلسفة كل أمة، وهو الذي يطبق هذه الفلسفة أو يبرزها إلى الوجود»[2] إلا أن هناك اختلافاً بين المربين تمحور حول «أمر التربية من حيث علاقتها بالمجتمع ومهمتها بإزائه. فقال فريق منهم: إن وظيفة التربية ليست سوى العمل على استقرار المجتمع وثبوت أوضاعه الراهنة والسعي لنقل تراثه الثقافي من جيل إلى جيل دون زيادة أو نقصان. وقال فريق آخر: ما هذه وظيفة التربية وإنما هي العمل على إصلاح المجتمع وتحسين أوضاعه الراهنة فلا ينبغي لها، والحالة هذه أن تقدم على نقل التراث الثقافي للناشئين حتى تزن لهم في ميزان النقد العلمي وتفتح أبصارهم وبصائرهم على ما يحمل في تضاعيفه من بذور الضعف والفساد، فتكون بذلك قد عملت على إصلاح شأن المجتمع»[3].

وعلى الرغم من الاختلاف في وجهات النظر، إلا أن التربية كانت ولا تزال تعنى بتعليم أفراد المجتمع من الجيل الجديد كيف يسكلون في المواقف الاجتماعية المختلفة على أساس ما يتوقعه منهم المجتمع الذي ينشأون فيه ومعنى هذا أن التربية تعنى بالسلوك الإنساني وتنميته وتطويره وتعبيره»[4].

وبما أن المجتمع الإسلامي له سماته الخاصة التي حددها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فليس غريباً أن يكون هذا المجتمع «هو النتيجة الحتمية

---

(١) إبراهيم عصمت مطاوع: التخطيط للتعليم العالي، ص٢٧.
(٢) أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام، ص٧.
(٣) جورج شهلا ورفاقه: الوعي التربوي، ص٤٣٨.
(٤) محمد لبيب النجيحي: الاسس الاجتماعية للتربية، ص٩.

للإيمان والتعامل الجاد مع القرآن»[1]. لذلك كان من أهم أهداف التربية الإسلامية تربية النشيء وفقاً لمعايير المجتمع الإسلامي وقيمه. فعلى سبيل المثال من يرجع إلى سورة «النور الآية ٥٨ ـ ٥٩» يلحظ مدى اهتمام القرآن الكريم بتعويد الأطفال على العادات الاجتماعية النابعة من القيم التي يدعو إليها الإسلام.

ومن القيم التي تستند إليها التربية الاجتماعية في الإسلام:

١ ـ قيمة الإخاء لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2].

٢ ـ قيمة التعاطف والتواد لقوله صلى الله عليه وسلم «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»[3].

قيمة المسؤولية الاجتماعية لقوله صلى الله عليه وسلم «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[4] ولقد استوحى العلماء المسلمون هذه القيم مما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف بحيث جاءت موجهة لعدد من الأهداف التي عملا على تحقيقها ومنها:

١ ـ تربية الإنسان المسلم على إقامة علاقات تتسم بروح المحبة والتعاون والتفاهم.

٢ ـ تربية الإنسان المسلم على الثقة بالنفس وتحمل المسؤولية الفردية باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من المسؤولية الجماعية.

٣ ـ تربية الإنسان المسلم على الإلتزام بآداب العادات والمعاملات الإسلامية لما لذلك من أثر بالغ في تحقيق التربية الاجتماعية المتكاملة النابعة من القيم التي دعا إليها الإسلام.

---

(١) محمد شديد: قيم الحياة في القرآن الكريم، ص٩.
(٢) رواه البخاري في كتاب الايمان. حديث رقم ٧.
(٣) رواه البخاري في كتاب الادب حديث رقم ٢٧.
(٤) رواه البخاري في كتاب الجمعة حديث رقم ١١.

ولقد سعى الغزالي إلى تحقيق هذه الأهداف من خلال ما تضمنته كتاباته في هذا المجال. فعلى الصعيد العلائقي تناول في الجزء الخاص بربع العادات من كتاب «الإحياء» موضوع الإلفة والأخوة والصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق حيث بيّن فضيلة الإلفة والأخوة بالإضافة إلى شروطها ودرجاتها وفوائدها. كما وأنه تطرق إلى بيان معنى الأخوة في الله وتمييزها عن الأخوة في الدنيا، إضافة إلى بيان البغض في الله ومراتب الذين يبغضون في الله وكيفية معاملتهم. هذا إلى جانب تبيانه للصفات المشروطة فيمن تختار صحبته.

وفي الباب الثالث من الكتاب نفسه تحدث عن حقوق المسلم وحقوق الجوار وحقوق الأقارب والرحم وحقوق الوالدين والولد وحقوق المملوك[١].

وفي كل ذلك كان الغزالي يعبر عن القيم الاجتماعية النابعة من روح الدين الإسلامي. ومما أورده في حقوق المسلم: «أن تسلم عليه إذا لقيته وتجيبه إذا دعاك وتشمته إذا عطس، وتعوده إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات وتبر قسمه إذا أقسم عليك وتنصح له إذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكرهه لنفسك»[٢]. وقال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٣] وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٤].

ولا يقتصر الرفق أو المعاملة الحسنة على المسلمين فحسب بل إن لأعداء المسلمين نصيب في ذلك وهذا ما يشير إليه الغزالي من خلال إيراده لما قالته عائشة رضي الله عنها: إن رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه

(١) الغزالي: الاحياء، ج٢، ص١٧١ وما بعده.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) رواه البخاري في كتاب الادب، حديث رقم ٢٧.
(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم، حديث رقم ٥.

وسلم فقالوا: السام عليك فقال النبي صلى الله عليه وسلم «عليكم» قالت عائشة رضي الله عنها: فقلت بل عليكم السام واللعنة فقال عليه السلام: «يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء» قالت عائشة: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «فقد قلت عليكم»[1]. وفي ذات الاتجاه يقول تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[2]. وقال ابن عباس في معنى قوله ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[3] «أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة»[4].

أما فيما يتعلق بتحمل المسؤولية الفردية على أساس أنها جزء من المسؤولية تجاه المجتمع، يشير الغزالي في الباب الأول من كتاب «آداب الكسب والمعاش» إلى فضل الكسب الحلال والاعتماد على النفس انطلاقا من قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[5] وقوله صلى الله عليه وسلم «لأن يأخذ أحدكم حبلة فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه»[6].

«وقال عمر رضي الله عنه لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق يقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه: استغن عن الناس يكن أصون لدينك وأكرم لك عليهم»[7].

وعلى صعيد السعي لتحقيق الهدف الثالث الخاص بتحلي الإنسان المسلم بالعادات والآداب الاجتماعية الإسلامية التي تكفل له تربية اجتماعية متكاملة. وضع الغزالي آداب خاصة بالعبادات وأخرى خاصة بالمعاملات واعتبر أن تربية

---

(١) رواه البخاري في كتاب الاستتابة حديث رقم ٤.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٦.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٢.
(٤) الغزالي: الاحياء ج٢، ص٢٢٦.
(٥) سورة الجمعة، الآية: ١٠.
(٦) رواه البخاري في كتاب الزكاة حديث رقم ٥٠.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج٢،ص ٧١.

الطفل على مثل هذه الآداب يسهم إسهاماً فاعلاً في بناء شخصيته المتميزة. ولن يتأتى له تكوين الاتجاهات الاجتماعية التي تجعله غيريا يهتم بمصلحة مجتمعه إلا من خلال إحاطته بجو من المحبة واعتبار الذات، إضافة إلى توفير ظروف اجتماعية تشعره بالارتياح والرضا إلى جانب تعويده محبة الآخرين وتقديرهم والتمتع بالبقاء والعمل معهم حيث يشكل ذلك مدخلاً مناسباً لبناء المجتمع الإسلامي المنشود هذا المجتمع الذي كان يعاني في أيام الغزالي من فساد لحق ببعض القادة وأتباعهم إلى جانب الجهل بالشريعة ممادفعه لرفع الصوت عالياً بالدعوة لتجديد الروح الإسلامي والآداب الإسلامية والأخلاق النبوية أملاً في بناء الشخصية الإسلامية المتميزة على صعيد الفرد والمجتمع. وذلك لأن المجتمع كما هو معلوم «يتألف من أفراد وعلى التربية أن تعنى بتربية الولد تربية اجتماعية صحية صحيحة كي يكون المجتمع صحيح البنية متين الأركان...

وعليها أن تعمل على تنقية المحيط من كل ما يضر نفوس الأفراد وتخلق المؤثرات التي تغذي العقول وتقوم الأخلاق ويؤدي إلى التدريب على المشاركة في الحياة الاجتماعية مشاركة فعالة. وإن لم يكن المجتمع سليماً أضر كثيراً بالأفراد، ومن واجب التربية أن تصلح ما فسد من العقول والنفوس»[1].

---

(١) علي ماضي: فلسفة في التربية والحرية، ص١١٦.

الفصل السابع

المنهاج في ضوء الفكر التربوي عند الإمام الغزالي

- مقدمة
- مفهوم المنهاج
  - المنهاج الموسع في ضوء التربية الغربية
  - المنهاج الموسع في ضوء التربية الإسلامية
- أسس المنهاج عند الإمام الغزالي
- العلوم في ضوء المنهاج عند الغزالي
  - العلم الذي هو فرض عين في منهاج الغزالي
  - الفلسفة والكلام في ضوء منهاج الغزالي
  - أسباب ذم الغزالي لبعض العلوم
  - مراتب العلوم عند الغزالي
  - العلوم التي اشتمل عليها منهاج التربية عند الغزالي

ـ مقدمة:

يعد المنهاج من أبرز وأهم مدخلات العملية التربوية. فهو يشكل جوهرها الذي بدونه لا يمكن أن تحصل المعرفة المنهجية، ولا يمكن بلوغ الأهداف المخطط لها، ذلك لأن المنهج يحدد على ضوء الأهداف المرسومة. «وفي الواقع إن الصلة بين الهدف والمنهج صلة وثيقة إلى درجة يصبح معها القول إن المنهاج ليس شيئاً آخر سوى الأهداف والقيم مكتوبة بشكل موسع وأن اتباع منهاج معين يؤدي بشكل أو بآخر إلى الأهداف المرتبطة به»[1].

ولطالما أن المنهاج «يتصل اتصالاً وثيقاً بالاهداف التربوية، بل إن تحقيقها هو الغرض من وجوده، فليس مستغربا أن يختلف المنهاج باختلاف الأهداف التي يحققها، وأن يتكيف وفقاً لها. وفي واقع الأمر إنه ليس في أساسه سوى تفصيل للأهداف التربوية ولا بد لواضعيه والحالة هذه من أن يعرفوا هذه الأهداف حق المعرفة وأن يبقوها دائما نصب أعينهم»[2].

فإذا كان الهدف من التربية ينحصر في جانب محدد من جوانب الشخصية كالجانب المعرفي مثلا، يصبح المنهاج عبارة عن وعاء للمعلومات والمعارف النظرية التي يختارها المدرس ليملأ بها عقول تلاميذه عن طريق الإملاء والحفظ والتكرار. وبهذا ينحصر عمل المدرس في تلقين التلاميذ وحشو أذهانهم بأكبر

---

(١) علي ماضي: فلسفة في التربية والحرية، ص١٧٦.

(٢) جورج شهلا ورفاقه: الوعي التربوي، ص٣٠٣، ٣٠٤.

قدر ممكن من هذه المعلومات دون الأخذ بعين الإعتبار متطلبات الحياة أو قدرات التلاميذ وميولهم.

وفي حال كان الهدف من التربية هو بناء الشخصية المتكاملة والإعداد للحياة يكون المنهج وسيلة المجتمع إلى إحداث التغيير المطلوب في الشخصية بالاتجاه الذي يتلاءم ونظرة هذا المجتمع إلى الحياة.

وبمختلف الأحوال يبقى المنهج وسيلة التربية والتعليم وأداتها التنفيذية. وبسبب اختلاف نظرة المجتمعات إلى الحياة كان من الطبيعي أن تختلف المناهج تبعاً لاختلاف الأهداف التي تسعى لتحقيقها هذه المجتمعات.

ـ مفهوم المنهاج:

«المنهاج» ـ لغة ـ يعني «الطريق الواضح». ولفظة ÏcurriculumÏ اللاتينية التي تعتبر الأصل لما يماثلها من ألفاظ في اللغات الأوروبية ـ تعني «ميدان السباق». وبناء عليه كان أفضل ما يعرف به منهاج التعليم هو أنه الطريق الذي يسلكه المعلم والمتعلم أو المضمار الذي يجريان فيه لبلوغ أهداف التربية بمعنى أنهما في حال اتبعا هذا المنهاج كما يجب فإنهما يحققان تلك الأهداف لا محالة[1].

والمتتبع لأنظمة التدريس التقليدية يلاحظ أن المناهج الخاصة بهذه الأنظمة تتمحور حول المعرفة النظرية التي جاءت على شكل مواد دراسية وضعت في قوالب جامدة عرفت بإسم «المقررات الدراسية» بحيث تقتصر مهمة المعلم على تلقينها للتلاميذ الذين يحرصون بدورهم على حفظها واستظهارها على أمل النجاح في الامتحانات التي تجري في نهاية العام الدراسي. وبهذا يكون المنهاج أداة لقياس الحفظ ومدى قدرة التلاميذ على التذكر.

ويعكس قصر مفهوم المنهاج على الحفظ والتذكر الهدف التقليدي للتربية الذي يركز على النمو العقلي للتلميذ من خلال تلقين المعلومات مما يتسبب

(١) BrubacherÏModern Philosophies of EducationÏp.223.224.

بإهمال الجوانب الأخرى لشخصية المتعلم: الجسمية والنفسية والروحية والاجتماعية لدرجة جعلت من النشاط الرياضي الذي يمارسه التلاميذ خارج جدران الصف نشاطاً ثانوياً لا فائدة منه ولا صلة له بالمنهاج.

ولقد ترتب على المفهوم الضيق نتائج سلبية كان لها بالغ الأثر على شخصية التلميذ ودور كل من المعلم والمدرسة بحيث لم يتسن للتلميذ أن يكتسب شخصية ذات سمات اجتماعية في الوقت الذي اقتصر فيه دور المعلم على التحرك ضمن نطاق صارم ومحدود جداً. ونتيجة لذلك أصبحت المدرسة في معزل عن المجتمع لأنها لم تتطرق إلى المشكلات الاجتماعية مما جعلها عاجزة عن الإسهام في مساعدة التلاميذ على التكيف الاجتماعي والتوافق مع ما يتعرض لهم من مشاكل واحداث.

ومع مرور الأيام والعصور أصبح المنهاج أكثر شمولاً نتيجة تطور أهداف التربية التي اتسعت لتشمل كافة جوانب شخصية المتعلم. فكان لا بد للمنهاج من أن يصبح أكثر عمومية ليجعل من التلميذ والمجتمع محورا للعملية التربوية بحيث «يراعي في اختيار المواد الناحية الخلقية، والناحية العملية، والناحية العقلية، والناحية الاجتماعية والوجدانية، ورغبة التلميذ وميوله، وحاجة الشعب والبيئة حتى نربيه تربية كاملة من كل الوجوه»[1]. وبذلك أصبح المنهج «يعني مجموعة الخبرات الثقافية والاجتماعية والعملية والفنية التي تهيئها المدرسة لتلاميذها تحقيقاً للأهداف التربوية سواء أكان ذلك عن طريق المادة الدراسية أم الطريقة التي تتبع في تدريس هذه المادة، أم أوجه النشاط المختلفة التي يقوم بها التلاميذ أم الاختبارات التي يضعها المدرسون ليعرفوا مدى نجاحهم في تحقيق الأغراض التي يسعون إليها»[2].

فللمنهج إذن ثلاثة مكونات رئيسية هي:

---

(١) محمد عطية الابراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص٢٦١.

(٢) منير كامل: «نحو سياسة افضل لبناء المنهاج»، صحيفة التربية، القاهرة، مايو ١٩٥٤، ص٢٤.

١ ـ ما يدرس ـ أي المادة الدراسية.

٢ ـ كيف تجري الدراسة والتدريس. . . أي طريقة التعليم.

٣ ـ متى تقدم هذه المواد المختلفة أي نظام التعليم.

وبتعبير أكثر إيجازاً يمكننا القول أن المنهاج هو «جميع مظاهر النشاط والخبرات التي يندمج فيها التلاميذ تحت إشراف وتوجيه المدرسة بقصد الوصول إلى الأهداف المرسومة»(١).

*** المنهاج الموسع في ضوء التربية الغربية:**

ليس هناك من شك بفعالية دور المنهج بمفهومه الموسع في العملية التربوية غير أن هذا المنهج لم يستطع أن يصل بالغرب ومن لحق بركبه إلى المستوى المرجو في عملية بناء الإنسان والمجتمع على الرغم من الفرص والإمكانيات الهائلة التي رصدت لذلك. ومامن أحد يستطيع أن ينكر النجاح الذي حققه هذا المنهج على الصعيد المادي والسؤال هل استطاع هذا المنهج أن يحقق التوازن النفسي لكل من الفرد والأسرة والمجتمع؟ ويأتي الجواب على ذلك من خلال عمليات الانتحار التي يقدم عليها الشباب الأوروبي والتفكك الأسري الذي تعاني منه مجتمعاتهم، هذا إلى جانب الانحلال الخلقي الذي بات يشكل السمة المميزة لتلك المجتمعات.

وعلى صعيد العلاقة مع الشعوب الأخرى لم يتمكن المنهج عندهم من السيطرة على مشاعر التعالي والغرور، فضلاً عن إزدراء الآخرين والتسلط عليهم واقتراف شتى أنواع الإبادة بحق الشعوب المستضعفة بهدف استعمارها وسلب خيراتها.

كل ذلك يعكس مدى إخفاق المنهج على الصعيد الاجتماعي والإنساني

---

(١) محمد فايز سليم الالفي: «المنهج الدراسي في مراحله المختلفة»، مجلة التربية القطرية، العدد ٢١، جمادي الثانية ١٣٩٧ هـ مايو ١٩٧٧م ص٣٥.

على الرغم من التقدم المذهل في المجال المادي. وكأن بناء الأبراج وإقامة المصانع وإطلاق الصواريخ أصبح أهم من بناء الإنسان والحفاظ على كرامته، وإلا ما معنى هذه الممارسات؟ وما معنى دعوات التمييز العنصري التي تضع الإنسان في مصاف الحيوان في بلاد تنتحل لنفسها صفة الحفاظ على حقوق الإنسان وعدالة القانون؟ مما يؤكد على أن المؤسسات التربوية الغربية لم تصل إلى المستوى الذي يمكنها من الحفاظ على القيم الاجتماعية والإنسانية والدينية. ولذلك ليس غريباً أن يعاني المجتمع الغربي من حالة اضطراب وعدم توازن تعبر عن نفسها عبر الممارسات الشاذة على الصعيدين الداخلي والخارجي.

*** المنهاج الموسع في ضوء التربية الإسلامية**

هناك من يعتقد أن مفهوم المنهاج بالمعنى الموسع هو نتاج هذا العصر. إلا أن من ينظر بموضوعية وتجرد إلى منهاج التربية الإسلامية ودور المربي في تعليم هذا المنهاج ونشره، يدرك خطأ مثل هذا الاعتقاد، خاصة وأن منهاج الدراسة في التربية الإسلامية لم يكن محصوراً بالمادة الدراسية التي يطلب من المتعلمين حفظها.

فلقد كان المسجد «مدرسة المجتمع الإسلامي يلتقي فيه خاصة المسلمين وعامتهم ليتدارسوا مشاكلهم ويتغلبوا على الصعاب التي تواجههم في دروب الحياة العامة بالرأي والمشورة وتوظيف المنهج التربوي الذي شرعه الله لهم على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة. ففي المسجد. . . يلتقي كل الناس ولا يُردّ عنه قاصد. وهناك يجدون المعلم الذي يستنيرون بعلمه ويهتدون بهديه في كل ما يعن لهم ويريدون معرفته من شؤون. وما كان هذا المعلم ـ وبخاصة في الصدر الإسلامي الأول ـ ليعجز عن الهداية والإرشاد أو قل التربية والتعليم في أي من متطلبات الحياة الدنيا أو عوارض الإيام التي يعيشها المسلم وغير المسلم. وما سمعنا أن المنهج الإسلامي الشامل الكامل الذي كان هؤلاء المعلمون الأوائل يرجعون إليه في تعليمهم ويستوضحونه في تهذيبهم، قد قصر في الإجابة عن سؤال سئل أو استفهام عرض مما كانت له صلة بالدين أو الدنيا.

ولقد كان المسلمون بهذا الأسلوب يتثقفون ويتهذبون ويتعلمون كل ما يحتاجون إليه في أمور عيشهم. ومما علموه وفقهوه في المسجد كانوا يشاركون في بناء الحياة بخير ما علموا»[1].

فالتربية الإسلامية لا ترضى من المسلم أن يكون حافظة للمعلومات وإنما تدعوه وتحثه على العمل بما يعلم يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[2]. ويقول صلى الله عليه وسلم: «تعلموا ماشئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»[3]. ويقول الغزالي: «فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يدعى عظيما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب»[4].

فلا يليق بالمسلم أن يكون مستمعاً بل يجب أن يخطو بمعرفته ويستخدمها لتكون عملاً يعود بالنفع عليه وعلى المجتمع وبذلك يتجاوز كل المراحل الدونية إلى مقام أكرم حيث يندفع ـ نتيجة إيمانه وعمله ـ نحو الأفضل والأمثل. ولو عدنا إلى آيات القرآن الكريم التي تخاطب المؤمن لوجدنا كيف أنها افترضت سلفاً قدرته على العمل بهدي المنهج القويم الذي أقره رب العالمين لقوله تعالى في غير موقع: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

ومن الواضح أن الصالحات تشكل الأهداف المرجوة للتربية الإسلامية في كل زمان ومكان.

وللإحاطة بتصور يحدد إطار المنهاج الإسلامي يمكننا القول بأن «تصور المنهج في الإسلام قام على تحديده، ويقوم آيات القرآن الكريم ونصوص الحديث الشريف وأفعال الرسول الأمين، كما قام على تحديده، ويقوم «مبدأ

---

(١) حسين سليمان قورة: «مدرسة الحياة فكرة اصيلة في المنهج الاسلامي» مجلة التربية القطرية، العدد ٢٤ ذو الحجة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ص٦٨، ٦٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٧.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.

الاجتماع والقياس» من الأئمة العلماء الأتقياء. ومبدأ أخير هو «مبدأ الإجتهاد» حتى تظل أشكال التربية حية متطورة ضمن الإطار الإسلامي المتين»[1].

وفي العودة إلى مجالات التربية عند الإمام الغزالي فائدة في تعزيز وجهة النظر القائلة بشمولية المنهج الإسلامي وتكامله، هذا المنهج الذي يتحرك المسلم المؤمن وِفقه وإضعاً نُصب عينيه لقاء وجه ربه وهو راض عنه لذا فهو يسعى لبناء نفسه كفرد مسلم، وأسرته كأسرة مسلمة ومجتمعه كمجتمع مسلم، على قاعدة من العلم والإيمان بالله واليوم الآخر.

وعلينا أن ندرك أن منهاج الإسلام يقوم على العلم الذي أمر به القرآن الكريم حيث يمثل بدوره «جملة المعارف التي يدركها الإنسان بالنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق من شيء»[2] وبتعبير آخر «العلم بمفهومه الشامل الذي ينتظم كل ما يتصل بالحياة، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الديني كمايتبادر إلى بعض الأذهان أو ما ذاع في عهود التخلف عن القرآن، فقد دعا إلى النظر في ظواهر الوجود ومظاهر الحياة، كما دعا إلى دراسة الكائن البشري ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[3] ووجه إلى علم النبات والجماد والحيوان والأجناس: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[4] وجعل من الكون كتابا للمعرفة ووجه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صنع الله فيه ودعا إلى التفكر في آياته، واستكناه أسراره وفهم نظمه ونواميسه، ففتح بهذا العرض والتوجيه باب العلم، وحرر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل وأغرى بالبحث والدراسة

(١) سليمان محمد الستاوي: «احاديث من المنهج»، مجلة التربية القطرية، السنة الثامنة، العدد ٣٤، رمضان ١٣٩٩هـ - ١٩٧٧م ص٢٥.

(٢) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة اسلامية، ص٨٥.

(٣) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٤) سورة فاطر، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

والعلم»[1].

يتضح مما سبق أن التربية الإسلامية تلحظ ضرورة أن يشتمل المنهاج الدراسي في مراحله المختلفة على الجانبين الفكري والمادي دون تغليب أي منهما على الآخر. وذلك لأن «أول العلم النية ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر»[2]. وبذلك يكون العلم وسيلة لسعادة الإنسان لطالما أن ثمرته العمل الصالح. وهكذا تبرز أهمية المعلم العامل بعلمه الذي لا يكذب قوله فعله لأن مثله كمثل الظل من العود ومن قال أن الظل استوى والعود أعوج.

ـ أسس المنهاج عند الإمام الغزالي:

استطاع المنهج الذي دعا إليه الإسلام أن ينتقل بالعالم من مرحلة التفكير النظري التي كرستها الفلسفة اليونانية إلى مرحلة الواقعية من خلال الربط بين الفكر والواقع الذي تعبر عنه آيات الله المنبثة في هذا الكون يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾[3].

«وجاء هذا المنهج الواقعي دعوة إلى عالم الحس والتجربة وإبعاد الفكر الإنساني عن منهج التجريد الذي لا يدعو إلى نظر، ولا يؤدي إلى كشف، ولا يحقق رسالة في الأرض ولا يعدو أن يكون رياضة ذهنية ليس بينه وبين واقع الحياة ومطالبها صلة، ولكن خدع بعض علماء المسلمين بمنهج التفكير اليوناني وحاولوا فهم القرآن على ضوء هذه الفلسفة فانحرفوا عن نهج القرآن»[4].

فكان هذا حافزاً للإمام الغزالي للوقوف بوجه هذا التيار الفكري البعيد عن

---

(١) محمد شديد: منهج القرآن في التربية ص١٣٧، ١٣٨، ١٣٩.

(٢) القرطبي: جامع بيان العلم وفضله، ج١، ص١١٨.

(٣) سورة يونس، الآيتان: ٥، ٦.

(٤) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص١٤٢، ١٤٣.

روح الإسلام[١]. واستطاع بعد جهاد طويل أن يتوصل إلى تبيان حقيقة العلم من خلال «إعطاء كل شيء حقه. والدليل على ذلك أنه لم يحاول مثل المتكلمين، إخضاع العقل ومدركاته لعقائد الدين، ولم يعمل كالفلاسفة على حصر الإيمان الديني في قوانين العقل وأحكامه ولم ينصرف كالصوفيين إلى ناحية الكشف، والنظر الباطني مهملاً إلى جانب ذلك العلوم العقلية والعبادات الدينية»[٢]. فالغزالي لم يتجاهل أو ينكر الحقائق العلمية سواء أكانت رياضية أم طبيعية، بل يقول «إن الحساب، والهندسة والفلك والطبيعيات، علوم حقيقية لا شك في صحة براهينها وفائدة استنتاجاتها ولكن العلم محدد النطاق، فكما أنه لا يجوز بناء العلوم على الاعتقاد كذلك لا يجوز حصر الدين في أحكام العقل، وبراهين المنطق بل إن لكل من هاتين الناحيتين مصدراً خاصاً: العلم يستند إلى العقل، والدين ينبجس من القلب»[٣].

ولذلك بنى الغزالي منهجه الدراسي بوحي من روح الإسلام وتعاليمه درءا للضرر الذي قد يلحق بالفطرة التي فطر عليها الإنسان مستلهماً بذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم «كل مولود يولد على الفطرة...»[٤] والغزالي بذلك إنما يريد لنفسه ولغيره القرب من الله تعالى لأن «كمال الآدمي في قربه من الله تعالى وقربه بالصفات لا بالمكان وإنما يقرب بصفة العلم، فما دام علمه أكمل وأكثر فهو من الله أقرب وبملائكته أشبه»[٥].

وبعد أن استطاع الغزالي من تحديد هدفه التربوي سعياً لبلوغ سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى كان لا بد من أن يحدد منهجه على ضوء هذا الهدف المتعدد الجوانب والاتجاهات لارتباطه بشخصية الإنسان من كافة جوانبها وبكل من الحياة الدنيا والآخرة وكما يقول الغزالي: «إن المنزل الأدنى لا بد من

---

(١) انظر البحث الغزالي وعصره.

(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، القسم الدراسي، ص١٦، ١٧.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) رواه البخاري في كتاب الجنائز، حديث رقم ٨٠، ٩٣.

(٥) الغزالي: فاتحة العلوم، ص٥.

قطعه للوصول إلى المنزل الأقصى»[1]. ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[2]. لذلك كان لا بد للإنسان من «الزاد لسفره الذي لأجله خلق وهو السفر إلى الله سبحانه وقطع المنازل إلى لقائه»[3].

وبهذا يمكننا القول إن منهج الغزالي يقوم على عبادة الله وليس معنى هذا التخلي عن أمور الدنيا لأن العبادة في الإسلام «ليست قاصرة على مناسك التعبد... وإنما هي معنى أعمق من ذلك جداً... إنها العبودية لله وحده. والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله... ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله... والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة[4].

ـ العلوم في ضوء المنهاج عند الإمام الغزالي:

على ضوء ما سبق يمكن القول بأنه ليس غريباً أن يعنى منهج الغزالي بعلوم الدنيا والدين وصناعاتها حيث تمكن من أن يضع لها معايير محددة لتكون أساساً للمقارنة فيما بينهما أو لتفضيل أي منها على الآخر وذلك انطلاقا من الاعتبارات التالية:

١ ـ «إما بالإلتفات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية: إذ تدرك الحكمة بالعقل واللغة بالسمع»[5] ومعلوم أن «العقل أشرف من السمع»[6].

٢ ـ «وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة»[7].

٣ ـ «وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة: إذ محل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة»[8].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦.
(٤) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٣٤.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٤.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وبناء على هذه المعطيات يقرر الغزالي أن العلوم الدينية أشرف العلوم لأنها تشتمل على السمات الثلاث الآنفة الذكر وذلك لأنها «تدرك بكمال العقل وصفاء الذكاء والعقل أشرف وصفاته الإنسان. . . إذ به تقبل أمانة الله. وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه. وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة. وأما شرف المحل فكيف يخفى، والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه»[1].

مما يعني أن الغزالي أقام منهجه على مبدأ الارتباط الكامل بالدين وتعاليمه وقيمه ساعياً لأن يتسم هذا المنهج بالشمول والتوازن وأن يأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين التلاميذ على ضوء استعداداتهم وقدراتهم. غير غافل عن مراعاة مبدأ التدرج والترابط بين مواد المنهج وأوجه نشاطه المتخلفة.

ولقد جاء منهج الغزالي ليعكس وجهة نظره في إلزامية التعليم انسجاماً مع قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[2]. لذلك كان من الطبيعي أن يرى في بعض العلوم فرض عين وفي بعضها الآخر فرض كفاية. ولقد عمل على تبيان كلا النوعين مشيراً إلى وجود اختلاف بين الناس حول العلم الذي هو فرض عين خاصة وأنهم تفرقوا لأكثر من عشرين فرقة. وترتب على ذلك «أن كل فريق نزل الوجوب على العلم الذي هو بصدده فقال المتكلمون: هو علم الكلام، إذ به يدرك التوحيد ويعلم بهق ذات الله سبحانه وصفاته. وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام وما يحرم من العبادات وما يحل. . . وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة»[3]. وتعددت آراء المتصوفة في ذلك فقال بعضهم «هو علم الباطن. . . وقال أبو طالب المكي هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) رواه ابن ماجة في المقدمة حديث رقم ١٧.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٥.

الإسلام»[1] والمقصود بذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»[2].

* العلم الذي هو فرض عين في منهاج الغزالي:

يرى الغزالي أن العلم الذي يعتبر فرض عين «معناه العلم بكيفية العمل الواجب فمن علم العمل الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين»[3]. وتعلم هذا العلم لا يكون دفعة واحدة وإنما بالتدرج[4]. ويعكس رأي الغزالي قناعته بأن «فروض العين» هي علوم الدين التي يجب على كل مسلم معرفتها سواء أكان ذلك فعلاً أم تركاً أم اعتقادا.

* العلم الذي هو فرض كفاية في منهاج الغزالي:

يعتبر الغزالي أن فرض الكفاية هو كل «علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان، وكالحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما وهذه العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد. وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين»[5].

وتنقسم علوم فرض الكفاية إلى قسمين شرعية وغير شرعية:

أ ـ العلوم الشرعية:

يقيد الغزالي هذه العلوم بما استفيد من معارف على أيدي الأنبياء صلوات الله عليهم. ويرى أن هذا العلم «لا يرشد العقل إليه مثل الحساب ولا التجربة مثل

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) رواه البخاري في كتاب الايمان حديث رقم ٢٠١.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٢٦.
(٤) المرجع السابق ص٢٧.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه

الطب، ولا السماع مثل اللغة»[١]. وإلى جانب ذلك فهو لا يتردد بأن يقرر أن جميع هذه العلوم محمودة وتنقسم إلى أربعة ضروب هي:[٢]

١ ـ الأصول: «وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة»[٣]. وذلك لأن الصحابة أدركوا الوحي والتنزيل ولديهم من القوائن ما لم يتوافر لغيرهم وما لا تحيط بها العبادات.

٢ ـ الفروع: وهي على ضربين:

I ـ ما «يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء»[٤].

II ـ ما «يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والذمومة وما هو مرض عند الله تعالى وما هو مكروه»[٥].

٣ ـ المقدمات: «وهي التي تجري... مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع»[٦] ومعلوم أن العربية هي لغة الشرع.

٤ ـ المتممات: وهي علوم على مستويين الأول ما له علاقة بالقرآن والثاني ما له علاقة بالأخبار والآثار. أما ما يتعلق بعلم القرآن «فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات ومخارج الحروف وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير... وأما المتممات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسابهم وأسماء الصحابة وصفاتهم والعلم بالعزلة في الرواة والعلم بأحوالهم... فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة بل كلها من فروض الكفايات»[٧].

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨.

(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ب ـ العلوم غير الشرعية:

قسم الغزالي هذه العلوم «إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح»[1].

١ ـ العلوم المحمودة: وهي تلك العلوم المتفرعة عن فروض الكفايات التي سبق الحديث عنها. ومن العلوم المحمودة «ما يعد فضيلة لا فريضة» كالتعمق في «دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه»[2].

٢ ـ العلوم المباحة، فهي كالعلم «بالأشعار التي لا سخف فيها. وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه»[3].

٣ ـ العلوم المذمومة: فهي كعلم «السحر والطلمسات وعلم الشعوذة والتلبيسات» إضافة إلى بعض فروع الفلسفة التي انفرد أصحابها «بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة»[4].

* الفلسفة والكلام في ضوء منهج الغزالي:

لم يورد الغزالي في أقسام العلوم «الكلام والفلسفة» لأنه يرى أن «حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع... وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل لمقالات... أكثرها ترهات وهذيانات تزدريها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفاً في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلية من البدع ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدعة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ونبعت جماعة

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٣٤.

لفقوا لها شبها ورتبوا فيها كلاما مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدعة وذلك إلى حد محدود»[١].

وبالنسبة للفلسفة فلقد رأى الغزالي أنها ليست علماً برأسها. ولذلك لم يدرجها في منهجه على أساس أنها علم مستقل. في الوقت الذي لم ينكر فيه مكوناتها. وبهذا فإنه يركس موضوعية في التعاطي مع علوم عصره على الرغم من استيائه من بعضها انسجاماً مع عقيدته وأهدافه التي سعى لتحقيقها.

واعتبر الغزالي أن علوم الفلاسفة ـ حسب ما نقل ابن سيناء والفارابي عن فلاسفة اليونان ـ تنحصر في ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم يجب التكفير به.

٢ ـ وقسم يجب التبديع به.

٣ ـ وقسم لا يجب إنكاره أصلاً[٢].

وبناء عليه فلقد قسم الغزالي الفلسفة إلى ستة علوم هي:

١ ـ الرياضة:

وهي التي «تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل لمجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها»[٣]. ويرى الغزالي أنها علوم مباحة لا يمنع عنها إلا من يخاف أو يخشى عليه أن يتجاوزها إلى علوم مذمومة خاصة وأن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منها إلى البدع لذلك يصان الضعيف عنها ـ لا لعينها ـ تماماً «كما يصان صبي عن شاطىء النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر وكما يصان حديث العهد بالإسلام عن مخالطة الكفار خوفاً عليه مع أن القوي لا يندب إلى مخالطتهم»[٤].

(١) المرجع السابق، ص٣٣.
(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص٩٩.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٠.

٢ ـ المنطقيات:

وهي علوم «لايتعلق شيء منها بالدين نفياً أو اثباتاً»[١] وتبحث «عن وجه الدليل وشروطه، ووجه الحد وشروطه»[٢] «وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والإصطلاحات وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات»[٣] إلا أنه قد يقود بصاحبه إلى الكفر «قبل الإنتهاء إلى العلوم الإلهية»[٤].

٣ ـ الطبيعيات:

وهي علوم يبحث بعضها عن «عالم السموات وكواكبها وما تحتها من الأجسام الفردة كالماء والهواء والتراب والنار وعن الأجسام المركبة كالحيوان»[٥] إضافة إلى جسم الإنسان وأعضائه... وكما ليس من شرط الدين إنكسار علم الطب، فليس من شرطه إنكار ذلك العلم إلا في مسائل معينة»[٦] «بعضها مخالف للشرع والدين والحق»[٧] ولذلك «فهو جدل وليس بعلم»[٨].

٤ ـ الإلهيات:

وهي علوم تبحث «عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته»[٩] وتحتوي على أكثر مغالطات الفلاسفة[١٠] «الذين انفردوا بمذاهب بعضها كفر وبعضها بدعة»[١١] تماماً كما حصل للمعلمين وأهل البحث والنظر من المعتزلة الذين «انفردوا

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٣٣.
(٢) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٠٣.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٣٣.
(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٠٤.
(٥) المرجع السابق، ص١٠٥.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٣٤.
(٩) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بمذاهب باطلة»[1].

٥ ـ السياسيات

وهي العلوم التي يرجع فيها كلامهم «إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية (والإيالة) السلطانية وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الأنبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء»[2].

٦ ـ الخلقيات:

وهي العلوم التي يرجع كلامهم فيها إلى «حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسهاوأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها وإنما أخذوها من كلام الصوفية»[3] إلا أنهم أي الفلاسفة «مزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم... فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان، آفة في حق القابل وآفة في حق الرد»[4]. فآفة الرد قد تؤدي بأصحابها إلى رد الكلام الحق فيما لو أسند إلى من ساء فيه اعتقادهم. «كالذي يسمع من النصراني قول: لا إله إلا الله، عيسى رسول الله، فينكره ويقول: هذا كلام النصارى»[5].

أما آفة القبول فقد تؤدي قبول باطلهم الممزوج بشيء من «الحكم النبوية والكلمات الصوفية»[6]. التي قد تجد استحساناً عند أحدهم «فيسارع إلى قبول باطلهم... لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج إلى الباطل»[7]. ولأجل هذا كله نهى الغزالي عن مطالعة كتب إخوان الصفا ودعا إلى

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٠٦.
(٢) الغزالي الإحياء، ج١، ص٣٤.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٠٩.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع السابق، ص١١٠.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) المرجع السابق، ص١١٤.

وجوب الزجر عن مطالعتها «لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب»[1].

فموقف الغزالي من الفلسفة وعلومها يدل على قوة في التحليل وصدق في البرهان وإحاطة بعلوم زمانه انطلاقاً من قناعته بأن «العقل غير كاشف للغطاء عن جميع المعضلات»[2]. ولقد نظر الغزالي إلى العلوم بميزان الدين حيث أنه كان يعيش مشكلة الإسلام في عصره. ولذلك جعل معياره في الحكم على هذه العلوم يستند إلى مدى النفع أو الضرر الذي قد يلحق بالإسلام والإنسان. فشكل هذا بدوره الميزان الذي اعتمده في رسم إطار منهجه التربوي. مما يساعد معرفة الأسباب التي حذت به لذم بعض العلوم.

* أسباب ذم الغزالي لبعض العلوم:

ليس العلم موضعا للذم في عينه كما يرى الغزالي لكنه يذم لأحد هذه الأسباب:

١ ـ إذا كان «مؤدياً إلى ضرر إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلمسات وهو حق، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين»[3]. وبذلك حسب الغزالي يكون هذا العلم أداة شر وليس أداة خير.

٢ ـ إذا كان العلم «مضراً بصاحبه في غالب الأمر كعلم النجوم فإنه في نفسه غير مذموم لذاته إذ هو قسمان: قسم حسابي... والثاني الأحكام وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث لأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض... ولكن قد ذمه الشرع»[4] لأسباب ثلاثة:

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع السابق، ص١١٥.
(٣) المرجع السابق، ص٤٥.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤١

أ ـ قد يكون وسيلة للشرك بالله نتيجة للإفتتان بالكواكب واعتبارها آلهة مما يجعل القلب متعلقاً بها وملتفتاً إليها اعتقاداً منه بأن «الخير والشر محذوراً أو مرجواً من جهتها»[1] وبذلك «ينمحي ذكر الله سبحانه عن القلب»[2].

ب ـ «إن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق آحاد الأشخاص لا يقيناً ولا ظناً. فالحكم به حكم بجهل. فيكون ذمه على هذا من حيث أنه علم»[3].

ج ـ «إنه لا فائدة فيه فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يغني وتضييع العمر. . . في غير فائدة وذلك غاية الخسران»[4].

٣ ـ إن «الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم»[5] مذموم في حق صاحبه «كتعلم دقيق العلوم قبل جليلها، وخفيها قبل جليها وكالبحث عن الأسرار الإلهية»[6]. ويعكس كلام الغزالي هذا ضرورة التدرج في المنهج ومراعاة الفروق الفردية لأن العلم قد يكون «ضاراً لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلوى اللطيفة بالصبي الرضيع»[7]. فالعلوم كالشجر ـ كما شبهها عيسى عليه السلام ـ «ما أكثر الشجر وليس كلها بمثمر وليس كلها بطيب وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع»[8].

يتضح مما سبق ومن أجل أن يأتي منهاجه منسجماً مع أهدافه ومساعداً على تحقيقها «قسم الغزالي العلوم المختلفة إلى مجموعات وأقسام وفروع خاصاً كل منها بصفات مختلفة، ومعطياً لها قيماً حسب أهميتها وفائدتها أو ضررها للمتعلم

---

(١) المرجع السابق، ص٤٢.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) المرجع السابق، ص٤٣.

ثم بيّن بعد ذلك العلوم التي يجب أن يزود بها المتعلم ليبلغ الغاية التي رسمها. . . كما بيّن أيضاً العلوم التي يجب تجنب تدريسها للمتعلم. لما فيها من مساويء وأضرار»[١]. وتمكن أخيراً من أن يقسم العلوم إلى ثلاثة أقسام على أساس نفعها أو ضررها للإسلام والإنسان على حد السواء.

*** مراتب العلوم عند الغزالي على ضوء نفعها أو ضررها:**

١ ـ علوم محمودة على الإطلاق:

ومدار هذه العلوم «العلم بالله تعالى وبصفاته وافعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا»[٢]. هذه العلوم مطلوبة لذاتها من أجل التوصل بها إلى سعادة الآخرة. ويرى الغزالي أنه لا يمكن الإحاطة بها أو إدراك غورها فهي كالبحر الذي «يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم»[٣].

٢ ـ علوم محمودة بقدر ومذمومة بقدر:

يشير الغزالي إلى أن العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار محدود هي العلوم التي وردت في فروض الكفايات وعلى المتعلم أن لا يشتغل بها قبل الإنتهاء مما فرض عليه بحسب ما تقتضيه حاله وإلا كان كمن «دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه وهمت بقتله وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره»[٤]. وفي حال الاشتغال بفروض الكفايات لا بد من مراعاة التدرج وعدم استغراق العمر في فن منها طلباً للأستقصاء لأن «العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسى فيه المطلوب ويستكثر منه»[٥].

---

(١) فتحية سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي ص١٨.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٥١.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع السابق، ص٥٢.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

٣ ـ علوم مذمومة على الإطلاق:

وهذه العلوم في نظر الغزالي لا يرجى منها نفع ولا فائدة في أمور الدنيا والدين إذ أن ضررها غالب على نفعها كعلم السحر والطلمسات والنجوم التي لا ينطوي بعضها على أية فائدة تذكر.

* العلوم التي أشتمل عليها منهاج التربية عند الغزالي:

وعلى ضوء ما يسبق يمكننا أن نخلص إلى القول أن الغزالي نظم مقرراته الدراسية حسب أهمية العلوم وفائدتها وفق معايير دينية ودنيوية وفردية واجتماعية ولقد جاء منهجه الدراسي «منظما كالآتي حسب أهمية العلوم التي يشملها:

١ ـ المرتبة الأولى: القرآن الكريم وعلوم الدين كالفقه والسنة، والتفسير.

٢ ـ المرتبة الثانية: علوم اللغة العربية والنحو، ومخارج الحروف والألفاظ، وهي علوم تخدم علوم الدين.

٣ ـ المرتبة الثالثة: فروض الكفاية وهي علوم الطب، والحساب والصناعات المختلفة بما فيها السياسة.

٤ ـ المرتبة الرابعة: العلوم الثقافية كالشعر الأدبي والتاريخ، وبعض فروع الفلسفة مثل الرياضيات، والمنطق، وبعض العلوم الطبية التي لا تدخل فيما وراء الطبيعة، وعلم السياسيات والخلقيات»[1].

يتضح مما سبق أن منهاج الغزالي يقوم على مبدأ الارتباط الكامل بالدين الإسلامي وما فيه من تعاليم وقيم ولقد حاول أن يراعي مبدأ الشمول في محتويات المنهج وأهدافه على أساس التوازن بين هذه الأهداف والمحتويات التي تتلائم مع استعدادات المتعلم وقدراته وحاجاته مثلما تتلائم مع حاجات البيئة الطبيعية والاجتماعية للمتعلم. ولقد جهد لنفسه أن يراعي منهجه مبدأ التدرج والترابط بين المواد وأوجه النشاط المختلفة.

---

(١) فتحية سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، ص٢٧.

وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزه الغزالي في رسم إطار منهجه إلا أنه لم يحدد بشكل واضح المقررات الدراسية لكل مرحلة من مراحل التعليم مع أنه لم يغفل عن ذكر ما يجب تعلمه في الكتاب عندما أشار أن على الطفل أن «يتعلم القرآن وأحاديث الآخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين»[1]. إلا أن ذلك لم يأت ضمن برنامج واضح المعالم لكل مرحلة من مراحل التعليم. وقد يكون الغزالي معذوراً بذلك لأنه كان يسير وفق انظمة التعليم التي كانت سائدة في عصره إذاك والتي تختلف بطبيعة الحال عن أنظمة التعليم في يومنا هذا.

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٨.

الفصل الثامن

الطرائق التعليمية/ التعلمية في ضوء الفكر التربوي عند الإمام الغزالي

- مقدمة.
- الطرق المختلفة للتربية عند الغزالي.
  - القدوة.
  - ضرب الأمثال.
  - القصص.
  - العادة.
  - الممارسة والعمل.
  - المساءلة (المناقشة والحوار).
  - العظة والنصح.
  - الثواب والعقاب.

مقدمة:

لقد جهد الإمام الغزالي كي يضع منهجا تربوياً يعنى بكافة جوانب الشخصية الإنسانية، انطلاقاً من نظرة الإسلام الشاملة والمتكاملة للإنسان. ولقد «نظر الفكر التربوي الإسلامي إلى الإنسان موضوع التربية على أنه كيان متكامل، له جسد وعقل وشعور وإحساس وروح ولكل من ذلك كله حاجاته التي يجب أن تشبع. وهذا الكيان المتكامل جزء من كيان أكبر هو المجتمع»[١].

وكان الغزالي يسعى إلى توفير العناصر التي تمكنه من تحقيق الأهداف التي رسمها. خاصة وأن كلمة التربية كما هو معلوم تطلق «على كل عملية... تؤثر في قوى الطفل وتكوينه... سواء أكان مصدر هذه العملية الطفل نفسه أم البيئة الطبيعية أم الاجتماعية بمعناها العام أم بمعناها الضيّق المحدود فالطفل خاضع باستمرار لعمليات تغيّر في تكوينه الجسمي والعقلي والخلقي»[٢].

والتربية التي تتشكل من كل هذه العمليات تبقى بحاجة إلى منهج وطرائق تنسجم فيما بينها وتلتقي مع الأهداف المخطط لها. ولذلك كان من الضروري بعد الحديث عن أهداف التربية وميادينها ومنهاجها أن يتطرق البحث لمناقشة طرائق التربية عند الإمام الغزالي.

ومعلوم أن للطريقة «معنى ضيّقاً والمقصود به توصيل المعلومات، ومعنى

---

(١) عبد الغني النوري: التربية الاسلامية بين الاصالة والمعاصرة، ص٧٤.

(٢) صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد، التربية وطرق التدريس، ج١، ص١١.

واسعاً شاملاً وهو اكتساب المعلومات، مضافاً إليها وجهات نظر وعادات في التفكير وغيره»[1]. ولهذا فإن الطريقة في التربية لا تقتصر على مجرد النشاط الذي يقوم به المعلم داخل غرفة الصف بل تتعدى ذلك لتشمل مجموع الأنشطة التي تظهر أثارها على المتعلمين داخل الصف وخارجه على شكل أنماط سلوكية واتجاهات ومواقف في شتى نواحي الحياة، مع الأخذ بعين الاعتبار ضرورة تكامل هذه الطرق مع بعضها البعض علاوة على تكاملها ككل مع المنهاج المقرر والأهداف التربوية المرسومة.

ولقد كان من الطبيعي أن تأتي الطرائق مختلفة تبعاً لاختلاف ميادين التربية الإسلامية التي اهتمت بالإنسان من كافة جوانبه: الجسمية والروحية والعقلية والنفسية والخلقية والاجتماعية. وبما أن النمو وحدة مشتركة تتأثر جوانبها المختلفة ببعضها البعض كان لا بد من التكامل بين الطرائق التي اعتمدها المربون وفي طليعتهم الرسول الكريم الذي كان القائد والقدوة في عملية البناء هذه، حيث وفرت للمجتمع الإسلامي التفوق والتميز على باقي المجتمعات التي استفادت بدورها من التقدم الذي أحرزه المسلمون على يد الرسول الكريم في فترة وجيزة من الزمن[2].

ـ الطرق المختلفة للتربية عند الإمام الغزالي:

سعى الغزالي لبناء الشخصية الإسلامية المتميزة على صعيد الفرد والمجتمع، على قاعدة أن الإسلام منهج حياة صالح لكل زمان ومكان. فكان من الطبيعي أن يستفيد من طرق التربية الإسلامية ويوظفها توظيفاً فاعلاً بشكل يتكامل مع المنهاج والأهداف التي خطط لتحقيقها. وفيما يلي عدد من أهم الطرق التي اعتمدها الغزالي في منهجه التربوي:

* القدوة:

إن للقدوة الحسنة بالغ الأهمية في عملية تربية الفرد وتنشئته. ولقد كان

---

(١) المرجع السابق ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٨٠.

لهذه الطريقة أثر عميق في تعليم المسلمين وتثقيفهم وتغيير اتجاهاتهم وتعديل سلوكهم والأخذ بيدهم نحو بناء الشخصية الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

وشكلت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة التي تمثلت القرآن الكريم وحولت مبادئه ومعانيه إلى تصرفات وسلوك ومعاملات وأفكار ومشاعر. مما جعل عائشة أن تقول عندما سئلت عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم بأن خلقه القرآن. وتمكن الرسول عليه السلام «المبلغ من ربه، والقدوة الحسنة وصاحب التطبيق العملي لمنهج القرآن»[1] من «وصل أصحابه بالله عن فهم ومعرفة وإيمان، ووصلهم بالقرآن ففهموه على أنه أوامر للتنفيذ، فكان زاد قلوبهم ومطهر نفوسهم، وموجه سلوكهم، وصلة بينهم وبين ربهم»[2].

وبهذا شكلت القدوة «عاملاً أساسياً لإنجاح التربية القرآنية ولإيتائها ثمراتها اليافعات»[3]. ولقد جاءت الدعوة للإقتداء بالرسول الكريم واضحة في قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾[4].

«والقرآن إذ يركز على ضرورة الإقتداء بالرسول باعتباره أسوة حسنة فإن التربية الإسلامية تتخذ من القدوة طريقاً لتحقيق أهدافها فالمعلم ليكون قدوة لا بد وأن يتمثل المنهج الذي يعلمه ويربي به، إذ يربي على هديه، وحتى لا يكون هناك تناقض بين قوله وعمله، وحتى يتخذه المتعلمون قدوة لهم ويتأسّوا به في كل حركاته وسكناته، فضلاً عن أخلاقه ومنهجه، وإلا فإن التربية تنقلب إلى تلقين وضغط وتسميع دون أي أثر عملي لها»[5].

فالرسول الكريم قدوة للمسلمين كافة كل في موقع عمله. ولذلك أوصى

---

(١) محمد شديد: منهج القرآن في التربية، ص١١.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) احمد محمد جمال: دين ودولة، ص١٦٥.
(٤) سورة الاحزاب، الآية: ٢١.
(٥) علي خليل ابو العينين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص٢٣٠، ٢٣١.

الغزالي المعلم المرشد اقتفاء أثر الرسول عندما جعل الوظيفة الثانية لهذا المعلم «أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه»[١].

ويوصي الغزالي العالم المسلم أن يكون قدوة حتى لا يكون من علماء السوء الذين اعتبرهم «مثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام»[٢]. والمعلم القدوة في نظر الغزلمي يجب «أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به»[٣] امتثالاً لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[٥].

وحيث أن التربية السليمة لا تعتمد على المواعظ الجامدة والتعبيرات المطاطة والألفاظ المكررة والحكم المتواترة والكتب المترجمة وإنما تعتمد أساساً على المربي الفاضل. أشار الغزالي في أكثر من موقع إلى الحاجة الملحة للقدوة في العملية التربوية على كافة الصعد والمستويات. فالمريد مثلاً «يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلى سواء السبيل... فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها»[٦]. لذلك كان «لا بد للسالك من شيخ يربيه ويرشده إلى سبيل الله تعالى لأن الله أرسل للعباد رسولا للإرشاد إلى سبيله فإذا ارتحل صلى الله عليه وسلم فقد خلف الخلفاء في مكانه حتى يرشدوا إلى الله تعالى»[٧].

فالقدوة في نظر الغزالي كالإمام الذي يحتاج للإقتداء به في الصلاة[٨]. والمربي سواء أكان عالماً أم معلماً فهو كالإمام الذي يتحمل مسؤولية كبيرة ومن

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧٤.
(٣) المرجع السابق، ص٧٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٤١.
(٥) سورة الصف، الآية: ٣.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٨١.
(٧) الغزالي: ايها الولد، ص١٢٨.
(٨) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٨١.

حق الناس عليه أن يكون قدوة صالحة. ومعلوم كما يقول الغزالي «أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا»[1].

وإذا كان هذا هو الموقع الذي يحتله المربي - حسب ما يرى الغزالي - كان من واجب المعلمين أن يكونوا «صورة حية لما يدعون إليه... علماً وخلقاً وتديناً ودفاعاً عن الحق ووقوفاً في وجه الظلم وسعياً وراء الكمال ومن هنا ما احتلوه من منزلة في الحضارة الإسلامية لا من أجل ما يقدمونه من علم فقط»[2].

وإذ يجعل قدوته الدائمة شخصية رسوله فهو يجعلها قدوة متجددة على مر الأجيال... متجددة في واقع الناس. إنه لا يعرض عليهم هذه القدوة للإعجاب السالب والتأمل التجريدي في سبحات الخيال. «إنه يعرضها عليهم ليحققوها في ذوات أنفسهم، كل بقدر ما يستطيع أن يقيس، وكل بقدر ما يصبر على الصعود ومن ثم تظل حيويتها دافقة شاخصة ولا تتحول إلى خيال مجرد تهيم في حبه الأرواح دون تأثر واقعي ولا اقتداء»[3].

والغزالي كغيره من علماء المسلمين الذين سبقوه أو لحقوا به أدرك أهمية القدوة كطريقة من طرق التربية الدائمة. فالطفل بحاجة إلى قدوة في أسرته وخارجها تماماً كما يحتاج كل فرد من أفراد المجتمع الإسلامي إلى قدوة تسمه بسمات الإسلام وعاداته وتقاليده. مما يؤكد فاعلية القدوة وآثارها في التربية على صعيد كل من الفرد والمجتمع. ولذلك قال عمر رضي الله عنه «إذا زل العالم زل بزلّته عالم من الخلق»[4].

فالطفل الذي هو «أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش ومائل إلى كل ما يمال به إليه»[5].

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٧٨.

(٢) عبد الغني عبود: «المدرس في التربية الاسلامية»، مجلة التربية القطرية، السنة السابعة العدد ٢٦، ربيع الثاني ١٣٩٨ هـ - ابريل ١٩٧٨م ص٣٦.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٨٥.

(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٩.

(٥) المرجع السابق، ج٣، ص٧٨.

كيف له أن يتعلم الأمانة أو الصدق وهو يرى والده يسرق أو يكذب؟ لذلك جاء خطاب الله تعالى واضحاً وصريحاً عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[1] مما يعكس المسؤولية التربوية والدينية الملقاة على الفرد المسلم تجاه نفسه ومن يعول.

فالمربي سواء أكان أباً أو معلماً يجب «أن يكون عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأرباب الأبصار أكثر. فإذا خالف العمل العلم منع الرشد وكل من تناول شيئا وقال للناس: لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف يتقش الطين بما لا نقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ ولذلك قيل في هذا المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2] ولذلك كان وزر العالم في معاصية أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير يقتدون به. ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه والله أعلم»[3].

فطريقة القدوة كما هو ملاحظ من كلام الغزالي تعتبر من أهم طرق التربية في الإسلام على الإطلاق وذلك انطلاقا من كون الإسلام دين والأديان تنتشر بهذه الطريقة لا بحد السيف والإكراه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[4].

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٣) الغزالي: الآحياء، ج١، ص٧٢.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

* ضرب الأمثال والاستشهاد:

يعتبر ضرب الأمثال من الطرائق التعليمية الهامة في التربية الإسلامية لأن الأمثال وجه من وجوه التعبير في القرآن الكريم لقوله صلى الله عليه وسلم «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه واعتبروا بالأمثال»[1].

«وضرب المثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار والتقرير وترتيب المراد للعقل. وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس»[2].

ومن حكمة ضرب الأمثال في القرآن الكريم العون على معرفة البيان وذلك لأن «الحكم والأمثال تصور المعاني تصور الأشخاص، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس»[3].

ولقد أوجب الإمام الشافعي معرفة الأمثال على المجتهد على اعتبار أنها من علوم القرآن الكريم[4]. «وقال الخفاجي سمّي مثلاً لأنه مماثل بخاطر الإنسان أبداً أي شاخص فيتأسى به ويتعظ ويخشى ويرجو، والشاخص المنتصب. وقد جاء بمعنى الصفة كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[5] أي الصفة العليا وهو قول «لا إله إلا الله». وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[6] أي صفتها»[7].

وتحث آيات القرآن الكريم على الإهتمام بالأمثال وفهمها ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[8]

(١) رواه البيهقي عن ابي هريرة، البرهان في علوم القرآن ج١، ص٤٨٦.
(٢) الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٤٨٦، ٤٨٧.
(٣) المرجع السابق، ص٤٨٨.
(٤) المرجع السابق، ص٤٨٦.
(٥) سورة النحل، الآية: ٦٠.
(٦) سورة الرعد، الآية: ٣٥.
(٧) الزركشي: المرجع السابق، ص٤٨٨.
(٨) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[١].

ففي كل الأحوال تبقى الأمثال أوقع في النفس وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر وأقوم في الإقناع. وقد أكثر الله تعالى من الأمثال في القرآن[٢] للتذكرة والعبرة، وقد ضربها النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه. واستعان بها الداعون في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير أو المدح أو الذم[٣].

ولقد استفاد الغزالي من هذه الطريق إلى جانب إفادته من الإستشهاد بآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول وتوظيفه الحكم والأقوال والشعر بشكل مكنه من إبراز رأيه بإسلوب مقنع وبعبارة موجزة كان لهما تأثير ووقع بالغين في النفوس.

ومن يرجع إلى كتب الغزالي خاصة «الإحياء» منها يجد مهارة الغزالي في استخدام طريقة المثال والإستشهاد في شتى المجالات التي كتب فيها قناعة منه بأهمية هذه الطريقة في تحقيق أهدافه التربوية. وفيما يلي بعض من أوجه الإستخدام هذه:

١ ـ حتى يكون للمعنى وقع في قلب المستمع:

ومن ذلك ما أورده عن الرسول صلى الله عليه وسلم في مجال استباق المأموم للإمام «أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول رأسه رأس حمار»[٤]. ويعقب الغزالي معلقاً على ما ورد في الحديث الشريف قائلاً «وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس

---

(١) سورة الحشر، الآية ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآيات ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٥.

(٣) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص٢٤٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب الأذان، حديث رقم ٥٣.

الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهي البلادة والحمق. ومن رفع رأسه قبل الإمام صار رأسه رأس حمار في معنى البلادة والحمق وهو المقصود دون الشكل الذي هو قالب المعنى»[1].

٢ ـ لتقريب المعاني غير المحسوسة من أفهام الناس:

ويبدو ذلك واضحاً من خلال المثل الذي يضربه الإمام الغزالي لبيان حال العقل وجنوده حيث يقول «مثل العقل مثل فارس مقيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه مؤدباً معلماً كان جديراً بالنجاح، ومتى كان هو في نفسه أخرق وكان الفرس جموحاً والكلب عقوراً فلا فرسه ينبعث تحته منقاداً ولا كلبه يسترسل بإشارته مطيعاً فهو خليق بأن يعطب فضلاً عن أن ينال ما طلب، وإنما خرق الفارس مثل جهل الإنسان وقلة حكمته وكلال بصيرته، وجماح الفرس مثل غلبة الشهوة خصوصاً شهوة البطن والفرج وعقر الكلب مثل غلبة الغضب واستيلائه»[2].

٣ ـ لتأكيد فكرة يؤمن بها ويدافع عنها:

لذلك نرى الغزالي عندما يريد أن يتحدث عن علاقة العلم بالعمل يستشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»[3]. كما وأنه يضرب مثلاً على لسان عيسى عليه السلام يقول فيه «مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل المرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد»[4]. ليس هذا فحسب بل أن الغزالي يلجأ إلى أقوال العلماء والحكماء كقول مالك بن دينار «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج١، ص١٢٢.

(٢) المرجع السابق، ج٣، ص٨.

(٣) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٧.

(٤) الغزالي: الاحياء ج١، ص٧٩.

القلوب كما يزل القطر عن الصفا»[1]. هذا إلى جانب إستشهاده بالشعر للتأكيد على صحة ما ذهب إليه في هذا المجال[2].

يتضح مما سبق كيف أن الغزالي أدرك فعالية الأمثال كطريقة من طرق التربية التي من خلالها يمكنه أن يحقق الأهداف التربوية التي سعى لها بأسلوب رقيق ومشوق لما يمتاز به من تأثير في النفوس والأعمال، مما يحرك في الإنسان مشاعره وعواطفه وميوله نحو الخير بعيداً عن الشر. وفي هذا دلالة على مدى أهمية هذه الطريقة بالنسبة له في تحقيق أهدافه التربوية.

*** القصص:**

جاء في لسان العرب القصة الخبر المقصوص بفتح القاف[3]. والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب[4].

ولقد تضمن التراث الأدبي للعرب في الجاهلية كثيراً من القصص المحلي والمنقول وكان هذا القصص يدور حول الجان والسحر «أما قصص القرآن فهي قصص عن حياة الأنبياء والرسل والأقوام السابقة على الإسلام فقد أراد الله أن يفرق بينه وبين قصص العرب التي قام بعضها على الخيال أو الكذب أو التحريف أو التغريب بالإضافات والتعديل»[5] ولقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾[6] وقوله أيضاً: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[7].

والقصة في القرآن «ليست عملاً فنياً مستقلاً في موضوعه وطريقة عرضه

---

(١) المرجع السابق، ص٧٨.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) ابن منظور: لسان العرب.
(٤) الرازي: مختار الصحاح، ٥٣٨.
(٥) امينة احمد حسن: نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، ص٢٤٣.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ٦٢.
(٧) سورة يوسف، الآية: ٣.

وإدارة حوادثه كما هو الشأن في القصة الفنية الحرة التي ترمي إلى أداء غرض فني طليق، إنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية»[١].

ويحفل القصص القرآني «بكل أنواع التعبير الفني ومشخصاته من حوار إلى سرد إلى تنغيم موسيقي إلى أحياء للشخص، إلى دقة في رسم الملامح إلى اختيار دقيق للخطة الحاسمة في القصة»[٢].

فالقصة في القرآن صورة من الصور الفنية والجمالية التي تسهم في تحقيق الأهداف التربوية الإسلامية وفي طليعتها بناء الشخصية الإسلامية من خلال «توصيل المعلومات والحقائق بطريقة شيقة لذيذة، وتربية الأطفال تربية خلقية صحيحة فهي تضع المثل أمامهم وتستثير ميلهم إلى التقليد وتحرك قابليتهم للإستهواء»[٣].

وإلى جانب الأهداف العامة للقصة التي تشتمل على الإنذار والعبرة والعظة والتذكرة وبيان عظمة الله وقدرته قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٤] هناك هدف خاص يتعلق بتثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم أمام الكفار والمشركين لقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٥].

وعلى كل حال فإن «القصة نوع من الأدب له جماله وفيه متعة ويشغف به الصغار والكبار إذا أجيد إنشاؤه، وأجيدت وساطته، وأجيد تلقيه. والقصة أدب مقروء أو مسموع»[٦]. «وأياً كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية... والإسلام يدرك هذا الميل الفطري إلى القصة ويدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب فيستغلها لتكون وسيلة من وسائل التربية والتقويم»[٧].

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص١١٧.
(٢) سعيد اسماعيل علي: اصول التربية الاسلامية، ص٣٦.
(٣) صالح عبد العزيز، عبد العزيز عبد المجيد: التربية وطرق التدريس، ج١، ص٢٤٧.
(٤) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٥) سورة هود، الآية: ١٢٠.
(٦) عبد العزيز عبد المجيد: القصة في التربية، ص١٢.
(٧) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٩٣.

ولقد سعى الإمام الغزالي للإفادة من هذه الطريقة في تحقيق أهدافه التربوية من خلال استخدامها في مجالات التربية المختلفة التي شملها منهاجه. إلا أنه حذر من وعاظ زمانه الذين أساءوا استعمال القصص بشكل يتنافى مع ما ورد في القرآن الكريم. ولقد عبر عن ذلك في إشارته إلى أن أكثر ما يواظبون عليه وعاظ زمانه «هو القصص والأشعار والشطح والطامات. أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص»(١).

والغزالي في موقفه هذا ينطلق من مواقف صحابة الرسول كعمر وعلي رضي الله عنهما. «وروي أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت»(٢) في حين «أخرج علي رضي الله عنه القصاص من مسجد جامع البصرة»(٣) ويرى أحمد أن «أكثر الناس كذباً القصاص»(٤).

فانطلاقاً من حرصه على الإسلام وحسن تربية المسلمين حذر الغزالي من شطح القصاصين «الذين اشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الإختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها»(٥).

وبذلك يكون الغزالي قد حدد طريقته في القص وهي الإلتزام بما جاء فيه القرآن الكريم أو ما نهج نهجه بعيداً عن الكذب أو ما قد يؤدي إلى اللبس وسوء الفهم. وفي حال اجتناب هاتين الآفتين يرى الغزالي «إن من القصص ما ينفع سماعه»(٦). ورغم ذلك فإنه يبقى متخوفا من القصص بعض الأحيان حتى ولو

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٤٧.
(٢) المرجع السابق، ص٤٦.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٤٧.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

كان صادقاً لقوله «ومنها ما يضر وإن كان صدقا»[1] لذلك يرى الغزالي ضرورة في الرجوع إلى «القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن ويصح في الكتب الصحيحة من الإخبار»[2].

فعلى سبيل المثال إن الغزالي عندما يتطرق للحديث في مجال تربية النفس وكسر شهوة الفرج ـ التي يعتبرها «أغلب الشهوات على الإنسان وأعصاها عند الهيجان على العقل»[3] ـ يلجأ لقصص القرآن الكريم والحديث الشريف فيعرض قصة يوسف عليه السلام مع زليخا، إلى جانب قصة الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم الغار[4] بإسلوب بعيد عن الفتنة أو الإغراء وضمن الحدود المشروعة التي أباحها الإسلام، أي وفق الكتاب والسنة النبوية الشريفة.

«وهكذا تلتقي مطالب الفن ومطالب التصور الإيماني دون تعارض ولا نزاع. ويستفيد الإسلام بالقصة في التربية دون أن يخرج عن أهدافه الأصلية، أو يجانب الحق أو يحول الفن إلى خطب وعظية سطحية التأثير»[5] وهو ما جهد الغزالي لتحقيقه من خلال اعتماده القص كطريقة من طرائق التعليم التي برع في استخدامها وتوظيفها لتحقيق أهدافه التربوية.

*** العادة:**

تلعب العادة ـ كما هو معلوم ـ دوراً هاماً وخطيراً في حياة الشعوب والأمم والأفراد. ولقد جاء الإسلام وكان في طليعة مهامه مقاومة عادات الجاهلية التي كانت تقوم على العصبية وما يتفرع عنها من حقد وحسد وكذب وغيبة ونميمة وكبر وعنجهية، هذا إلى جانب العادات الأخرى التي عرفها المجتمع الجاهلي كعبادة الأصنام والرق والربا والزنا والقمار وشرب الخرة ووأد البنات. ولقد عمد

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ج٣، ص١١٢.
(٤) المرجع السابق، ص١١٣.
(٥) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٢٠.

الإسلام إلى مواجهة هذه العادات وكانت الوسيلة إلى ذلك تقوم على نشر الفضيلة التي دعا إليها الدين الحنيف على اعتبار أن الإنسان خليفة الله في أرضه. ولذلك كانت طريقة غرسها أو اقتلاعها من الطرق التربوية التي اعتمدها الإسلام لمساعدة الفرد المسلم على اكتساب اتجاهات سلوكية تمكنه من أن «يحول الخير كله إلى عادة تقوم بها النفس بغير جهد وبغير كد وبغير مقاومة»(١). وإنما عن وعي وإدراك كاملين للأسباب والوسائل والأهداف التي تقف وراء ما يقوم به من أفعال وأقوال.

ويرى الغزالي أن اكتساب العادات والأخلاق الحسنة فيما لو لم يكن ذلك موجوداً في الطبع أو الفطرة لا بد وأن يكون عن طريق «الاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم»(٢). كما ويعبر الغزالي عن إمكانية «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة»(٣) وهو بذلك إنما يعرب عن قناعته بضرورة «حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»(٤) أي الاعتياد على الأعمال المرجوة. ويمثل الغزالي على ذلك مشيراً إلى أن من يريد أن «يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال. فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهداً نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعاً له ويتيسر عليه فيصير به جواداً. وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه»(٥). وتبعاً لذلك يرى الغزالي أن «جميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق»(٦) أي طريق التخلق والاعتياد حتى يصبح الفعل الصادر عن صاحبه لذيذاً «فالسخي

(١) المرجع السابق ج١، ص٢٠٠.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٣.
(٣) المرجع السابق، ص٦٢.
(٤) المرجع السابق، ص٦٣.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

هو الذي يستلذ بذل المال الذي يبذله دون الذي يبذله عن كراهة، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع»[1].

وينتهي الغزالي إلى بلورة قناعة أكيدة مفادها أن الأخلاق المحمودة لن يتأتى لها الرسوخ في النفس «مالم تتعود النفس جميع العادات الحسنة ومالم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليه مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»[2] تماماً كما قال صلى الله عليه وسلم «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[3].

وفي نظر الغزالي أن للعادة آثاراً كبيرة وعجيبة على النفس ولذلك فإننا نرى «المقامر قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به وذلك لطول إلفة له وصرفه نفسه إليه مدة»[4].

ولطالما أن النفس نتيجة العادة تستلذ الباطل والمقابح وتميل إليها فالأولى أن تستلذ الحق وأفعال الخير لو ردت إليها وواظبت عليها مدة من الزمن لأن «ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين»[5]. الذي قد يغلب على بعض الناس بالعادة.

ويتضح من خلال ما سبق أنه يمكن عن طريق الرياضة ـ «وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء»[6] ـ اكتساب العادات الحسنة والأخلاق الجميلة. ويمثل الغزالي على ذلك بقوله «إن من أراد أن يصير سخياً عفيف النفس حليما متواضعا فيلزمه أن يتعاطى أفعال هؤلاءتكلفاً حتى يصير ذلك طبعاً له فلا علاج له إلا ذلك»[7].

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) رواه النسائي في كتاب النساء، حديث رقم ١.
(٤) الغزالي: الإحياء ج٣، ص٦٤.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ولذلك يقرر الغزالي أن الرياضة من أفعل الوسائل في تربية الصبيان خاصة وأن الصبي قابل لكل نقش ففي حال «عوّد الخير وعلمه نشأ ليه وسعد في الدنيا والآخرة. . . وإن عوّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك»[١]. وفي هذا دليل جلي على مدى الأهمية التي أولاها الغزالي للعادة في مجالات التربية الإسلامية ولذلك اعتبرت العادة من أهم الطرق التربوية لديه معتمداً في ذلك على منهج القرآن الكريم والحديث الشريف حيث أن «كل عادة من عادات الإسلام تبدأ بإستحياء الرغبة ثم تتحول إلى عمل حي لا يكل إداؤه شيئاً من الجهد، وهو مع ذلك رغبة واعية لا أداء آلي مجرد من الشعور»[٢].

*** الممارسة والعمل:**

إن الأسلام دعوة إلى العمل، كما وأن التفاضل بين المسلمين تفاضل بالأعمال الصالحة والخالصة لوجه الله تعالى. والعبادات التي شرعها الإسلام «تتطلب ممارسة وإسلوباً عملياً»[٣] فهي «أشبه بالتمارين الرياضية التي يقبل عليها الإنسان بشغف، ملتمساً من المداومة عليها عافية البدن وسلامة الحياة»[٤].

فالعبادات في الإسلام طرق للتربية على منهج الإسلام وهي عبارة عن «تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»[٥].

فممارسة العبادات «تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء أو إلى خلق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإنسان»[٦] خليفة الله في أرضه ومحقق لسعادة الدنيا والآخرة من خلال

(١) المرجع السابق، ص٧٨.
(٢) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٢٠٤.
(٣) محمد منير مرسي: التربية الاسلامية اصولها وتطورها في البلاد العربية، ص١٣٩.
(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص٧.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) عبد الغني عبود: في التربية الاسلامية، ص١٥٧.

التزامه بتعاليم الإسلام ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾[1] ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اتقوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا إذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»[2].

فقيمة العبادات في الإسلام «أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه ـ في كل لحظة ـ ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون»[3]. ولذلك يتسع مفهوم العبادة في الإسلام ليشمل كافة الأعمال التي يقوم بها الإنسان.

ومن أجل ذلك جاء قول الرسول صلى الله عليه وسلم صريحا وواضحاً في تبيانه لمفهوم الصدقة في الإسلام فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[4].

وطبيعي أن تكون نظرة الغزالي ضمن هذا الإطار الذي أدرك من خلاله أهمية الممارسة العملية كطريقة من طرق التربية الإسلامية حيث «ينبغي على المربي المسلم أن يهتم بتنمية السلوك العملي الرشيد وأن يدرك أن تلاميذه إنما يحسن تعليمهم إذا هم مارسوا ما تعلموه من خلال خبرتهم وتجربته المباشرة. كما يجب أن يهتم المعلم بأظهار الجوانب الوظيفية والتطبيقية لما يتعلمه التلميذ في واقع حياته كفرد وفي واقع المجتمع الإسلامي الكبير»[5].

ولذلك ليس غريباً على الغزالي أن يوصي تلميذه قائلاً «لا تكن من الأعمال

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) رواه أحمد في المسند ج٥، ص٢٥١، ٢٦٢.

(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٣٤.

(٤) رواه البخاري في كتاب الصلح، حديث رقم ١١.

(٥) محمد منير مرسي: التربية الاسلامية اصولها وتطورها في البلاد العربية، ص ١٣٩.

مفلساً ولا من الأحوال خالياً وتيقن أن العلم المجرد لا يأخذ اليد، مثاله: لو كان على رجل في برية عشرة أسياف هندية مع أسلحة أخرى وكان الرجل شجاعا وأهل حرب فحمل عليه أسد عظيم مهيب فما ظنك: هل تدفع الأسلحة شره عنه بلا استعمالها وضربها؟ ومن المعلوم أنها لا تدفع إلا بالتحريك والضرب فكذا لو قرأ رجل مائة ألف مسألة علمية وتعلمها ولم يعمل بها، لا تفيده إلا بالعمل»[١] لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[٢].

والإيمان كما يورد الغزالي «قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان»[٣] فمن أجل أن يكتمل هذا الإيمان يعاود الغزالي التأكيد على العمل حتى «يترجم هذا اليقين إلى سلوك حي»[٤]. فيخاطب تلميذه قائلاً «أيها الولد ما لم تعمل لم تجد الأجر»[٥].

وفي هذا تأكيد على وظيفة العلم الإساسية وهي تغيير سلوك الإنسان ومساعدته على اكتساب الاتجاهات والمواقف التي لا بد وأن تترجم عملاً صالحاً حيث تشكل بدورها ثمرة هذا العلم. وهكذا فإن الغزالي ينبه تلميذه إلى العلاقة المتلازمة بين العلم والعمل على قاعدة أن كل منها طريق إلى الآخر وهذا ما يؤكده في قوله لتلميذه بأن «العلم بلا عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون»[٦]. مما يعني بدوره أن ممارسة العمل بحد ذاته وسيلة هامة وفاعلة من وسائل التربية الإسلامية خاصة إذا كان هذا العمل يستند إلى العمل الواجب«وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله. ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تفهم أموراً، تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة»[٧].

---

(١) الغزالي: ايها الولد، ص٩٨.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٣) الغزالي: ايها الولد، ص١٠٠.
(٤) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الامام الغزالي، ص٨٩.
(٥) الغزالي: ايها الولد ص١٠٣.
(٦) المرجع نفسه، ص١٠٨.
(٧) الغزالي: الإحياء، ج١، ص١٩١.

فالتربية عن طريق ممارسة الأعمال أو أداء الفرائض «تعوّد المرء على النظام في الحياة وعلى ضبط النفس وعلى الحياة الاجتماعية التعاونية وعلى التضحية في سبيل الجموع كلها، وهي تتطلب مراعاة وممارسة يومية تلازم حياة الإنسان»[١].

ويفترض الغزالي بالتربية التي تقوم على الممارسة أو أداء الفرائض الصدق بحيث يجتهد صاحبها «حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به»[٢] وفي حال كان يعاني من قبل هذه المشكلة يوصيه «لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر»[٣] ويمثل الغزالي على ذلك فيقول «ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته... فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق في الأعمال»[٤]. من هنا تبرز أهمية الممارسة الصادقة كطريقة من طرق التربية القادرة على إكساب الفرد الخبرات والاتجاهات المرجوة في عملية بناء شخصية الإنسان المسلم.

*** المساءلة (المناقشة والحوار):**

لقد جاء الإسلام دعوة لتحرير العقل من قيود الجهل والتقليد الأعمى الذي درج عليه الآباء والأجداد ولقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[٥].

وإذا كان الشرك حجر عثرة أمام استعمال العقول فلقد كان الإسلام دعوة للتفكر وتحرير العقل من خلال منهج القرآن الذي اعتمده الرسول صلى الله عليه

---

(١) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي، ص١٠٤.
(٢) الغزالي: الإحياء، ج٤، ص٤١٢.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٣.

وسلم في نشر الدين وتعليم المسلمين. ولقد كانت المساءلة من أهم الطرق التي استخدمها القرآن الكريم في منهاجه التربوي. ومعلوم أن هذه الطريقة تقوم على الإستماع والفهم والإدراك أي أنها تقوم على توظيف العقل من أجل إدراك الحقائق التي يدعو إليها الإسلام. ولذلك زخر القرآن الكريم بالتساؤلات الكبيرة ومن أبرزها التساؤل الضخم الذي تبتديء به سورة الماعون لقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾[1]. فالتساؤل «يوجهه ربنا تبارك وتعالى إلى جميع مخلوقاته ممن يتأتى منه الرؤية والفهم من هو الذي يكذب بالدين، وينكر حقيقته ويرفض توجيهاته؟.....إن كل مستمع إلى هذا التساؤل يترقب معرفة هذا الإنسان الذي يقرر الإنسان أنه يكذب بالدين ويأتي الجواب صريحاً واضحاً لا غموض فيه»[2] عندما يقول تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾[3].

والقرآن الكريم يستخدم الطريقة الحوارية مع المسلمين وغير المسلمين بشكل يؤثر على العقل والوجدان وبأسلوب يعتمد على الإقناع من خلال المناقشة التي تكشف عن قدرة الله وآياته المنبثة في السموات والأرض والأمثلة التي تدل على ذلك كثيرة[4].

ولقد سار الرسول صلى الله عليه وسلم على منهج القرآن الكريم في حواره مع الكفار وفي حلقات التربية التي كان يقيمها للسلف الصالح من أتباعه ويرد فيها على أسئلتهم وإستفساراتهم ومن أمثلة ذلك ما جاء في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة على قصعتها قالوا: أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟قال: بل أنتم حينئذ كثر. ولكنكم غثاء كغثاء السيل. ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم.

---

(١) سورة الماعون، الآية: ١.

(٢) الشيخ عبد الرحمن نجار: خواطر مؤمنة، ص١٥٥.

(٣) سورة الماعون، الآيتان: ٢، ٣.

(٤) انظر اواخر سورة الملك.

وليقذفن في قلوبكن الوهن. قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

ولقد استفاد الغزالي من هذه الطريق غاية الإفادة حيث أنه تمكن من توظيفها لتخدم أهدافه التربوية على أوسع نطاق. والمتتبع لكتاباته يلحظ مدى عنايته بها لدرجة يمكننا معها القول إنها كانت السبب لكتابة كثير من رسائله وخاصة رسالته الشهيرة «أيها الولد»[2] التي تعتبر من أهم ما كتب الغزالي في مجال التربية والعليم إلى جانب ما جاء في «كتاب الإحياء».

وعلى خط آخر في مواجهة آراء الفلاسفة وغيرهم من أصحاب المذاهب التي شكلت خطراً على الإسلام لجأ الغزالي إلى أسلوب الحوار والمناقشة وإعمال الفكر في تعاطيه مع المسائل المختلف عليها بغية كشفها ورد شبهتها.

ففي رده مثلاً على مذهب التعليم بالنسبة لمسألة المعلم المعصوم يحاورهم الغزالي قائلاً بأن «معلمنا المعصوم هو محمد عليه الصلاة والسلام، فإذا قالوا: «هو ميت» فنقول «ومعلمكم غائب» فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم شكل فنقول: ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[3] وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته»[4].

فعلى هذا النمط وعلى هذه الطريقة الحوارية التي تعتمد على العقل يحاور الغزالي خصومه ويتفوق عليهم.

ومن يعود إلى رسالة (إلجام العوام عن علم الكلام) يرى أيضاً كيف أن

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الملاحم حديث رقم ٥.
(٢) الغزالي: ايها الولد، ص٨٣ ـ ٨٧.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٤) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٢٠.

سببها سؤال موجه من التلميذ إلى الغزالي. علاوة على ذلك فإن الرسالة تعتمد المحاورة والمناقشة كطريقة للرد على «الأخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال وحيث اعتقدوا في الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والإستقرار وما يجري مجراه مما أخذوه من ظواهر الأخبار وصورها»[1].

وعلى الرغم من اقتناع الغزالي بجدوى هذه الطريقة في التربية والتعليم إلا أنه يحذر من آفات المناظرة وما ينجم عنها من آفات مظلمة في حال قصد بها «الغلبة والإفحام وأظهار الفضل والشرف والتشدق عند الناس، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس»[2] لأنها في هذه الحالة تكون منبعاً لجميع «الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس»[3] وذلك لأن «من غلب عليه حب الإفحام والغلبة والمناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة»[4] كالحسد والحقد والكذب والتجسس «والفرح لمساءة الناس والغم لمسارهم»[5] والنفاق والإستكبار والرياء.

وصحيح كما يقال إنه «لولا حب الرئاسة لاندرس العلم»[6] إلا أن ذلك لا يدل «على أن طالب الرئاسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[7] فطالب الرئاسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علماء السلف، ولكنه يضمر الجاه، فمثاله مثال الشمع

---

(١) الغزالي: الجام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٤، ص٦٠.
(٢) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٥٨.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٦٠.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) رواه البخاري في كتاب الجهاد حديث رقم ١٨٢.

الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاح غيره في هلاكه، فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها»[1].

ولا يقف الغزالي عند حد النقد السلبي وإنما يعمد لوضع الشروط اللازمة للإبقاء على المناظرة ضمن إطار «التعاون على طلب الحق من الدين»[2]. ويحدد ذلك في ثمانية شروط[3].

وفي ضوء ما سلف يمكننا القول إن طريقة المساءلة والحوار تلعب دوراً بارزاً في التربية عند الغزالي لما لها من أثر في مجال التربية العقلية. ومعلوم أن أسلوب المحاكمة العقلية الذي يقوم عليه كل من الحوار والمناقشة هو أسلوب «يمكن الإنسان من التمييز بين الحق والباطل بالحجة وبالمشاهدة الحسية وليس بالقسر أو التقليد الأعمى»[4]. وهو ما سعى الغزالي لتحقيقه عبر منهجه التربوي على صعيد كل من الفرد والمجتمع.

*** العظة والنصح:**

تلعب هذه الطريقة التعليمية دوراً هاماً في مجال التربية الإسلامية، خاصة وأن القرآن الكريم الذي هو كلام الله موعظة ـ فيها شفاء ـ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى﴾[5] لذا فإن موعظة القرآن لا تجاريها موعظة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾[6] كما أن الفوز بهذه الموعظة هو من نصيب المتقين لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[7].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦١.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) انظر الاحياء، ج١، ص٥٦،٥٧،٥٨.
(٤) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي، ص١١٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٦) سورة النساء، الآية: ٥٨.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٣٨.

ولكي تأتي الموعظة مؤثرة لا بد وأن تتوفر لها الأجواء التي تساعدها على شق «طريقها إلى النفس مباشرة عن طريق الوجدان وتهزه هزاً وتثير كوامنه لحظة من الوقت»[1] وتحتاج الموعظة ضمن هذا السياق إلى «القدوة والوسط الذي يسمح بتقليد القدوة ويشجع على الأسوة بها... وحين توجد القدوة الصحيحة فإن الموعظة تكون ذات أثر بالغ في النفس وتصبح دافعاً من أعظم الدوافع في تربية النفوس»[2] مما يسهم في «تغيير سلوك الفرد وإكسابه الصفات المرغوب فيها»[3].

والإنسان مفطور على تقبل النصيحة خاصة «من محبيه وناصحيه فالنصح والوعظ يصبح في هذه الحالة ذا تأثير بليغ في نفس المخاطب ولا سيما فيما يكون صادراً عن محبة ومن القلب وإلى القلب، فالنصح والوعظ من والد محب أو والدة أو أخ كبير أو صديق أو معلم أو شيخ محترم قد يغير مجرى حياة الإنسان، وما لم يكن النصح والوعظ صادراً من القلب وإلى القلب فتأثيره يكون ضعيفاً أو معدوماً تقريبا»[4].

والتربية الإسلامية تعتمد على الوعظ كطريقة تعليمية مستوحاة مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حيث يعكس هذان المظهران نمطاً تربوياً رفيع المستوى في مجال النصح والوعظ يوجب على المربي أن يعيشه كي يكون القدوة لتلامذته ومجتمعه.

ومن نماذج الوعظ القرآني ما قاله لقمان لإبنه[5] وما جاء في سورة النساء[6] والإسراء[7] من نصح للمسلمين والملاحظ أن «معظم المواعظ القرآنية تدور حول

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٨٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) عبد الجواد السيد بكر: فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف، ص٣٤٩.
(٤) محمد فاضل الجمالي: نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الاسلامي، ص١١١.
(٥) سورة لقمان، الآيات: ١٣ ـ ١٩.
(٦) سورة النساء، الآيات: ٣٦ ـ ٥٩.
(٧) سورة الاسراء، الآيات: ٢٢ ـ ٣٨.

تربية الإنسان عقديا وسلوكياً، ومن ثم تأتي أهمية هذه الطريقة العظيمة من طرق التربية الإسلامية لتكوين وتنشئة وإعداد المسلم العابد الصالح بحيث يكون سلوكه صائباً في معتقده ودينه وعقله وعمله وهذا هو هدف الموعظة كما جاءت في القرآن الكريم كما هو هدف القرآن كله»[1].

ولقد أدرك الغزالي أهمية هذه الطريقة في رسالته التربوية، فالناظر إلى كتاب «الإحياء» يجد أنه يقوم بمعظمه على الوعظ الهادف إلى بناء الإنسان عقليا وروحياً ونفسياً وجسدياً واجتماعياً وسلوكياً، ففيه من الكتب والرسائل الوعظية ما يغطي كافة الجوانب المتعلقة بشخصية الإنسان.

وليس كل من ادعى العلم أو اعتلى المنبر أصبح واعظاًحتى أن الغزالي لا يرى نفسه أهلاً للوعظ وفي ذلك يقول «فلست أرى نفسي أهلاً له لأن الوعظ زكاة نصابها الإتعاظ ومن لا نصاب له كيف يخرج الزكاة، وفاقد النور كيف يستنير به ومتى يستقيم الظل والعود أعوج»[2].

وبهذا يؤكد الغزالي على أهمية القدوة في طريقة الوعظ ويعزز وجهة نظره هذه بما «أوحى الله تعالى إلى عيسى بن مريم عليه السلام عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني»[3]

ويعتمد الغزالي في وعظه على محاورة العقل حتى وإن كان هذا الوعظ موجهاً لنفسه التي «صدّقت وقبلت» بواعظي الموت والقرآن «قولا وعقلا» إلا أنها «تمردت تحقيقاً وفعلاً» مما اضطره لمخاطبتها قائلاً «أما أنت مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق وأنه النصح الصادق، فإنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ فقالت نعم. فقلت قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

---

(١) علي خليل ابو العنين: فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، ص٢٣٤.
(٢) الغزالي: الرسالة الوعظية، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٤، ص٥٤،٥٥.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾[1]. فقد وعدك الله تعالى بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا فهل تنزهت عن إرادة الدنيا أو حبها، ولو أن طبيبا نصرانياً وعدك بالموت أو المرض على تناولك ألذ الشهوات لتحاشيتها واتقيتها. أكان النصراني عندك أصدق من الله تعالى؟ فإن كان ذلك فما أكفرك. أو كان المرض أشد عندك من النار، فإن كان ذلك فما أجهلك فصدقت ثم ما انتفعت بل أصررت على الميل إلى العاجل»[2]. ويتابع الغزالي على هذا النحو في الوعظ على أمل أن يصل بنفسه وبغيره إلى ما فيه سلامة العاقبة.

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن ما جاء في الرسالة الوعظية يؤكد على قناعة صاحبها بأهمية العظة والنصح في المجال التربوي. ومن يتابع الغزالي في «الإحياء» وغيره من الكتب يطلع على مدى إهتمامه بهذه الطريقة واعتماده عليها في التأثير على نفسية تلامذته من خلال نصح جهد لنفسه أن يكون صادراً عن القلب حتى يقع في القلب.

*** الثواب والعقاب:**

العقوبة ـ لغة ـ تعني الجزاء بالشر. والعرب تقول: أعقبت الرجل أي جازيته بخير وعاقبته أي جازيته بشر[3]. وقيل أعقبه على ما صنع: جازاه والعقبى جزاء الأمر[4]. وقد وردت كلمة عقاب ومشتقاتها في القرآن الكريم ستا وعشرين مرة[5].

والعقوبة في القانون الوضعي هي عبارة عن «قدر مقصود من الألم يقرره المجتمع ممثلاً في مشرعه ليوقع كرهاً على من يرتكب جريمة في القانون بمقتضى حكم يصدره القضاء»[6].

---

(١) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.

(٢) الغزالي: الرسالة الوعظية، ص٥٦.

(٣) المنجد.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، فصل الباء حرف العين.

(٥) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٤٦٧.

(٦) محمد زكي ابو عامر: قانون العقوبات القسم العام، ص٣٧٠، ٣٧١.

«والعقوبة في الشريعة الإسلامية هي عبارة عن «مؤيد شرعي الغاية منه ضمان نفاد الأحكام الشرعية الأصلية التي شرعت لتحقيق مصالح العباد على وجه يوفر العدالة بينهم»[١].

وما يجب أن ندركه هو أن العقوبة في الإسلام جاءت لتخدم هدفا تربوياً سعى الإسلام لتحقيقه من خلال إصلاح أحوال الناس وتهذيب أخلاقهم وإحداث التغييرات المرغوبة في سلوكهم وشتى نواحي حياتهم.

فلحكمة شاءها الله تعالى «في إصلاح النفوس وتهذيبها وتوجيهها إلى السلوك القويم والصراط المستقيم أقر الإسلام مبدأ الثواب والعقاب كليهما، لأن الله الذي ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢]. ينبئنا أن النفس البشرية ليست على وتيرة واحدة في عباده من حيث ما تستجيب له ويغريها بالإستقامة ومجاراة الحق والخضوع لتوجيه الرشاد فيقول تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾[٣]. فهذه الآيات الكريمة إثبات قاطع بأن طبيعة النفس الشحيحة التي لا تشكر نعمة الله لا يغريها غنى، بل أن هذا الغنى يظهرها على حقيقتها واقعاً وسلوكاً فتستحق العقاب»[٤].

وتمشياً مع حكم الإسلام واقتضاء بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية أخذ المربون المسلمون بمبدأ الإستخدام الواعي والهادف لطريقة الثواب والعقاب في المواقف التربوية. وقرروا على ضوء ذلك «عدة مبادىء في العقاب مستمدة من الإسلام نفسه. هذه المبادىء هي على الترتيب: النصح والإرشاد ثم التأنيب على إنفراد، ثم تقريع على رؤءس الأشهاد ثم الضرب آخر الأمر إذا لم تصلح

---

(١) احمد الحجي الكردي: المدخل الفقهي، ص٩.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٣) سورة التوبة الآيات: ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٤) حسين سليمان قوره: «الثواب والعقاب لهما استخدام تربوي حكيم لدى الاسلام والمسلمين»، مجلة التربية القطرية، العدد ٢٦، ص٣٧.

هذه الإجراءات السابقة. وجعلوا للضرب حدوداً وشروطاً. منها أخذ الإذن من الأب أو ولي الأمر، ومنها أن يكون الضرب من ثلاث إلى عشر لا تزيد على ذلك. هذا إلى أن المعلم من التلميذ هو بمنزلة الوالد، فما يفعله الوالد في عقاب إبنه وتربيته يفعله المعلم»[1].

ولكي تحقق العقوبة «أهدافهاالمتعلقة بتقويم سلوك التلاميذ وإصلاح أمرهم واستمرار نموهم السوي»[2] كان لا بد وأن تكون رادعة على المستويين الحسي والمعنوي بحيث «تختلف في نوعها وشدتها باختلاف تصرف الخارج عن النظام وبمدى خطورة هذا التصرف ومستوى المخالفة»[3].

ولو نظرنا إلى آراء عدد من المربين المسلمين لرأينا أنهم أجازوا مبدأ العقوبة كإجراء يلجأ إليه في حال فشلت أساليب التوجيه والإرشاد ومحاولات الوقاية. وفي هذا المجال يمكن الرجوع إلى ما جاء في «كتاب آداب المعلمين»[4] لمحمد بن سحنون (٢٠٢هـ ـ ٢٥٦هـ) وإلى «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين المتعلمين»[5] لأبي الحسن علي بن خلف القابسي (٣٢٤ ـ ٤٠٣هـ) وإلى ما جاء في مقدمة إبن خلدون[6].

والغزالي كغيره من المربين المسلمين الذين أباحوا العقوبة إستناداً إلى ما جاء في الكتاب والسنة النبوية الشريفة. ونقطة البداية في تعامله مع تلاميذه في هذا المجال تنطلق من شفقته عليهم ولهذا فهو يوصي المعلم بأيثار «الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه»[7] إقتداء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[8].

---

(١) أحمد فؤاد الاهواني: التربية في الاسلام، ص١٥.
(٢) عمر محمد التومي الشيباني: من اسس التربية الاسلامية، ص٤٥٩.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) ابن سحنون: كتاب آداب المعلمين، ص٣٥١ ـ ٣٦٦.
(٥) القابسي: احوال المتعلين واحكام المعلمين والمتعلمين، ٣١٩ ـ ٣٤٧.
(٦) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ص٥٤٠.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.
(٨) رواه النسائي في كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٥.

والعقوبة في نظر الغزالي وسيلة لتحقيق غاية في حال نفذت الوسائل وانعدمت السبل، هذا إلى جانب ضرورة اعتماد التدرج ومراعاة مشاعر المتعلم، والغزالي في هذا إنما يعبّر عن مدى فهمه لنفسية الأطفال على نحو يمكننا القول معه بأنه فاق ماذهب إليه علماء النفس التربوي في هذه الأيام، حيث إنه يبدأ بالثواب والحفز في تعاطيه مع تلاميذه فيقول «ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً ويعظم الأمر فيه ويقال له إياك أن تعود بعد ذلك لمثل ذا، وإن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس، ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانا والأم تخوفه بالأب وتزجره عن القبائح[١].

والغزالي كما هو واضح يؤثر المحبة والعطف في تعامله مع المتعلم حتى وإن كان لا بد من عقوبة فهو يحبذ العقوبة المعنوية أولاً وبشكل يحرص فيه على مراعاة مشاعر الأطفال، ولذلك فهو يوصي المعلم «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الإصرار»[٢] ولذلك فهو يدعونا لأخذ العبرة من قصة آدم وحواء عليهما السلام[٣].

وفي حال استنفذ المعلم سبله لا يرى الغزالي مانعاً من إنزال العقوبة

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٨، ٧٩.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٧١.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بالمتعلم وعلى التلميذ في هذه الحال «أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر»[1] لأن الصبر كما يقول «دأب الشجعان وكثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان»[2].

وتعقيبا على ما ورد في موضوع العقوبة عند الغزالي يمكن القول بأن «هذه خير نصيحة للآباء والأمهات في تربية أطفالهم فالغزالي ينهى عن الإكثار من العتاب كي يكون للوم أثر في نفوسهم فلا يعاتب الوالدان أولادهما على كل صغيرة وكبيرة أو على هفوة بحسن نية حتى لا يملوا أو يظهروا العناد والسير في الطريق المضاد وعلى الأب أن يحفظ هيبته مع إبنه، وعلى الأم أن تتعاون مع الأب في تربية الطفل فتعظه وتظهر له هفوته، وترشده بحكمة على انفراد حتى تستمر العظة ويبتعد عن القبح ويعتاد الخلق الكريم... والطفل شديد الإحساس بطبيعته، سريع التأثر ومن ثم وجب أن نعامله بلين وعطف ونجتهد في تفهيمه السبب في فعل هذا أو تجنب ذلك، ولا نكتفي بالأوامر والنواهي مجردة عن أسبابها. فالطفل عنيد قد يفعل الشيء حيث تنهاه عنه وينتهي حيث تأمره لا يريد بذلك إلا أن يعرف ماذا تكون نتيجة مخالفته وعصيانه ولا يقصد إلا أن يظهر شخصيته»[3].

وفي رأي آخر إن طريقة الغزالي «في استعمال الثواب والعقاب لغرض التهذيب طريقة سليمة إلى حد كبير، فإن الإكثار من الزجر والتأنيب، وتكرار اللوم والعتب كل هذا قد يأتي بعكس المرغوب فيه، كما أن المدح والتشجيع كثيراً ما يكونا سبباً في الإصلاح. أما من ناحية تخويف الصبي بأبيه ـ باعتباره مركز للسلطة في العائلة ـ ينبغي أن يكون رمزاً للرهبة والخوف»[4].

إلا أن فكرة تخويف الأطفال بسلطة الأب أثارت اعتراض بعضهم لأنهم

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص٧٩.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) محمد عطية الابراشي: التربية الاسلامية وفلاسفتها، ص٢٦١.

(٤) فتحية سليمان: بحث في المذهب التربوي عند الغزالي، ص٦٠، ٦١.

يرون بأن العلاقة بين طرفي عملية التربية يجب أن تقوم على الحب والحزم بعيداً عن مشاعر الخوف والرهبة على اعتبار أن «الأب في البيت له المنزلة العليا، وينبغي أن يكون محبوباً من الجميع، وهذا يتنافى مع اتخاذه شبحاً لتخويف الأطفال»[1].

ومهما تعارضت الآراء ما من أحد بأمكانه أن ينكر اعتدال آراء الغزالي في تناوله لموضوع العقاب «فالغزالي حريص من أول الأمر، في نظريته لحقيقة الثواب العقاب على التغافل عن المخالف في حالة عدم تكرار المخالفة، وكذا عدم هتك الستر والمكاشفة، لما يترتب على المكاشفة من جسارة وعدم مبالاة ولا يخرج تخويف الصبي بأبيه عن هذا المفهوم الذي يحرص الغزالي من خلاله أن لا تكون مكاشفة فتكون الجسارة. ولو أراد الغزالي بذلك أن يكون رمزاً للخوف والرهبة، أو شبحاً لتخويف الأطفال لما قال: «ولا تكثر اللوم عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام في قلبه»[2]، وكأنه يريد من الأب أن لا يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، فيسقط وقع الكلام من قلب الصبي، ثم إنه يحذر الأب نفسه من التسلط والملاحقة المستمرة للمخالفات فلا يوبخه إلا أحيانا. فإذا تأملنا كلامه في هذه النصيحة المباشرة منه للأب تبين لنا ما قصده، وهذا القصد يتفق تماماً مع نظرته لمرحلة (المعاتبة السرية) عند تكرار الصبي للمخالفة. وعلى هذا يمكن أن نعتبر تخويف الصبي بأبيه تخويفا بافتضاح أمره، وتحذيراً منه وفي ذلك مدعاة للإقلاع عن تلك المخالفة، لأن رب الأسرة ـ بطبيعة الحال ـ يجب أن يكون مؤثراً، وإذا فقد قوة التأثير فلن نستطيع أن نتوقع منه تحمل مسؤولياته التربوية الجسيمة أو توجيه الأسرة توجيهاً ناجحاً كريماً.

وهدف العقوبة في نظر الغزالي هو حماية مجموعة التلاميذ المسالمين من شر زملائهم الشريرين أو المشاغبين الذين لا يلتزمون حقوق الزمالة أو يرعون

---

(١) علي الجمبلاطي، ابو الفتوح التوانسي: دراسات مقارنة في التربية الاسلامية ص١١٧، ١١٨.

(٢) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشىء ص٩٩.

حرمتها. إضافة إلى أنها تسهم في منع الحوادث المخلة بالنظام وتقلل من أعمال الشغب والإجرام وبالتالي فإنها تمنع سوء السلوك وارتكاب المعاصي لأنها تشعر المذنب بخطئه مما يجعله يتقبل تنفيذ العقوبة بحقه من منطلق العدالة والرحمة التي يلمسها عند المعلم وفي ذلك يقول «وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء»[1]..

ويلفت الغزالي إلى ضرورة مراعاة ظروف المتعلم وأحواله البدنية والنفسية والعقلية أثناء عملية العقاب لأن ما يمكن أن يكون دواء لواحد قد يكون داء لآخر حيث «تختلف أشخاص الناس وحالاتهم على اختلاف قرائحهم وغرائزهم ومقدار قبولهم وعقولهم. . . فإن العسل وإن كان حلواً عند من أفرط عليه البلغم فهو مر عند من أفرطت عليه المرة الصفراء إذ هو في حقه داء»[2].

إذن فالعقوبة عند الغزالي وغيره من علماء المسلمين تقوم على الحماية والمنع والمجاراة والإصلاح «فالأولى تحمي المجتمع من الأشرار والثانية تصلح لمنع الشخص الطاهر القلب الذي يتعظ بحوادث غيره من الإثم والثالثة تجعل العقاب ملائماً للجريمة من غير تفرقة بين شخص أو آخر والرابعة تجعل العقاب مناسباً للجرم بأن تنظر إلى أحوال المذنب وأخلاقه وبيئته والداعي الذي حمله على اقتراف جريمته، فتعاقب كل مذنب على ما يستحق من عقاب»[3].

وبهذا تكون التربية الإسلامية ـ التي دعا إليها علماء المسلمين ومن بينهم الغزالي ـ قد أسهمت إسهاماً فاعلاً في إرساء المبادىء التي يجب أن تقوم عليها العقوبة بروحية منفتحة بعيدة عن التزمت أو التعصب لمبدأ على حساب الآخر حيث أنها تختار من الكل ما يناسب الكل.

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٩.
(٢) الغزالي: معراج السالكين، ص١٥٥.
(٣) محمد عطية الابراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، ص٣١٣.

الفصل التاسع

الغزالي وأثر الوراثة والبيئة
في عملية التربية

- مقدمة
- الإسلام وعوامل الوراثة
- الغزالي وأثر الوراثة في عملية التربية
- الغزالي وأثر البيئة الاجتماعية في العملية التربوية
- الغزالي وأثر الأسرة في العملية التربوية
- الغزالي ودور المعلم في العملية التربوية
- الغزالي ودور العوامل الفردية في العملية التربوية

ـ مقدمة:

هناك اتجاهان مختلفان عند العلماء الغربيين لتفسير الظواهر السلوكية لدى الأفراد. بحيث يعزي الإتجاه الأول أسباب هذه الظواهر إلى عوامل وراثية بينما يرى أصحاب الفريق الثاني مرد ذلك إلى عوامل بيئية. ففي الوقت الذي يؤكد فيه علماء الوراثة من أمثال جولتون (Galton) وبيرسون (K. Pearson) على أهمية الوراثة، يؤكد علماء الإجتماع ـ في المقابل ـ على أهمية البيئة «وكل من الفريقين ولو أنه على شيء من الصواب، إلا أنه على جانب من الخطأ لا يجوز إغفاله أو السكوت عنه. فلم يكن بيرسون مصيباً تماماً عندما قال: «إن الناس يرثون عن آبائهم القدرة والخجل والمشاعر، والحالات النفسية بالطريقة نفسها التي يرثون بها الشكل، واللون، وطول القامة وغير ذلك. وكذلك هنري جورج لم يصب كبد الحقيقة عندما ذكر أن العوامل الوراثية التي يبالغ الناس الآن في أهميتها لا قيمة لأثرها إذا قورنت بأثر العوامل التي تؤثر في الإنسان، من هذا العالم»[1]. وفي هذا إشارة إلى مدى الخلاف حول أثر العوامل الوراثية والبيئية في السلوك الإنساني.

ويقصد بالبيئة جميع العوامل المحيطة بالإنسان التي تؤثر في نمو شخصيته والبيئة إما أن تكون طبيعية أو اجتماعية. لذلك فإن كل ما يحيط بالإنسان من عناصر مادية من حيوان أو جماد أو نبات يشكل البيئة الطبيعية التي يقع على عاتق

---

(١) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص١٤.

الإنسان أن يتفهمها كي يتمكن من تكييف نفسه معها.

أما المجتمع البشري الذي يحيط بالإنسان وما يربط بين أفراد هذا المجتمع من صفات مشتركة وعلاقات متبادلة وعادات وتقاليد ونظم متبعة كل ذلك يشكل البيئة الاجتماعية التي يجب على الفرد أن يدركها حتى يتمكن من أن يتكيف مع أبناء مجتمعه بمقتضاها.

أما الوراثة فهي عبارة عن الميل الطبيعي في الفرع لمشابهة أصله في تكوينه الجسماني ووظائف أعضائه. وقال آخرون «إنها مشابهة الفرع لأصله»[١] فالوراثة إذن هي عبارة عن «جميع العوامل الموجودة في الكائن الحي من اللحظة التي تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثية بالخلية الذكرية. وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطاً في شكل العصا إسمها الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosomes) وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها إلى مناطق متعددة، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات (Genes) وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هي حوامل الإستعدادات الوراثية فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم، وجينات بعضها من ناحية الأب ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين»[٢].

ومن أجل أن تنمو هذه الخلية وتتكاثر لا بد من وجود بيئة مناسبة تمدها بمقومات الحياة. وبيئة الطفل الآدمي هي رحم الأم الذي يتمتع بكافة الشروط المطلوبة لإتمام عملية النمو. «فكأن عوامل البيئة من الخارج وعوامل الوراثة من داخل الكائن الحي تعمل كلها معاً منذ اللحظة الأولى في الحياة ويستمر الكائن الحي ينمو ويتأثر بالظروف المحيطة به، ثم يخرج من الرحم إلى العالم الذي يعيش فيه. وهنا أيضاً ينمو في نواحيه المختلفة نمواً يتأثر بألاف الظروف التي تحيط به»[٣].

---

(١) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الاسلام، ص٥٥.

(٢) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص١٥ ـ ١٦.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

ـ الإسلام وعوامل الوراثة:

صحيح أن علماء الوراثة توصلوا إلى حقائق علمية بالغة الأهمية في مجال الوراثة لجهة وجود موجودات دقيقة داخل الكروموسومات تدعى الجينات تقوم بنقل الصفات الوراثية لكن «لم تكن البشرية تجهل قانون الوراثة تماماً فيما مضى بل كانوا يجهلون خصوصياتها. إن علماء الماضي كانوا يعلمون أن في بذرة الزهرة ونواة الشجرة ونطفة الإنسان والحيوان ذخائر تنقل صفات الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة»(1).

ولقد «اكتشف الإسلام ظاهرة الوراثة قبل أن يكتشفها علماء النفس والوراثة ودلل على كثير من آثارها ومميزاتها وأن لها دخالة إيجابية في التكوين السليم وعدمه للإنسان فهي تؤثر أثراً ذاتياً في الشخص منذ بداية تكوينه»(2). فالرسول عليه السلام يقول «تخيروا لنطفكم فإنّ العرق دساس»(3). وهكذا وفقاً لهذا الحديث فإن عامل الوراثة يشار إليه بـ«العرق». فدلالة «العرق» في الأختيار تماثل دلالة الجين في هذه الأيام.

فالإختيار للزواج الذي يتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم يقوم على مبدأ الوراثة التي عبرت عنها لفظة «دساس» حيث تشير أن أخلاق الأباء تنتقل إلى الأبناء، بمعنى أنه في حال توفرت في الآباء صفات الصلاح والفلاح والأخلاق الفاضلة، والنزعات الكريمة والميول الحسنة والنوايا الطيبة لا بد وأن يكون للطفل نصيب من ذلك وهو في بطن أمه. وسيكون على عكس ذلك فيما لوطغت نزعات الشقاء على والديه. ولذلك ليس غريباً على المرء أن يكون شقيا أو سعيداً وهو في بطن أمه لقوله صلى الله عليه وسلم «الشقي من شقى في بطن أمه»(4).

ويؤكد ما سبق ذكره ما روي عن أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى النبي صلى

---

(1) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية ج1، ص60.
(2) باقر شريف القرشي: النظام التربوي في الإسلام، ص59.
(3) رواه ابن ماجة كتاب النكاح حديث رقم 46، دون قوله فإن العرق وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس «تزوجوا في الحجر الصالح فإن العرق دساس».
(4) رواه مسلم في كتاب القدر. حديث رقم 3.

الله عليه وسلم من بني فزارة فقال: إن امرأتي جاءت بولد أسود. فقال: «هل لك من إبل» قال نعم، قال: «ما ألوانها»؟ قال: حمر، قال «فهل فيها من أورق»؟ قال: إن فيها لورقاء، قال: «فأنا تراه». قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال «وهذا عسى أن يكون نزعة عرق»[1].

فالحديث يصرح بأن هناك أعراقاً لها وظائفها منها الأعراق الصانعة للصفات العنصرية كلون البشرة ولون الشعر وتجعده، ولون العين وغير ذلك من الصفات.

ومجمل القول إن العلم الحديث وافق ما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم من كثرة في عدد الأعراق وتأكيد لقانون الوراثة.

ويفضل الإسلام زواج المعروفات بالصفات الحميدة تحسيناً للنسل ولقد جاء ذلك واضحاً في قول الرسول الكريم «تزوجوا الودود الولود»[2] ليس هذا فحسب بل أن الإسلام لا يتردد في أن يمنع الزواج في حال كانت المرأة مجنونة أو بليدة، وكذلك في حق الرجل. فلقد روي عن الإمام علي رضي الله عنه أنه قال: «إياكم وتزويج الحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع»[3].

ويظهر من خلال هذه النصوص أن الطفل يرث في رحم الأم من صفات الأباء والأمهات وهذا مايشير إليه «الكسيس كاريل» عندما يتحدث عن ضعف العقل والجنون فرغم عدم إنكاره لأثر البيئة في ذلك إلا أنه يقرر بأن «هذه المؤثرات تكون غالباً جزءاً من الإرث الذي يتلقاه كل فرد عن والديه»[4] ومعنى ذلك أن الطفل الذي يكون أبواه مجنونين سيكون محكوماً عليه بالجنون مدى الحياة.

إلا «أن الإسلام في مثل هذه المواقف لا يعطي نظرية محددة على غرار ما

---

(١) رواه ابو داود في كتاب الطلاق، حديث رقم ٢٨.

(٢) رواه النسائي في كتاب النكاح حديث رقم ١١.

(٣) الكليني الرازي: فروع الكافي كتاب النكاح ج٥، ص٣٥٤.

(٤) الكسيس كاريل: الانسان ذلك المجهول، ص١٨٠.

تعطيه الدراسات الإنسانية وإنما يعطي توجيهات عامة وأصولاً لتفكير الإنسان يمكن أن تكون محاو تدور حولها الدراسات والبحوث»[1].

ـ الغزالي وأثر الوراثة في عملية التربية:

إنطلاقاً من توجهات الإسلام وتوجيهاته كان للغزالي رأيه في الوراثة وأثرها في العملية التربْوية. ولقد جاءت هذه الآراء في إطار نظرته العقدية[2].

فالغزالي يرى أن الله تعالى خلق الأشياء وفق نمطين متباينين واحد كامل والآخر ناقص. أي أن من الموجودات «ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله»[3] كأعضاء البدن داخلاً وخارجاً. ومنها «ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه»[4].

وليس غريباً أن تنقل الموجودات الحية كثيراً من صفاتها وخصائصها إلى الأجيال التي تليها، فالأجيال اللاحقة تكتسب صفات الأجيال السابقة ولذلك «شرط النسب في الإمامة وقيل الإئمة من قريش وكيف لا والأخلاق تتبع الأمزجة وتسري من الأصول إلى الفروع ولذلك قال عليه السلام «تخيروا لنطفكم» وقال «إياكم وخضراء الدمن» وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء[5]. فالنواة تحتوي على جميع الصفات المميزة للشجرة التي وجدت منها فعندما تزرع هذه النواة، وتنبت وتشرع بالنمو تظهر تلك الصفات بشكل تدريجي «فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية»[6].

---

(١) محمد عبد الستار نصار: «الطفولة في ضوء معطيات الاسلام، مجلة التربية القطرية، السنة التاسعة العدد ٤١، شوال ١٤٠٠هـ ـ سبتمبر ١٩٨٠م، ص٧٠.

(٢) انظر البحث: نظرة الغزالي العقدية.

(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦١.

(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٥) الغزالي: ميزان العمل، ص٧٣.

(٦) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦١.

«وهكذا فالقطة الصغيرة تشبه أبويها في هيكلها وشعرها ومخالبها، وترث صفات أسلافها. وكذلك الطفل ـ الذي ـ يرث المميزات التي يختص بها العنصر الذي ينتمي إليه أبواه في لون البشرة والعيون والشعر ووضع الأنف وما شاكل ذلك»[1].

وعندما يوصي الغزالي بأن لا يستعمل في حضانة الطفل «وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال»[2] فهو لا يقصر دورها على العملية التربوية كمؤثر بيئي وإنما يؤكد على دور الوراثة في عملية بناء شخصية الطفل خاصة وأن الرضاعة التي ستوفرها المرضع في هذه المرحلة تشبه عملية الإدراك والتمييز لأن الغزالي على قناعة من أن «اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فإذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث»[3]. ولطالما أن الأثر الوراثي للمرضع يبلغ إلى هذا المستوى فما بالك بدور الأم في عملية البناء الطبيعي للطفل هذا الدور الذي يمتد إلى تسعة أشهر يكون الطفل خلالها أشبه ما يكون بأحد أعضائها يستمد أسباب سلامته من سلامتها وسقمه من سقمها.

ولذلك «لا يطلب من المرأة إلا الجمال للتحصن وحسن الخلق لتدبير المنزل والديانة للصيانة والنسب الديني فقط فإنه أمارة الديانة وحسن الخلق فإن العرق نزاع»[4]. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «فاظفر بذات الدين تربت يداك»[5]. فالغزالي يرى ضرورة بأن تكون الزوجة «صالحة ذات دين فهذا هو الأصل وبه ينبغي أن يقع الإعتناء»[6] لأن «القاعدة العامة للوراثة تقتضي أن ينجب الأباء المؤمنون والأمهات العفيفات أولاداً طيبين. فهؤلاء يمكن أن يحرزوا السعادة في أرحام أمهاتهم فلا توجد في سلوكهم عوامل الإنحراف الموروثة»[7].

---

(١) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية. ج١، ص٥٨.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٧٨.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) الغزالي: ميزان العمل، ص٨١، ٨٢.
(٥) رواه مسلم في كتاب الرضاع، حديث رقم ٥٣، ٥٤.
(٦) الغزالي: الاحياءع ج٢، ص٤٢.
(٧) محمد تقي فلسفي: الطفل بين الوراثة والتربية، ص٨٠.

ـ الغزالي وأثر البيئة الاجتماعية في العملية التربوية:

يتعرض الإنسان بعد ولادته للعديد من المؤثرات البيئية المختلفة، حيث أنه يمر ببيئات تربوية متعددة ابتداء بالأسرة ومروراً بغيرها من الجماعات كجماعة اللعب والجوار والمدرسة والعمل وغيرها وفي كل هذه المراحل يكون الإنسان عرضة للمؤثرات المختلفة التي تحاول أن تشكل شخصيته وفق العادت والتقاليد التي تنسجم مع نظرة هذه الأطراف إلى الحياة.

فعلى الرغم من قناعة الغزالي بأهمية عامل الوراثة في العملية التربوية إلا أنه يؤمن إيماناً راسخاً بالمؤثرات البيئية في عملية بناء الإنسان لكونه وجد وجوداً ناقصاً ولديه الإستعداد أو القوة للسير باتجاه الكمال في حال توفرت شروطه.[١] لذلك فهو يهتم بالطفل من كافة الجوانب التي تساعد على تكوين شخصيته[٢].

فالطفولة عند الغزالي تقوم على قاعدة أن «كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل وكما أن البدن في الإبتداء لا يخلق كاملاً وإنمايكمل ويقوى بالنشوء والتربية وبالغذاء فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم»[٣].

فالاعتدال وصحة الفطرة هو ما يخلق عليه الإنسان فمن خلال هذا يعكس الغزالي مدى أثر المجتمع على الإنسان الذي قد يستلذ نتيجة الظروف أو العادة الباطل والمقابح[٤] على الرغم من أن «ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع»[٥]. وبالتالي فهو يشبه هذا الأمر بالميل لأكل الطين[٦]. «فأما ميله إلى

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦١.
(٢) انظر البحث ميادين التربية عند الغزالي.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٦.
(٤) المرجع السابق، ص٦٤.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب فإنه مقتضى طبع القلب فإنه أمر رباني»[1]. ولكن تحت تأثير العادات التي قد يكتسبها الإنسان من المجتمع ينحرف عن فطرته لأن «العادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك»[2]. فتأثير العادة في نظر الغزالي قد يغلب على الصفات الوراثية إضافة إلى أنه قد يحدث وضعاً جديداً يجعل النفس تستلذ بالعادة الباطل وتميل إليه وإلى القبائح. وفي المقابل فإن النفس «ما لم تتعود جميع العادات الحسنة وما لم تترك جميع الأفعال السيئة وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها»[3] فإنها لا يمكن أن تحظى بالسعادة التي لا بد وأن تكون من نصيب الصفوة الذين قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم «خير الناس من طال عمره وحسن عمله»[4].

وقابلية التغيير عند الإنسان محكومة بنظر الغزالي بعاملين أساسيين الأول «يرتبط باختيار العبد»[5] تماماً كانتقاء التربة الصالحة والظروف المناسبة لزراعة بذرة النخيل أو التفاح. والثاني يرتبط بطبيعة الجبلة لأن «الجبلات مختلفة بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول»[6]. ويعزي الغزالي هذا الإختلاف إلى سببين:

«أحدهما: قوة الغريزة في أصل الجبلة وامتداد مدة الوجود فإن قوة الشهوة والغضب والتكبر موجودة في الإنسان، ولكن أصعبها أمراً وأعصاها على التغيير قوة الشهوة إذ الصبي في مبدأ الفطرة تخلق له الشهوة، ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب، وبعد ذلك يخلق له قوة التمييز.

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع السابق، ص٦٣.
(٤) رواه الترمذي في كتاب الزهد حديث رقم ٢١، ٢٢.
(٥) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦١.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والسبب الثاني: إن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسناً ومرضياً»[١].

وتأثير المجتمع في عملية تغيير الأخلاق لا يكون وفق وتيرة محددة أو نمط محدد حسب ما يشير الغزالي إلى ذلك. وإنما يأتي وفق مراتب أربع تحددها طبيعة شخصية الفرد وتفكيره موضوع البحث. والناس في ذلك على مراتب مختلفة[٢].

والغزالي عندما تحدث عن آداب الدنيا والدين مطولاً كان من جملة أهدافه أن يوفر لأطفال المسلمين بيئة اجتماعية حافزة على تهذيب الأخلاق سواء عن طريق التعلم أو المخالطة. فلقد كان يدرك أن «النصيحة سهلة والمشكل قبولها لأنها في مذاق متبعي الهوى مرة، إذ المناهي محبوبة في قلوبهم وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي، ومشتغلاً في فضل النفس ومناقب الدين»[٣].

ـ الغزالي وأثر الأسرة في العملية التربوية:

«يولد الطفل وله خصائص وراثية، ويكون عند ولادته مجرد كائن بيولوجي أو مجرد فرد. وسرعان مايبدأ بامتصاص عناصر من ثقافة مجتمعه من خلال اتصالاته المختلفة فيكتسب عادات وتقاليد ومعايير ولغة... وبذا يتحول إلى شخص»[٤] ويعني هذا القول أن الطفل يولد مرتين أولاهما ولادة عضوية وثانيهما ولادة اجتماعية حيث يتحول إلى عضو في جماعة، ومع أن الولادة الأولى ترتبط بمعناصر وراثية إلا أن الولادة الثانية تحصل بشكل تدريجي مستمر ومعقد يساهم فيها كافة المؤسسات الاجتماعية النظامية وغير النظامية منها.

وتشكل الأسرة المؤسسة الاجتماعية الأولى التي يتعرف عليها الطفل، أي

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) الغزالي: ايها الولد، ص٩٤.
(٤) هادي نعمان الهيتي: ثقافة الاطفال، ص١٠٣.

أنها نقطة البدء بالنسبة لعملية التربية عند الأطفال. وهنا تبرز أهمية دور الوالدين في هذه العملية التربوية المصاحبة لنمو الطفل. في وقت يجب أن يدرك فيه كل من الأب والأم أن الطفل «أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل إلى كل ما يمال إليه فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسود في الدنيا والآخرة... وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له»[1].

وفيما يقوله الغزالي تعظيم لمسؤولية كل من الوالد والوالدة تجاه طفلهما وذلك لكونه أمانة عندهما يجب عليهما حفظها من كل سوء لقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[3].

والوالدان في نظر الغزالي يتحملان مسؤولية ما سيؤول إليه أمر ولدهما خاصة وأنه يولد خالياً من أي نقش ولديه الإستعداد والطواعية الكبيرة لاستيعاب ألوان التربية المختلفة التي قد تقدم إليه إلى جانب القدرة على التشكل حسب ما يريد له أبواه ولذلك يذكّر الغزالي بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[4].

والغزالي لا يقف عند حد التذكير بواجبات الوالدين وأهمية دورهما ولكنه يضع مقترحات عملية للأخذ بيد الوالدين ومساعدتهما على القيام بواجباتهما تجاه من يعيلون فينبه إلى أنه «مهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٣، ٧٨.

(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب الشهادات، حديث رقم ٢٨.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.

القرناء السوء. . .»[١]. إلى آخر ما هنالك من توجيهات تساعد الوالدين على بناء شخصية طفلهما بالاتجاه الذي يرضي الله ويحقق للطفل ووالديه سعادة الدنيا والآخرة على قاعدة أن «كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أي بالإعتياد والتعليم تكتسب الرذائل»[٢]. وفي هذا دلالة على أهمية دور الوالدين في هذه المرحلة من مراحل نمو الطفل إذ أنها تعتبر حاسمة في تشكيل شخصية الطفل وذلك لأنها الفترة الأكثر خصوبة وحيوية والتي تنجم عنها ملامح شخصيته، حيث إن نوع التربية التي يتلقاها في هذه المرحلة يتصل في كيان شخصيته ويصعب لا بل يكاد يستحيل تغييره لذا يركز الغزالي على دور الوالدين لجهة بناء شخصيات أبنائهم بناء سليما يتفق وتعاليم الإسلام.

ـ الغزالي ودور المعلم في العملية التربوية:

اهتم الغزالي اهتماماً كبيراً بدور المعلم في عملية تغيير الأخلاق، وحمّله «مسؤولية كبرى من خلال المنهج الذي رسمه له لغرض تعليم الناشئين وتوجيههم»[٣] إنطلاقاً من كون التعليم رسالة وليس مهنة لكسب العيش أو اعتلاء المناصب والسعي وراء عرض الدنيا، ولقد سمى القرآن الكريم معلمي هذه الأمة بالربانيين لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾[٤]. جاء في تفسير الطبري أن «الربانيين» جمع رباني وأن «الربّاني» المنسوب إلى «الرّبّان» الذي يربّ الناس وهو الذي يصلح أمورهم و«يربّها» ويقوم بها. . . و«الربانيون»، إذاً هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا ولذلك قال مجاهد «وهم قوم الأحبار» لأن «الأحبار» هم العلماء و«الرباني»، الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم[٥].

---

(١) الغزالي: الاحياء ج٣، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشىء، ص١٢٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

(٥) الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٦، ص٥٤٣ ـ ٥٤٤.

فخطورة دور المعلم ناجمة عن جسامة المهمة المناطة به «والمعلم المسلم بجانب وظيفته أو أدبه كمعلم فإن له وظائف وآداباأخرى في المجتمع من واجبه أن يقوم بها خير قيام. ولن يتحقق صلاحه إلا إذا كان صالحاً فيها جميعاً. . . ولكي ينجح لا بد أن تكون له شخصيته الإسلامية المتميزة»[١] وأن يتأتى له «من الصفات الروحية أو الإيمانية والصفات الخلقية والنفسية والمزاجية والعقلية والبدنية ما يضمن له النجاح في عمل التعليم وفي الأعمال الأخرى المتوقعة منه في المجتمع»[٢]. لذا فإن من «اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ آدابه ووظائفه»[٣] «ويبدأ بصلاح نفسه»[٤] ويتحلى بآداب عدة تمكنه من القيام بالوظائف المناطة به ومن هذه الآداب أو الوظائف:

١ ـ أدبه في علاقته مع المتعلمين:

فلا بد للمعلم أن يجري تلامذته مجرى بنيه انسجاماً مع قول الرسول صلى الله عليه وسلم «إنما أنا لكم مثل الوالد لولده»[٥]. ليس هذا فحسب بل إنّ حق المعلم متقدم على حق الوالدين كون المعلم سبب السعادة الباقية والأب سبب السعادة الفانية. وليس غريباً إذاً أن يقر الإسكندر بأن معلمه أكرم عليه من أبيه، عندما سئل عن ذلك[٦] لأنه «لولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك»[٧].

٢ ـ أدبه في طلب الأجر على إفادة العلم:

يعتبر الغزالي أن النية أساساً في العملية التعليمية/ التعلمية فكما «يجب

---

(١) عمر محمد التومي الشيباني: من اسس التربية الاسلامية، ص٨٩.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.
(٤) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٥، ص٩٢.
(٥) رواه النسائي في كتاب الطهارة، حديث رقم ٣٥.
(٦) الغزالي: ميزان العمل، ص١٠٨.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.

تصحيح النية على المتعلم فيجب تصحيحها أيضاً على المعلم بل هو أهم لأن عبادة التعليم أشرف من عبادة التعلم»[1] وفي هذا تأكيد من قبل الغزالي على أن التعليم رسالة انطلاقاً من كونه «عبادة» في الأساس. لذلك ينبغي على المعلم أن لا «يمن على تلامذته بتعليمه حتى ينظر منهم ثواباً وجزاء وخدمة وموالاة ونصرة»[2] لأن «كل ذلك مما يفسد نية العبادة»[3] بناء عليه فإن الغزالي يطلب من المعلم أن «يقتدي بالأنبياء... حيث قدم كل واحد منهم على دعوته قوله»[4] ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾[5]... «فلا يقول أحد من الأنبياء لقومه اتقوا الله وأطيعون إلا ويقول قبل ذلك»[6] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾[7].

«ويذهب الغزالي إلى تسفيه المعلم الذي يأخذ أجراً بتشبيه طالب المال بالعلم كمن «مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه فجعل المخدوم خادما والخادم مخدوماً وذلك هو الإنتكاس على أم الرأس»[8]. ويصعد لهجته فيضع المعلم المأجور في صف المجرمين ناكسي رؤوسهم عند ربهم، ويتهم هذه الفئة من العلماء الذين في سبيل الجاه والمال يتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات[9]، ويدعو إلى نبذهم بقوله «فأخس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة دينه»[10] ويعتبر هذا الهجوم على علماء (الدنيا) كما

---

(١) الغزالي: فاتحة العلوم، ص١٢.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) سورة هود، الآية: ٥١.
(٦) الغزالي: فاتحة العلوم ص١٢، ١٣.
(٧) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٩، ١١٠.
(٨) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٠.
(٩) الجراية: ما يناله الجندي كل يوم.
(١٠) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٠.

يحلو للغزالي أن يسميهم ملتسقاً مع النظرة الشرعية التي كانت سائدة في عصر الغزالي وما قبله وهي التي تحرم وتستشنع أخذ الأجر لقاء التعليم»[١].

٣ ـ أدبه في التدريس:

على المعلم أن يكون مخلصاً وصادقاً وناصحاً لتلميذه بحيث يراعي التدرج في إيصال المادة العلمية له «وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي»[٢]. وإلى جانب ذلك لا بد وأن يؤكد لتلميذه على حسن النية في طلب العلم «ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرئاسة والمباهاة والمنافسة»[٣].

٤ ـ أدبه في التوجيه والإرشاد:

لا يحبذ الغزالي التعاطي السلبي في عملية التوجيه كأن يزجر التلميذ تصريحاً على سوء خلقه. فهو يرى أن القدرة على التوجيه والإرشاد الإيجابي من الكفايات التي يجب أن تيمتع بها المعلم لكونها من «دقائق صناعة التعليم»[٤]. ولذلك كان على المعلم «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ»[٥]. ولا يقف الغزالي عند هذا الحد إنما يتابع ليحدد الأسباب التي دعته لانتهاج هذا الأسلوب في تقويم سلوك التلميذ فيعلل ذلك بقوله «إن التصريح يَهْتِكُ حجاب الهيئة ويورث الجرأة على الهجوم ويهيج الحرص على الأصرار»[٦]. ويرى أن التعريض «يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم إن ذلك مما لا يعزب عن فطنته»[٧].

---

(١) أحمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص١٤٣.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٠.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع السابق، ص٧١.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.

والغزالي هنا يتحدث كخبير في علم النفس التربوي حيث أن نصيحته «للمعلم بوجوب أخذ المتعلمين باللين والرحمة، والإبتعاد ما أمكن عن التوبيخ والعبارات القاسية واللجوء إلى التلميح بدلاً من التصريح مبدأ تربويا رسخته الأبحاث التربوية النفسية في مجال التربية والتعليم... ومعروف أن أسلوب المعلم الفظ ولجوئه للتوبيخ والعقاب قد يعطل عملية التعلم ويعيقها بدلاً من أن يدفعها إلى الأمام»[1].

٥ ـ آدابه في التعاطي مع العلوم التي يشتمل عليهاالمنهاج:

يمقت الغزالي التعصب لعلم على حساب الآخر. وهو بذلك يعبّر عن مصداقية وموضوعية في موقفه من العلوم المختلفة سواء اتسم موقفه منها بالإيجابية أو السلبية. بناء عليه فهو يرى «أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه»، كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير، وإن ذلك نقل محض وسماع، وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه، ومعلم الكلام يفر عن الفقه... فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب»[2].

فالغزالي بذلك إنما يعبر عن قناعته بأهمية العلوم على اختلاق ألوانها لذلك فهو يدعو المعلمين للإبتعاد عن تقبيح العلوم التي ليسوا مكلفين في تعليمها في محاولة تهدف إلى «تخفيف غلواء افرتاء بعضهم[3] على العلماء وعدم رميهم بالفساد والتشنيع عليهم مع جلال مهمتهم وعسرها»[4].

٦ ـ أدبه في مراعاة الفروق الفردية عند التلاميذ:

ولقد أخذ الغزالي الفروق الفرية لدى المتعلمين بالأهمية اللازمة. ونادى

---

(١) احمد خواجه: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص١٤٨.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧١.
(٣) وردت في النص «البعض».
(٤) احمد خواجة: الاداب التعاملية ص١٥٢.

بوجوب مراعاة ذلك انطلاقاً من إدراكه للسمات المميزة لكل منهم ولكل مرحلة من مراحل النمو فكان أول واجبات المعلم أن يحيط علما بنوع ومقدار العلوم التي تناسب هذا التلميذ أو ذاك، لذلك فهو يرى أن من أدب المعلم «أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه مالا يبلغه علقه»[(١)] عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم «حدثوا الناس بما يعرفون»[(٢)]. وفي هذا ترسيخ لمبدأ مراعاة الفروق الفردية عند المتعلمين ولذلك صدق من قال «كل لكل عبد بمعيار عقله وزن له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار»[(٣)].

٧ ـ أدبه في تعاطيه مع التلاميذ من ذوي الحاجات الخاصة:

على الرغم من أن هذه النقطة تبدو وكأنها امتداد لسابقتها إلا أنها تميزت بتعرضها لمسألة من أهم المسائل التي شغلت وتشغل بال المربين. فمعالجة موضوع «المتعلم القاصر»[(٤)] الذي «ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به»[(٥)] مؤشر على مدى وعي الغزالي لمشكلة التلاميذ من ذوي الحاجات الخاصة وأثر ذلك على العملية التعليمية التعلمية. والغزالي بعرضه لهذه المسألة يلفت النظر إلى قضية من أعقد القضايا التربوية التي لا بد من مواجهتها وإيجاد الحلول المناسبة لها. فالقصور سواء أكان بالفهم أم السمع أم النطق أم البصر أم الحركة يحتاج إلى رعاية وعلاج قادرين على إيصال المتعلم إلى شاطيء السلامة لا الندامة، تماما كما سعى الغزالي لتحقيق ذلك من خلال تحديده لوظائف المعلم المرشد تجاه المتعلم القاصر.

٨ ـ أدبه في توظيف علمه:

وأخيراً يرى الغزالي أن على المعلم أن يستخدم علمه استخداما وظيفيا حتى

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧١.
(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، حديث رقم ٤٩.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧١.
(٤) المرجع السابق ص٧٢.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

لا يبقى هذا العلم مخزوناً أو بضاعة للإستهلاك الكلامي يفقد المعلم مصداقيته ويجعله عرضة للسخرية والأستهتار.

وحيث أن المطلوب أن يكون المعلم عاملاً بعلمه خدمة لمجتمعه ومرضاة لربه يحثه الغزالي على أن يأخذ دوره حتى «لا يكذب قوله فعله»[1] وذلك لأنه في حال «خالف العمل العلم منع الرشد. وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناوله فإنه سم مهلك، سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقوقولن: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كا يستأثر به. ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينقش الطين بما لانقش فيه ومتى استوى الظل والعود أعوج؟»[2] يقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[3] «ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالم كثير ويقتدون به. ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها. ولذلك قال علي رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان، عالم متهتك وجاهل متنسك، فالجاهل يغر الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه. والله أعلم»[4].

ـ الغزالي ودور العوامل الفردية في عملية التربية:

تعد هذه العوامل نتاج تفاعل بين العناصر الوراثية والبيئية على حد سواء. وذلك لأنها تأتي على شكل ممارسات وسلوكيات نابعة عن شخصية تحددت بفضل ما ورثه صاحبها. من سمات وصفات إلى جانب ما طبع به من مؤثرات بيئية. لذلك تعتبر السلوكيات الفردية للمتعلم من أبرز المؤثرات في العملية التربوية. ولقد كان ذلك واضحاً في كلام الغزالي عندما تحدث في كتاب (العلم) عن هذه العوامل فيما أشار إليه بآداب المتعلم.

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٢.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٥٥.
(٤) الغزالي: الاحياء ج١، ص٧٢.

وطالب العلم الذي يتحدث عنه الغزالي في هذا الباب «ليس هو ذلك الطفل الذي لا يعي ولا يدرك، ويقع على الأهل والمعلم اختيار الطريق له وتقديم ما ينفعه، إنه الطالب البالغ الراشد والذي أصبح مسؤولا عن بعض الواجبات الدينية التي تقع عليه موقع فرض العين»[1] فهو «الإنسان الذي أصبح قادراً على اختيار الطريق ومدركاتها»[2].

وبناء عليه جاءت آراء الغزالي في مجال آداب المتعلم متناسبة «مع هذه النظرة للطالب وللعلم الذي هو عمل ونظر معا»[3]. ولقد تحدث الغزالي عن هذه الآداب على ضوء منهجه وأهدافه التربوية، حيث أوردها في عشر وظائف هي:

١ ـ أدب المتعلم مع نفسه:

تعتبر هذه الوظيفة من أهم وظائف المتعلم التي يفترض به التنبه إليها. ولقد حدد الغزالي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه هذه الوظيفة فحصر ذلك بالطهارة انطلاقاً من فهمه للإسلام الذي بني على الطهارة التي لا يمكن أن تتم إلا بتطهير الظاهر والباطن «وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث فكذلك لا تصح عبادة وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف»[4]. ولقد جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[5] ضمن هذا الإطار «تنبيها للعقول على الطهارة والنجاسة»[6] من خلال الإشارة إلى أن «الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر»[7]. فالنجاسة ضمن هذا الإطار «عبارة عما يجتنب ويطلب البعد منه»[8]

---

(١) عبد الامير شمس الدين: التربويات في الفكر العربي الاسلامي، ص٩٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٢.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٦) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٢.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) المرجع نفسه والمكان نفسه.

لذلك فإن «خبائث صفات الباطن أهم بالإجتناب»[1].

فإذا كانت الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب حسب الحديث الشريف «لاتدخل الملائكة بيتاً فيه كلب»[2] فكيف ستنزل في «القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتكلب عليها»[3]خاصة وأن «الصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة»[4] فأنى للملائكة في مثل هذه الحال أن تدخل مثل هذا القلب المشحون بالكلاب في الوقت الذي هو معلوم فيه أن «نور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة»[5] لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾[6]. ولذلك رأى الغزالي أن وظيفة المعلم الأولى هي «تقويم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف»[7]. لأن صلاح القلب ضرورة حتمية لمن أراد أن يفيد من علمه تصديقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[8].

فثمرة العلم لا تكون إلا من نصيب من طهر قلبه من الخبائث والنواقص. والعلم ما كان ولن يكون بكثرة الرواية أو الحفظ والفهم وإنما بما يعود على صاحبه من خلال توصيله إلى الله تعالى والخشية منه، هذا إلى جانب نشره تعميما للفائدة والخير على الناس.

٢ ـ أدب المتعلم في رسم علائقه:

يرى الغزالي في هذا المجال أنّ العلم بحاجة إلى تفرغ ويستلزم من صاحبه

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق حديث رقم ١٧.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٢.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) سورة الشورى، الآية: ٥١.
(٧) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٣.
(٨) رواه البخاري في كتاب الايمان حديث رقم ٣١.

تضحيات جسام تصل لدرجة مفارقة الأهل والأوطان. فعلى المتعلم «أن يقلل علائقه من الإشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة»[1]. لقوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾[2].

«وهذه الوظيفة أو هذا الشرط كما نرى هو من الشروط القاسية في حق المتعلم، لأن الإبتعاد عن الأهل والوطن وما يستتبع ذلك من إنشغال بعلائق الدنيا من أصعب الأمور على الإنسان وتجربة الغزالي في هذا المضمار غنية فقد وصف معاناته الصعبة عندما ترك الأهل والجاه والتعليم وانصرف إلى أقطار بعيدة للتعلم والتفقه»[3]. ولم يكن ذلك غريباً على من كان طالباً للعلم في ذلك العصر.

وحاصل القول، كي يصل المتعلم إلى مبتغاه لا بد وأن يتفرغ لطلب العلم «لأن العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك... والفكرة المتوزعة على إمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ الزرع»[4].

٣ ـ أدب المتعلم في علاقاته مع معلمه:

ينطلق الغزالي في حديثه عن الوظيفة من خلال فهمه للتعليم وتحديده لأهدافه انطلاقاً من كون التعليم رسالة ترتب على صاحبها «أن يقتدي بصاحب الشرع»[5] وأن يكون عمله «لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه»[6]. لذلك فإن التواضع والإمتثال للمعلم من الخصال التي على المتعلم أن يتخلق بها، على اعتبار أن العلم لا ينال إلا بالتواضع وإلقاء السمع، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[7] «ومعنى كونه ذا

---

(١) الغزالي: الاحياء ج١، ص٦٢.
(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٤.
(٣) احمد خواجة: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص١٣٤.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٣.
(٥) المرجع السابق، ص٧٠.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) سورة ق، الآية: ٣٧.

قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الأصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة. فليكن المتعلم لعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً وأذعنت بالكلية لقبوله»[١].

فعلى طالب العلم أن «لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته»[٢]. وأخيراً يقرر الغزالي بأن «كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران»[٣].

٤ ـ أدب المتعلم في التعرض لاختلافات الناس ومذاهبها:

ينصح الغزالي المتعلم في بداية طريقه أن يتجنب الخوض في الإختلافات ـ سواء كان ذلك متعلقاً بعلوم الدنيا أم الآخرة ـ مخافة أن تختلط عليه الأمور فيحار أو يفتن وبالتالي لا يعود قادراً على إدراك الأمور بوعي وبصيرة. لذلك يرى الغزالي أن المتعلم «ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب والشبه»[٤]. وفي حال كان من عادة أستاذه النقل عن المذاهب وما قيل فيها عليه أن يحذر منه. لأن خطره في هذه الحال أكبر من نفعه وقد يقوده إلى الضلال لا إلى الرشاد وفي هذه الحال يكون مثله كمثل الأعمى. ومن قال أن الأعمى يصلح لقود العميان وإرشادهم[٥].

«وهذا يتفق ونظرة الغزالي إلى العلم ـ وإلى كل شيء في الدنيا ـ فالعلم عند الغزالي يجب أن يكون في سبيل الله وفي سبيل النجاة في الآخرة، لذلك على

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٤.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

المتعلم أن لا يتقلب بين المذاهب وأن لا يمحص الآراء، بل عليه أن يركن إلى عالم تقي يرشده إلى معالم الهدى ويوقيه التقلب بين مذاهب المتكلمين والفلاسفة، والمعروف أن الغزالي ناهض الفلسفة لأنها خطر على الدين»[1].

٥ ـ أدب المتعلم في التعاطي مع العلوم المحمودة:

يدعو الغزالي طالب العلم التبحر في العلوم المحمودة انسجاماً مع الأهداف التي حددها ويريد تحقيقها. . . فالشخصية الأسلامية المتميزة ـ المنسجمة مع نفسها وبارئها والناس ـ التي سعى لإيجادها لا بد وأن تكون مثقفة ثقافة عالية كي تتمكن من القيام بمهامها والوفاء بالتزاماتها. لذا كان من الواجب حث طالب العلم على التبحر في العلوم حتى «لا يدع فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته، ثم إن ساعده العمر طاب التبحر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية»[2]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فالغزالي يدرك أنه لا يمكن فصل العلوم عن بعضها، علاوة على أن الجهل بشيء منه قد يقود إلى اتخاذمواقف خاطئة لا تستند إلى معيار العلم والمعرفة وهو ما أراد أن يجنب طالب العلم منه ولقد كان واضحاً في ذلك عندما قال «إن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال الإنفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله، فإن الناس أعداء ما جهلوا»[3].

والعلوم المحمودة حسب الغزالي على درجات فإما أن تكون سالكة بالمتعلم إلى الله تعالى وإما أن تكون معينة على ذلك.

٦ ـ أدب المتعلم في البحث والتحصيل:

لقد جاء تقسيم الغزالي للعلوم على ضوء الأهداف التي وضعها نصب عينيه. ولذلك قرر بأن العلوم مراتب وأن هناك علوماً مهمة وأخرى أهم مما

---

(١) احمد خواجة: الآداب التعاملية في فكر الامام الغزالي ص١٣٥.
(٢) الغزالي: الإحياء ج١، ص٦٥.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

يوجب على المتعلم «أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة واحدة بل يراعي الترتيب ويبتديء بالأهم»[1] فالعمر قصير وغالباً ما يكون عاجزاً عن الإتساع لجميع العلوم لذلك فالمتعلم مطالب «أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة»[2] الذي يقصد به علمي المعاملة والمكاشفة حيث أن «غاية المعاملة المكاشفة، وغاية المكاشفة معرفة الله تعالى»[3]. والغزالي بهذا إنما يضع بين يدي المتعلم المنهجية التي تمكنه من تحقيق الأهداف التي خطط لها وسعى لتحقيقها وفق منهج واضح المعالم ومحدد الأهداف.

٧ ـ أدب المتعلم في الأنتقال من فن لآخر:

وتندرج هذه الوظيفة في إطار منهجية البحث والتحصيل حيث أن الغزالي يتابع تصنيفه للعلوم حسب أولوياتها وفق ما يخدم أهدافه في تحقيق سعادة الدنيا والآخرة. لذلك فهو يرى أن من واجب المتعلم «أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج»[4].

٨ ـ أدبه في التمييز بين العلوم:

يريد الغزالي من المتعلم أن يعي الأسباب التي يعتبرها أساساً في عملية التمييز بين علم وآخر وذلك لعاملين «أحدهما شرف الثمرة، والثاني وثاقة الدليل وقوته»[5] ويمثل على ذلك بعلم الدين والطب والحساب والنجوم فيقول إنّ ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف»[6]. أما

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) الرجع السابق، ص٦٦.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

بالنسبة لوثاقة الدليل فيقول «إن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها»[١] وفي حال «نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته»[٢] إلا أن «ملاحظة الثمرة أولى، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين»[٣] وعلى ضوء هذه القناعة يقرر الغزالي «أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم»[٤]. ومن ثم يختم موجهاً النصح لتلميذه حاثاً إياه على التمسك بأشرف العلوم وأن لا يرغب إلا فيه وأن لا يحرص إلا عليه.

٩ ـ أدب المتعلم في تحديد أهدافه:

يؤكد الغزالي على أهمية المقصد والهدف شريطة أن لا يكون ذلك على حساب علوم دون الأخرى. ولئن كان ينظر إلى علم الآخرة على أنه أفضل العلوم إلا أن ذلك لا يبيح الإستخفاف بباقي العلوم لأن لكل منها أهمية خاصة لا يجوز إغفالها بحال من الأحوال. وعلى المتعلم أن لا يفهمن من غلو الغزالي في الثناء على علم الآخرة أن في ذلك تهجيناً لباقي العلوم «فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة والمجاهدين في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم الردء ومنهم الذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم. فكذلك العلماء»[٥]. فالقضية في جوهرها بالنسبة للغزالي تحديد الهدف أي النية والمقصد ولكن على أساس نظرة موضوعية للعلوم كل حسب مرتبته في خدمة الهدف لذلك فإن «استحقارنا للصيارفة عند قياسهم بالملوك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكنّاسين فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر»[٦] لأن

---

(١) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٦٦، ٦٧.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الله لا يضيع عمل عامل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[1]. «ومن قصد الله تعالى بالعلم أي علم كان نفعه ورفعه لا محالة»[2].

١٠ ـ أدب المتعلم في تحديد نسبة العلوم إلى المقصد:

يخشى الغزالي من الخلط بين العلوم وينبه المتعلم إلى ضرورة «أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد، والمهم على غيره»[3] وفي هذا السياق يعتبر الغزالي أن «العلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم... على ثلاث مراتب»[4]. ولتقريب وجهة نظره يمثل على ذلك بإداء فريضة الحج معتبراً أن علوم هذه الفريضة ثلاثة أقسام «قسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات، وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وطلوع تلك العقبات الشامخة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين، فهذا سلوك الطريق وتحصيل علمه كتحصيل علم جهات الطريق ومنازله. وكما لا يغني علم وطرق البوادي دون سلوكها كذلك لا يغني علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن. وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحج وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله... والنجاة حاصلة لكل مالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة»[5].

«وهكذا يكون قد انتظم عقد وظائف المتعلم عند الغزالي وهي وظائف متداخلة متشابهة عنوانها الرئيسي: التحلي بالفضائل والإبتعاد عن الرذائل وغايتها ومقصودها التوجه كلية نحو الباري عز وجل وترك الدنيا وأهوائها، وهذا يتسق مع

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧و ٨.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٧.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

النظرة المثالية العامة للغزالي في كافة الأمور الحياتية والدينية»[1]. إلا أن مثالية الغزالي ليست خيالية وإنما واقعية من نوع خاص أصولها من واقع عاشه المسلمون وشهده العالم مع بزوغ فجر الإسلام حيث جسد الرسول ذلك واقعاً ملموساً واستمر حتى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبذلك يكون الغزالي قد حدد قدر الإمكان مدى تأثير كل من العوامل الوراثية والبيئية في العملية التربوية. على أساس أن سعادة الإنسان أو شقاءه هو نتاج عوامل وراثية وبيئية مما يقودنا إلى القول: «إن الفروق بين الأفراد ترجع إلى مجموعتين من العوامل: المجموعة الأولى من الإستعدادات الوراثية الكامنة في الجينات والمجموعة الثانية هي مجموعة الظروف المحيطة بالفرد من تغذيه وحرارة ومعاملة ووقاية وتعليم... وغير ذلك ومن المستحيل الفصل إلا نظرياً بين هذه العوامل»[2].

فالوراثة والبيئة كما يفهم مما جاء في كلام الغزالي تشكلان العاملان الأساسيان المتلازمان في حياة كل فرد من الأفراد بحيث تحدد الوراثة العوامل الثابتة في شخصية الفرد بينما تحدد البيئة العوامل المتغيرة ومهما كان مستوى تغيير وتطور البيئة فإنها لا تنتج ما يناقض الوراثة التي تشكل عنصراً ذاتياً ليس موضوعاً لأي تغيير أو تبديل. فنواة النخيل كما سبق وقال الغزالي «لا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية»[3]. والغزالي بهذا الكلام يرد رداً مقنعاً على من اتهموه بالتناقض مع نفسه في موضوع وراثة الأخلاق[4].

(١) احمد خواجة: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص١٤١.
(٢) عبد العزيز القوصي: اسس الصحة النفسية، ص١٦.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦١.
(٤) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص٧٨.

الفصل العاشر

سمات التربية الإسلامية
كما عبر عنها الغزالي

- مقدمة
- الغزالي والسمات المميزة للتربية الإسلامية لجهة كونها

١ ـ سلوكية (عملية).

٢ ـ شاملة تكاملية.

٣ ـ متوازنة.

٤ ـ فردية واجتماعية.

٥ ـ مستمرة.

٦ ـ متدرجة.

ـ مقدمة:

إن ما عكسته الصفحات السابقة يؤكد على حقيقة أن التربية عملية اجتماعية. ولقد تجلى ذلك واضحاً من خلال الأهداف التي سعى الغزالي لتحقيقها. حيث أنه اشتق أهدافه من حاجات وتوجهات المجتمع الإسلامي للكون. لذا فالفكر التربوي عند الغزالي لا يمكن فهمه بمعزل عن التصور الإسلامي والإنسان والحياة. فهو كغيره من المفكرين المسلمين الذين نشأوا في بيئة اجتماعية معينة وتفاعلوا مع مشكلاتها ثم حاولوا أن يرتفعوا فوق هذه المشكلات فكراً وتنظيماً محاولين أن يجدوا لها الحلول المناسبة.

وعندما يستمد المفكر تفسيره للكون والإنسان والحياة من الدين، ليس غريباً أن يتغيا الدين في ذاته وأن يجعل من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه وغاياته. لذا فقد كان الغزالي منسجماً مع نفسه كل الإنسجام عندما جعل الأهداف الدينية غايته التربوية التي سعى لتوجيه عقول الناشئة وقلوب الشباب إليها، على قاعدة أن الإسلام منهج حياة، لذلك فإن الفكر التربوي عند الغزالي ليس تحليقاً في آفاق من الخيال كما يحاول أن يذهب بعضهم خطأ، خاصة وأن هذا الفكر يتصل بواقع معين محاولاً أن يرقى به لمستوى رفيع ذي أوصاف معينة.

وبأيجاز يمكن القول بأنه لا يمكن فهم الفكر التربوي عند الغزالي دون فهم العقيدة الإسلامية التي شكلت الإطار العام لنظرة الغزالي العقدية التي انطلقت منها وعلى أساسها أفكاره التربوية.

ولقد استلهم الغزالي آراءه التربوية من خلال فهمه للتصور الإسلامي، حيث جاءت نظرته العقدية انعكاساً لهذا التصور الذي أكسب رسالته التربوية مجموعة من الخصائص التي شكلت بمجملها مذهبه التربوي.

وتعتبر آراء الغزالي في هذا المجال محاولة إنسانية جادة للفهم جاءت في إطار الأصول والنصوص الثابتة، بحيث تبقى هذه الإجتهادات والتصورات معرضة للتعديل والتطوير بما لا يتعارض مع الأصول الموجودة في نصوص الوحي المنزل ـ وهي القرآن الكريم ـ وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وبما أن «طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء»[1] إضافة إلى أن الإسلام «يأخذ الكائن البشري كله... بفطرته التي خلقه الله عليها... ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل»[2]. فمن الطبيعي إذن أن يكون الإسلام «نظام النظم حيث أنه يندرج تحته عدة نظم، ففيه نظام للإقتصاد ونظام للسياسة ونظام للإجتماع، ونظام للتربية»[3]. وبناء عليه فإن الإسلام «قد حدد معالم النظم الأصغر التي تندرج تحته»[4] ومنها نظامه التربوي الذي تميز بمجموعة من الخصائص التي حددتها أصوله العقدية والتي عبر عنها عدد كبير من علماء المسلمين ومن بينهم الإمام الغزالي الذي أكد بدوره على هذه السمات التي ميزت منهج التربية الإسلامية عن غيره من المناهج.

ـ الغزالي والسمات المميزة للتربية الإسلامية:

إن التصور الإسلامي للكون والإنسان والمجتمع انعكس على التربية الإسلامية ولذلك كان من الطبيعي أن تتسم هذه التربية بعدد من الخصائص التي

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٨.

(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٣) محمد سيف الدين فهمي: النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية، ص٦٥.

(٤) علي أحمد مدكور: منهج التربية في التصور الاسلامي، ص٢٧.

تشكل في مجموعها الإطار الحضاري لهذه التربية ولقد جهد الغزالي وغيره من علماء المسلمين في أظهار هذه السمات التي تعتبر الأسس التي تستند أليها هذه التربية ومنها أن التربية الإسلامية تربية:

١ ـ سلوكية (عملية):

إن العمل في نظر الإسلام هو الذي يعطي للإنسان قيمته. ودليل عظمة العمل وجلال شأنه اشتمال القرآن الكريم على ٣٦٠ آية تتحدث عن العمل[١]. ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى دور الإنبياء والمرسلين في مجالات العمل بدءا بنوح وانتهاء بمحمد عليهما السلام.

ومحمد صلى الله عليه وسلم عمل راعياً وتاجراً ورفض أن يترك العمل حتى بعد أن بعث رسولاً لأنه يرى في العمل شرف وحق وواجب وحياة. ولقد أعطى للعمل مضامينه الحقيقية. وبيّن لأتباعه أنه سبب الجزاء ووسيلة التفاضل بين بني البشر ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[٢].

وإتقان الإنسان لعمله يكسبه قيمة بين الناس ويرقى به في مجتمعه وعند بارئه، قال تعالى: وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾[٣].

ويضرب الله لنا الأمثال التي تحثنا على العمل والحركة حتى نعيش حياة طيبة كريمة قال تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾[٤]. فالإنسان وإن أخذ الماء بكفّه فإنه ما لم يحركها باتجاه فمه ستستمر

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة النجم الآيات: ٣٩، ٤٠، ٤١.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٤.

معاناته من العطش ويمكن أن يموت من الظمأ والماء بين يديه إذ لا بد من العمل والحركة باتجاه هادف حتى يصل الماء للفم ويتمكن من إرواء ظمئه. ويحث الرسول الكريم بدوره على احترام العمل والسعي إليه فيقول «خير الكسب كسب يد»[1].

يتضح مما سبق قيمة العمل في ميزان الإسلام وتقدير الرسول الكريم للعاملين المخلصين الذين قال فيهم رب العالمين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾[2] فلقد أراد القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين تربية أدائية عملية تقوم على الخبرة والعمل سواء في العبادات أم المعاملات بحيث يكتسب الفرد المسلم خبرات خلقية جديدة وعادات تنسجم مع تعاليم الإسلام ونظرته إلى الكون والإنسان.

فالتربية الإسلامية ليست تربية فكرية وليست تربية وجدانية وليست إرادية فحسب، ولكنها هذه الثلاث مجتمعة. ففي مكة المكرمة كان الإيمان غذاء للروح والوجدان، علم المسلمين الصبر ومنحهم الأمل وعلى هذه القاعدة جاءت تربية أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أجمعين. فكانوا قدوة في الإخلاص لدينهم والصبر على المكاره. فبلال بن رباح مثلاً لم تنل الرمال الحارة ولا الحجارة الكبيرة التي كانت توضع على صدره من إيمانه، إنما زادته تمسكاً بالإسلام وإصراراً على قول «أحد. . . أحد».

ففي كل هذا تأكيد على أن التربية الإسلامية «تربية عملية تتحول بها الكلمة إلى عمل بناء أو إلى خلق فاضل أو إلى تعديل في السلوك على النحو الذي يحقق وجود ذلك الإنسان كما تصوره الإسلام»[3]. فهي أي التربية الإسلامية «لا تكتفي بالقول وإنما تتعداه إلى العمل والممارسة ونحن إذا نظرنا إلى المبادىء الرئيسية الخمسة التي بنى عليها الإسلام نجد أنها تتطلب سلوكاً عملياً فالشهادة بوحدانية

---

(١) رواه احمد في المسند، ج٢، ص٣٣٤، ٣٥٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٣٠.

(٣) عبد الغني عبود: في التربية الاسلامية، ص١٥٧.

الله ونبوة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان كلها تتطلب سلوكاً عملياً. ومن تمام كمال الإنسان المسلم أن تتطابق أقواله مع أفعاله. كما اهتمت التربية الإسلامية بتكوين العادات السلوكية الحسنة عند الفرد منذ طفولته الأولى لما في هذه العادات من أثر طيب في اكتساب الفضائل والبعد عن الشرور والرذائل»[١].

ولقد اهتم علماء المسلمين ومنهم الغزالي بهذا الجانب من جوانب التربية الإسلامية، إيمانا منهم بأنه ما لم يتحول العلم إلى عمل يكون وبالاً على صاحبه إذ يجب «أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به»[٢] لقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[٣] وقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾[٤] وكذلك في مخاطبته تعالى لعيسى عليه السلام «يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني»[٥]. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه «ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات»[٦] وقال حاتم الأصم رحمه الله «ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو»[٧]. وعن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعلموا»[٨]. وعن عيسى عليه السلام أنه قال «مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل إمرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس

---

(١) محمد منير مرسي: التربية الاسلامية اصولها وتطورها في البلاد العربية، ص٦٣.
(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٤.
(٤) سورة الصف، الآية: ٣.
(٥) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٧٨.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٧.

الأشهاد»[1]. وجاء في التوراة والإنجيل «لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم»[2].

فالغزالي يورد كل هذه الشواهد ليؤكد على قناعته بضرورة ربط القول بالفعل والعلم بالعمل. ولقد كان هذا من جملة الأسباب التي جعلته يتخذ موقفاً سلبياً من الفلاسفة. لذلك فهو يذكر طالب العلم بأنه على خطأ فيما لو اعتقد بأن نجاته في «العلم المجرد»[3] و «أنه مستغن عن العمل»[4] لأن «هذا إعتقاد الفلاسفة». ولذلك فهو ينبه كل طالب علم «إنه حين حصل العلم إذا لم يعمل به تكون الحجة عليه آكد»[5] تصديقاً لقوله صلى الله عليه وسلم «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[6].

«وعيب الفلاسفة هنا كما يراه الغزالي هو (شطحاتهم) التي تبعد بهم عن الحق سواء في نظرتهم إلى الإنسان أو في نظرتهم إلى الكون والحياة أو في نظرتهم ألى أمور تتصل في الحياة اليومية كالعلم والعمل وما بينهما من علاقة... إنهم يثقون ثقة مطلقة في عقولهم فتكون النتيجة ضلالهم وبعدهم عن جادة الصواب»[7].

فالعلم لا بد وأن يحدث تغييراً في سلوك الفرد المتعلم خاصة عندما نعلم أن الإيمان في الإسلام هو ما وقر في القلب وصدقه العمل. ويمثل الغزالي على ذلك فيقول «لو كان لرجل حرارة ومرض صفراوي يكون علاجه بالسكنجبين والكشكاب، فلا يحصل البرء إلا باستعمالهما... ولو قرأت العلم مائة سنة وجمعت ألف كتاب لا تكون مستعداً لرحمة الله تعالى إلا بالعمل»[8] تصديقاً

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٧٩.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) الغزالي: ايها الولد، ص٩٤، ٩٥.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) رواه البخاري في كتاب اللباس حديث رقم ٨٩.
(٧) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي، ص٦٩.
(٨) الغزالي: ايها الولد، ص٩٨، ٩٩.

لقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾[1].

وبناء عليه يقرر الغزالي أن العلم المجرد عن العمل كارثة ووبال على صاحبه. «لأن المنزلة التي احتلها العلماء في الإسلام لم يحتلوها لمجرد علمهم بل لما يترتب على هذا العلم من آثار حيث يكون العالم أقدر على القيام بمهام الإستخلاف من الجاهل»[2].

ولو نظرنا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[3] لأدركنا مدى المسؤولية والتبعة الملقاة على العالم الذي أوجب عليه الإسلام أن يكون عاملاً بعلمه. ولذلك فإن العالم الكافر أبعد ما يكون عن الله يوم القيامة وذلك بسبب خطورة دوره حيث أن «العالم الفاسد أكثر فتكاً بالمجتمع من الجاهل الفاسد إذ أن ضرر الثاني محدود، لا يتجاوز حدود أفراد معينين. أما العالم الفاسد فإنه يستطيع أن يفسد المجتمع بأسره بل المجتمعات بأسرها»[4].

وعلى قاعدة الإيمان باليوم الآخر يعتبر العمل الميزان في القرب من الله أو البعد عنه لذلك فإن الغزالي يذكر تلميذه وينبهه إلى أن «العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون. واعلم أن علماً لا يبعدك اليوم عن المعاصي ولا يحملك على الطاعة لن يبعدك غداً عن نار جهنم وإذا لم تعمل اليوم ولم تدارك الأيام الماضية تقول غداً يوم القيام: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾[5] فيقال ياأحمق أنت من هناك تجيء»[6].

فالمسألة في نظر الغزالي ليست مسألة فكرية أو علمية. كما وأنها ليست

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) عبد الغني عبود: الفكر التربوي عند الغزالي ص٧٤.
(٣) رواه البخاري في كتاب اللباس، حديث رقم ٨٩.
(٤) مقداد يالجن: الاتجاه الاخلاقي في الاسلام، ص١٠١.
(٥) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٦) الغزالي: ايها الولد، ص١٠٨، ١٠٩.

مجرد مقارنة بين من يعلم ومن لا يعلم إنطلاقاً من قناعته بأن التربية لا بد وأن تحدث تغييراً في اتجاهات الفرد ومواقفه. ولذلك فهو يحكم على العلم بمقدار انسجامه مع الشرع، وفعاليته وقدرته على إحداث التغيير المرغوب فيه وفقاً لنظرة الإسلام للإنسان ودوره في هذه الحياة. لذلك كان موقف الغزالي مع تلميذه حاسماً عندما قال له «ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة»[1].

وبهذا يكون الغزالي قد وضع معيار العلم النافع والتغيير السلوكي المرغوب فيه قناعة منه بأن التربية يجب أن تكون عملية سلوكية قادرة على أن تحدث تغييراً أو تعديلاً في سلوك الإنسان بما لا يتنافى مع الشريعة الإسلامية المستوحاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة «لأن علم وعمل المخلوقات بغير فتوى المصطفى صلى الله عليه وسلم ضلالة وسبب للبعد عن الله تعالى»[2].

٣ ـ شاملة تكاملية:

إن نظرة الغزالي العقدية التي استمدها من التصور الإسلامي للكون والإنسان تعتبر وجهاً من وجوه التعبير عن نظرة الإسلام للكون والإنسان «فالإنسان الفرد وحدة متكاملة وقواه المختلفة موحدة الإتجاه. فهو ليس جسماً مستقلاً لذاته عن الروح والعقل. وليس عقلاً منفصلاً لا علاقة له بالجسم والروح. وليس روحاً هائمة بلا رباط من عقل وجسم، بل هو كيان واحد متكامل الأجزاء»[3]. «وهكذا فإن المفهوم الواقعي للطبيعة الإنسانية يجد مصداقية في التعاليم الأخلاقية الإسلامية التي تؤلف بين البدن والروح في دعوة واحدة إلى الكمال والتي تمزج في نفس الممارسة الدينية بين نظافة البدن وطهارة النفس»[4].

لذلك فإن التربية الإسلامية «لا تقتصر على جانب واحد من شخصية

---

(١) المرجع السابق، ص١١٧.

(٢) الغزالي: خلاصة التصانيف في التصوف، مجموعة رسائل الامام الغزالي، الجزء ٢، ص١٤٠.

(٣) علي أحمد مدكور: منهج التربية في التصور الاسلامي، ص٧٩.

(٤) أحمد عروة: الإسلام في مفترق الطرق، ص٥٦.

الإنسان»[١] لأنها «ترفض النظرة الثنائية إلى الطبيعة الإنسانية التي تقوم على التمييز بين العقل والجسم وسمو العقل على الجسم وإنما هي تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تشمل كل جوانب الشخصية. فهي تربية للجسم وتربية للنفس والعقل معا»[٢].

وتتميز العقيدة الإسلامية عن المسيحية واليهودية بنظرتها المتكاملة والشاملة إلى الإنسان. فالإسلام «هو التركيب الجدلي الجامع بين النقيضين: المادية اليهودية والروحانية المسيحية في وسط معتدل»[٣].

لذلك فإن «تكامل جوانب الشخصية الإنسانية في مفهوم التربية الإسلامية يتفق مع تصور الإسلام لوحدة الإنسان الفرد ووحدة الإنسانية جمعاء»[٤]. فكل جانب من جوانب الشخصية الإنسانية يؤثر سلباً أو إيجاباً في الجانب الآخر ويتأثر به فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[٥]. ومن الأدلة على أهمية الجسم في التربية الإسلامية إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لما قاله سلمان الفارسي لأبي الدرداء «إن لبدنك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً فاعط كل ذي حق حقه»[٦].

وإلى جانب كون التربية الإسلامية تربية للجسم والروح فهي أيضاً تربية للعقل فالإسلام «جعل الكون وجعل الحياة والأحياء من بين مصادر المعرفة بهذا الإنسان»[٧] ولقد وجه الإنسان «إلى استخدام العقل للمعرفة إما بتدبر آيات الله في الكون وإما بتدبر حقائق الوحي وحقائق الحياة»[٨] يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي

---

(١) محمد منير مرسي: التربية الاسلامية اصولها وتطورها في البلاد العربية، ص٥٧.
(٢) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٣) مصطفى محمود: الماركسية والاسلام، ص٢٢.
(٤) علي أحمد مدكور: منهج التربية في التصور الاسلامي ص٧٩.
(٥) رواه البخاري في كتاب الإيمان حديث رقم ٣١.
(٦) رواه البخاري في كتاب الأدب حديث رقم ٨٦.
(٧) سيد قطب: خصائص التصور الاسلامي ومقوماته، ص١٤٠.
(٨) المرجع السابق ص١٤١.

ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1].

لا شك أن الشواهد السابقة تعطي الدليل على أن التربية الإسلامية تتصف بالشمول خاصة وأن الدين الإسلامي هو من عند الله المحيط بكل شيء والعارف بالإنسان وحاجاته وما يدور في خلده أكثر من الإنسان نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[2].

ولو نظرنا إلى الأهداف التربوية التي سعى الغزالي لتحقيقها وإلى المنهاج التربوي الذي اعتمده كوسيلة لتحقيق هذه الأهداف لوجدنا أن صفة الشمول في كليهما بارزة في غير موقع ومكان.

فالشخصية الإسلامية المتميزة ـ والمجسدة للمعنى الإنساني بأتم صوره الإنسانية ـ التي سعى الغزالي لتحقيقها لا بد وأن تكون شخصية شاملة متكاملة من كافة الجوانب على الرغم من قناعة الغزالي بأن أحداً غير الرسول الكريم لم يستطع بلوغها. ولطالما أن شخصية الرسول هي القدوة والأسوة الحسنة التي حث كل مسلم للقرب منها بات من السهل علينا أن نقرر بأن الغزالي استطاع أن يضفي على أهدافه التربوية صفة الشمول والتكامل وهي الصفة التي ميزت شخصية الرسول الكريم عن غيره من بني البشر.

ولتحقيق مثل هذا الهدف المتعدد الجوانب والاتجاهات لارتباطه بالحياة الدنيا والآخرة وشخصية الإنسان من كافة جوانبها سعى الغزالي إلى اعتماد منهج تربوي يتصف بالشمول على قاعدة الإرتباط الكامل بالدين وتعاليمه وقيمه. ومعلوم أن التصور الإسلامي سواء للإنسان أو الكون اتسم بهذه الصفة التي لم تتأت لغيره من الأديان.

ولو عدنا للوظيفة الخامسة من وظائف المتعلم لوقفنا على رأي الغزالي

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) سورة ق، الآية: ١٦.

الذي يرى أن «العلوم المختلفة مترابطة ومتصلة بعضها ببعض وقد يضعف الجهل ببعضها دراسة بعضها»[1] الآخر، لذلك نصح الغزالي بألا يهمل المتعلم دراسة أي علم من العلوم المحمودة سواء كانت دينية أم[2] دنيوية بقدر يمكنه من معرفة أغراضها وما تبحث فيه، وإن كانت هناك فرصة فليتبحر المتعلم فيها بادئاً بالأهم فالمهم. ويقول الغزالي إن المعرفة المتعددة النواحي أفضل من المعرفة المحدودة. ذلك لأن العلوم المختلفة يعين بعضها بعضاً كما أن الإختصاص الضيق يتسبب في التعصب لعلوم دون أخرى. ذلك لأن الناس أعداء ما جهلوا فقد أتى الغزالي بمبدأ تربوي هام جداً. فإن اتجاه العصر في التعليم يهدف إلى جعل الدراسة عامة شاملة ومتنوعة في مراحل التعليم على اختلافها ـ حتى في مرحلة التعليم العالي ـ وذلك لنشر الثقافة والعمل على اتساعها ذلك الإتساع الذي يمنع التعصب وضيق الأفق ويضمن تكوين المواطن المستنير»[3].

وفي الإتجاه نفسه القائم على النظرة الشمولية للمنهاج يعيب الغزالي على المعلم أن يقبح في نفس المتعلم العلوم التي ليست مجال اختصاصه أو عمله. ويرى أن ذلك «شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه»[4].

ويسعى الغزالي من وراء ذلك كله إلى تحقيق التكامل بين قوى الإنسان المختلفة سواء الجسمية أو العقلية أو النفسية منها خاصة وأن الإسلام «يشمل حياة الإنسان من جميع وجوهها مادية كانت أم مدنية أم اقتصادية أم أخلاقية أم روحية»[5].

لذلك فإن التربية الإسلامية في نظر الغزالي ـ المستوحاة من الأصول الإسلامية ـ ليست جزئية الغرض علاوة على أنها تعتمد على منهج شامل

---

(١) وردت في النص «البعض».
(٢) وردت «أو».
(٣) فتحية سليمان: المذهب التربوي عند الغزالي، ص٤١.
(٤) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٧١.
(٥) محمد فاضل الجمالي: آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص١٢٩.

ومتكامل، اعتنى بالإنسان ككل، واهتم بالدنيا والآخرة إلى جانب اهتمامه بالمادة والروح، وذلك بهدف بناء شخصية المسلم المتميزة ببلوغ النفس كمالهاوالقادرة على تحقيق سعادة الدنيا والآخرة والقرب من الله تعالى «وأما الفوز بالسعادة فلا يناله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجنة النعيم. وأما الممنوعون دون ذروة الكمال فلهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾[١] وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم ينتهض له أو انتهض إلى جهته لا على قصد الإمتثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضّالين فله نزل من حميم وتصلية جحيم»[٢].

٣ ـ متوازنة:

إن هذه الخاصية متلازمة مع خاصية «الشمول» التي سبق تناولها وذلك لأن «الشمول» في التصور الإسلامي «شمول متوازن». «وقد صانته هذه الخاصية الفريدة من الإندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك والتصادم هنا وهناك لأن هذه الآفات لم يسلم منها أي تصور آخر سواء التصورات الفلسفية: أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية بما أضافته إليها أو نقصته منها أو أولته تأويلاً خاطئاً، وأضافت هذا التأويل الخاطيء ألى صلب العقيدة»[٣].

«والإسلام قد أتى للناس بالتوازن بين العقل والإيمان، وخط معالم الإلتقاء بين الجهد الإنساني والكشف الرباني، وهو أيضاً نقطة الإتصال التي تجمع بين المادة والروح، وذلك ما يعطيه قوة كامنة متطورة ومبدعة مداها الحقيقي يكاد يكون لا متناهياً وعلى الناس أن يعوها أولاً وأن يستخدموها بعد ذلك في استكشاف المصير الخالد للإنسان وبنائه بناءً واعيا»[٤].

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٧، ٦٨.

(٣) سيد قطب: خصائص التصور الاسلامي ومقوماته ص١١٤.

(٤) احمد عروة: الاسلام في مفترق الطرق، ص٤٨.

فالإنسان «له كيانان أحدهما أثيري لا يمكن رؤيته والإتصال به بأدوات الحس الإنساني الراهنة، والثاني فيزيقي مادي هو الذي يمكننا أن نراه»[1] فشخصية الإنسان إذن تتكون من عنصرين أحدهما مادي يرمز إليه بالجسد والآخر غير مادي يرمز إليه بالروح.

وإلى جانب الجسد والروح فإن للذات الإنسانية عقلاً يمكن صاحبه من التمييز بين الخير والشر. ويساعده على التحكم بقواه المختلفة بالإتجاه الذي يؤهله أن يكون خليفة الله تعالى في الأرض. وهذه «القوة الشعورية أو القوة الفكرية التي تعطي الإنسان قوة التأمل والمراجعة والترجيح والحكم بين الأشياء أو الطرق أو الوسائل العديدة التي سيواجهها الإنسان عند الحصول على مطلوبه»[2] تشكل مرتكز التكليف حسب ما جاء في القرآن الكريم حيث أن فاقد العقل فاقد للتكليف.

وعلى الإنسان «أن يعمل بطاقاته جميعاً في واقع الحياة»[3] لأن «استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازناً في داخل النفس وواقع الحياة سواء»[4] فالتوازن في نظر الإسلام «شامل يشمل كل نشاط الإنسان» فهو «توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح. توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته... توازن بين الإيمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي تدركه الحواس. توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، توازن في النظم الإقتصادية والاجتماعية والسياسية. توازن في كل شيء في الحياة»[5].

لذلك فإن التوازن سمة من السمات المميزة للإنسان الصالح الذي يعتبر الهدف الأساسي الذي سعت وتسعى التربية الإسلامية لتحقيقه. والمتتبع لفكر

---

(١) عبد الغني عبود: الانسان في الاسلام والانسان المعاصر، ص١٠٠ ـ ١٠٢.
(٢) محمد البهي: الفكر الاسلامي والمجتمع المعاصر، ص٣٩٩.
(٣) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص٢٧.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.

الغزالي التربوي يجد أن ظاهرة عدم التوازن التي كانت سائدة في عصره هي التي كانت وراء العديد من المواقف التي اتخذها للوقوف بوجه التدهور وتصحيح الخلل الذي لحق بالمجتمع الإسلامي نتيجة اختلال التوازن بين قواه المختلفة سواء المادية أو المعنوية منها.

وليس غريباً أن يكون اختلال التوازن الذي لحظه الغزالي في تفكر الفئات الأخرى وممارساتها المختلفة التي عايشها وتمكن من الإطلاع على منهج حياتها وطريقة تفكيرها من أهم الأسباب التي وقفت وراء شكه في كثير من المسائل التي تطرق إليها والأشخاص الذين تناولهم في كتاباته وأعماله.

فالغزالي كان يريد من الناس أن تستغل قواها الحيوية في عمارة الأرض، وقواها الروحية في التعرف على الله سبحانه وتعالى وقواها العقلية في التعرف على أسرار الكون الذي لا بد وأن يؤدي في نهاية المطاف للتعرف على الله. إلا أن اختلال التوازن بين قوى الإنسان والمجتمع المختلفة جعل الناس تخرج عن جادة الحق والصواب. وعلى قاعدة العودة بفئات الناس المختلفة إلى حالة التوازن، كان موقف الغزالي واضحاً من فرق المتكلمين والباطنية والفلاسفة والصوفية، حيث درسها كلها واستقصى ما عندها ومن ثم انتقدها.

فلقد وجد الغزالي أن كل فئة من هذه الفئات جنحت في الإعتماد على قوة من قواها على حساب باقي القوى. فالفلاسفة ومن أعجب بهم أو اتبعهم من المتكلمين والباطنية جنحوا بقواهم العقلية وكادوا أن يذهبوا بالإسلام بعيداً عن طبيعته وفطرته. كما وأن فئة من الصوفية جنحت بقواها الروحية فهامت في سبحات روحية سلبية بعيدة عن عالم الواقع المادي بعيداً عن فطرة الإسلام[١].

ويشير الغزالي إلى سمة التوازن بلفظة «الإعتدال» «الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»[٢] ويؤكد على هذه الخاصية التي يرى فيها أساساً من أسس

---

(١) انظر البحث موقف الغزالي من التيارات الفكرية في عصره.

(٢) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٦٢.

التربية الإصلاحية إنطلاقاً من قول الرسول الكريم «الوسط العدل»[1] فاختلال أي جانب من جوانب شخصية الإنسان يفقدها التوازن الذي يجب أن يكون من صفات الإنسان المسلم. ويرى الغزالي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾[2] أن الله تعالى «رد الغضب والشهوة إلى حد الإعتدال بحيث يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما... وهو المراد بتغيير الخلق»[3]. فالمطلوب في نظره «هو الوسط في الأخلاق دون الطرفين»[4] لأن كافة القيم التي حث عليها الإسلام تشكل حالة وسط بين طرفين متناقضين «فإن الفاتر لا حار ولا بارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين، فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير. والشجاعة بين الجبن والتهور، والعفة بين الشره والجمود. وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفي الأمور ذميم»[5]. وأخيراً يقرر الغزالي صفة التوازن التي تتمثل بحسن الخلق الذي يرجعه بدوره إلى «اعتدال قوة وكمال الحكمة وإلى إعتدال قوة الغضب والشهوة»[6] التي يرى أنها مطيعة للعقل والشرع على حد السواء.

والسعادة كما يحددها الغزالي «منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم»[7]. هذه العوارض التي تشكل بدورها الطرفين اللذين يجب تجنبهما والإبتعاد عنهما حتى يتأتى للإنسان أن يكون من الذين قال بحقهم تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[8] ولتقريب ذلك من الأفهام يشير الغزالي إلى أن «البخل من عوارض الدنيا، والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أي لا يكون ملتفتاً إلى المال ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا

---

(١) رواه أحمد في المسند ج٣، ص٣٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٦٢.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع السابق، ص٦٢، ٦٣.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

على إمساكه فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعاً»[1].

وحالة الإتزان هذه أو الإعتدال حسب الغزالي إما أن تتأتى للإنسان عن طريق «جود إلهي وكمال فطري»[2] وإما أن يكون «اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة»[3] أي عن طريق «حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب»[4] في الوقت الذي يرى فيه الغزالي «أن الغالب على أصل المزاج الإعتدال»[5].

وعلى الرغم من وضوح رأي الغزالي في التوازن كسمة من السمات المميزة للتربية الإسلامية إلا أن هناك من أساء فهمه وظن أنه بموقفه هذا أخل بالتوازن المطلوب في التربية الإسلامية فحملوا عليه بسبب إعجابه بالصوفية وتبنيه لطرقهم وإقتناعه بصواب موقفهم حين قال فيهم «إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق. بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء النبوة على وجه الإرض نور يستضاء به»[6].

ويبدو أنه غاب عن ذهن هؤلاء أن موقف الغزالي من الصوفية لم يكن موقفاً

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج٣، ص٦٢.
(٢) المرجع السابق، ص٦٣.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٣٩.

متعصباً بدليل أنه لم يتردد في انتقاد الذين خرجوا منهم عن حدود العقل والشرع[١].

ليس هذا فحسب بل أن صوفية الغزالي نابعة من رسالته الأخلاقية القائمة على «تطهير الجوارح تطهيراً كاملاً عما يلوثها وتذكية القلب حتى عن همسات الغل والحسد ولأماني التفوق والغلبة»[٢]. هذا إلى جانب أنها «الطهارة التامة الشاملة لأحاسيس الروح ونداءات البدن ووثبات العقل، فهو يرى أن الإنسان خلق للفضيلة وأن السعادة والفضيلة صنوان وأن الإنسان الفاضل هو الإنسان السعيد»[٣].

ولقد كان الغزالي على قناعة بأن «الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا»[٤] لذلك فهو يرى أن «علماء الظاهر زينة الإرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت»[٥]. فانطلاقاً من هذا الفهم للدنيا والآخرة فإن التصوف في نظره يشكل مرتبة متقدمة من مراتب العلماء. فالصوفي في نظره يجب أن يحصّل «الحديث والعلم»[٦] لأن «من تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»[٧] كما وأن العلم عند الغزالي مقرون بالعمل تصديقاً لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[٨] والقرآن الكريم «أنزل. . . ليعمل به»[٩] ويشترط بالعلم والعمل النية حيث أن طلب العلم ونشره في نظر الغزالي حسن «إذا صحت فيه النية»[١٠].

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٤٨، ٤٩.
(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٦٧.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٢٩.
(٥) المرجع السابق، ص٣٣.
(٦) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٧) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٨) سورة الصف، الآية: ٣.
(٩) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٧٩.
(١٠) المرجع نفسه والمكان نفسه.

وبناء عليه فإن صوفية الغزالي لا تتم إلا بالعلم والعمل والنية. إلى جانب أنه يرى فرقاً عظيماً بين معرفة حقيقة الزهد وشروطه وبين أن يكون حالك الزهد «وكم من الفرق بين أن تعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن تكون صحيحاً وشبعان»[١]. الشيء الذي جعله يتيقن من أن الصوفية «أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال»[٢]. لذلك فإن الغزالي بعد أن حصل علومه سعى للوصول إلى رتبتهم لذلك فهو «قد ذاق أحوال الصوفية بعد أن حصل علومهم ثم ارتقى إلى درجة المكاشفات والمشاهدات»[٣] فتصوف الغزالي هو «النسك والزهد في الدنيا بعد أن أقبلت عليه، تصوف يحده الإيمان بالله والعمل المنزه عن كل غاية من الغايات المشيمة لا تصوف الذين تظاهروا بالزهد في الدنيا بعد أن زهدت بهم ولبسوا الخرق والمرقعات وتشبهوا بالإولياء ليتبارك بهم البلهاء»[٤].

ولهذا يمكننا القول بأن تصوف الغزالي كان بمثابة جرعة الدواء الضرورية لإعادة التوازن لحالة عدم التوازن بين العقل والروح والتي كادت أن تغرق الناس في ظلمات من الجهل نتيجة انبهارهم بالفلسفة اليونانية وتغليبهم للتربية العقلية على حساب التربية الروحية.

فالغزالي واحد من المربين المسلمين الذين آمنوا بأن التربية الإسلامية تعني الوصول بالنشء الإسلامي إلى الكمال الذي هيؤوا له، لذلك كان لا بد لمنهج التربية الإسلامية من مراعاة ميولهم واتجاهاتهم وقدراتهم إذ لا بد من أن يأخذ في الإعتبار قدراتهم الجسمية والعقلية والروحية كي لا تتم تربية ميل على حساب ميل أو اتجاه على حساب اتجاه أو قدرة على حساب قدرة أو أن يهتم بعقولهم على حساب أجسامهم أو وجدانهم فيحصل الخلل في النشء هذا إلى جانب القلق النفسي والتضارب وعدم التكامل بين أجزائهم المختلفة.

---

(١) الغزالي: المنقذ من الضلال، ص١٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٣٣.
(٣) المرجع السابق، ص٤٥.
(٤) محمد جواد مغنية: «مصدر العلوم عند الإمام الغزالي»، ابو حامد الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده ص٥١٩.

يتضح مما سبق أن الغزالي أسهم إسهاماً فاعلاً في تعزيز خاصيّة التوازن التي تعتبر إحدى أهم الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية على الرّغم مما قيل بحقه من قبل الذين اتهموه بالمثالية والتحيز إلى الصوفية وذلك لأن صوفيته كانت تقوم على العلم والعمل والنية الصادقة في القرب من الله تعالى.

٤ ـ فردية واجتماعية:

كان الرسول واضحاً كل الوضوح عندما حدد الغاية الأساسية لبعثته من خلال مقالته «إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق»[١] فتأكيد الرسول الكريم على مكارم الأخلاق تأكيد على أن التربية في الإسلام ما كانت إلا لضمان حق كل من الفرد والجماعة على حد السواء. إذ ليس من حق أي منهما أن يحقق سعادته على حساب الآخر لقوله صلى الله عليه وسلم «لاتباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يظلم أحد أحداً»[٢]. وفي هذا دليل على أن الإسلام في نظرته إلى الحياة «يوسع من ميدان الإنسان ويفرض عليه نظرة أعمق إلى مصالحه»[٣].

«فالفرائض التي ألزم الإسلام بها كل منتسب إليه هي تمارين متكررة لتعويد المرء أن يحيا بأخلاق صحيحة وأن يظل متمسكاً بهذه الأخلاق مهما تغيرت أمامه الظروف»[٤]. ففي الصلاة مثلاً يقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٥]. وجاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر»[٦].

---

(١) رواه مالك في الموطأ، كتاب حسن، حديث رقم ٨.
(٢) رواه البخاري في كتاب النكاح حديث رقم ٤٥.
(٣) محمد باقر الصدر: فلسفتنا، ص٤٧.
(٤) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص٧.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٦) رواه مسلم، باب فضل الصلاة، رياض الصالحين، ص٣٣٢.

ولو استعرضنا باقي الفرائض والعبادات لوجدنا أنها «مدارج الكمال المنشود وروافد التطهر الذي يصون الحياة ويعلي شأنها. ولهذه السجايا الكريمة ـ التي ترتبط بها أو تنشأ عنها ـ أعطيت منزلة كبيرة في دين الله. فإذا لم يستفد المرء منها ما يذكي قلبه وينقي لبه ويهذب بالله وبالناس صلته فقد هوى»(١). قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾(٢).

لذلك يمكننا القول بأنه «تقوم التربية الإسلامية على تربية الإنسان تربية فردية ذاتية فهي تربية على الفضيلة ليكون مصدر خير للجماعة وتحمله مسؤولية أعماله وتصرفاته، فكل أمرء بما كسب رهين. وكل مسلم راع وكل راع مسؤول عن رعيته. ويربي الإسلام في الوقت نفسه الفرد تربية إجتماعية»(٣) لقوله صلى الله عليه وسلم «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره»(٤).

«فكما أن الفرد كل له أجزاء فهو أيضاً جزء من كل هو المجتمع»(٥). ولقد كان الرسول الكريم واضحاً في تحديد طبيعة العلاقة التي يجب أن تسود بين الفرد والجماعة في حديثه الشريف «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(٦).

فعلى الرغم من أن الفردية والجماعية تمثلان خطين متناقضين إلا أنهما مترابطين ومتكاملين والإسلام ينبه «إلى الطبيعة المزدوجة في هذا الكائن البشري التي تبدو متناقضة حين ينظر إليها من السطح. ولكنها مع ذلك مترابطة وهي تؤدي مهمتها في حياة الكائن البشري بتناقضها ذلك وترابطها. كما يؤدي مهمته الحب والكره والرجاء والخوف والسلبية والإيجابية والحسية والمعنوية والإيمان

---

(١) محمد الغزالي: خلق المسلم، ص٩، ١٠.
(٢) سورة طه، الآية: ٧٤.
(٣) عبد الغني النوري: التربية الإسلامية بين الاصالة والمعاصرة، ص٤٩، ٥٠.
(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم، حديث رقم ٣.
(٥) علي احمد مدكور: منهج التربية في التصور الاسلامي، ص١٩٧.
(٦) رواه البخاري في كتاب الادب، حديث رقم ٢٧.

بالواقع والإيمان بما وراء الواقع ويخرج لنا في النهاية مخلوق متعدد الجوانب موحد الكيان»[١].

والمتتبع للآداب التي عرضها الغزالي في كتاب «الإحياء» يكتشف كيف أنه أدرك هذه الحقائق وجهد لتحقيق رسالة الإسلام في التربية حيث أنه «جعل الأخلاق رسالته العليا وربط الأخلاق بالدين ربطاً لا إنفصام له، بل جعل الأخلاق هي روح الدين والغاية منه، وأضفى على العبادات أصولها وفروعها ألواناً خلقية متحببها إلى النفوس وتعطرها في القلوب وتملأ الحس خشوعاً وإيماناً وجلالاً»[٢].

ويعرف الغزالي الخلق تعريفاً دقيقاً حيث يقول أن «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً[٣].

فالخلق في نظر الغزالي ليس الفعل وإنما هو «هيئة النفس وصورتها الباطنة»[٤] «فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء»[٥]. والخلق الحسن في نظر الغزالي يقوم على اعتدال قوى ثلاثة هي القوة الغضبية والقوة العقلية والقوة الشهوانية. على قاعدة أن «المحمود ما يوافق معيار العقل والشرع»[٦].

وحسن الخلق حسب هذه القاعدة يحقق فردية الفرد وجماعية الجماعة. فإذا كان الهدف هو مرضاة الله تعالى: فإن التناقض بين الفردية والجماعية لا بد وأن

---

(١) محمد قطب: منهج التربية الاسلامية، ج١، ص١٦٣.
(٢) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٨٤.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٣، ص٥٨.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) الغزالي: ميزان العمل، ص٥٧.

يضمحل في ذات الإنسان لدرجة يتمكن معها من تحقيق السعادة الآخروية التي اعتبرها الغزالي السعادة الحقيقية[1]. والسعادة الدنيوية الموصلة للسعادة الآخروية حسب الغزالي تتمثل في اتباع الشارع لطالما رضي الإنسان لنفسه أن يكون خليفة الله تعالى على الأرض. ووسيلة ذلك هو «العلم والعمل»[2]. وأساس ذلك «العقل فهو ما لا ينال سعادة الدنيا والآخرة إلا به... وبالعقل صار الإنسان خليفة الله وبه تقرب إليه وبه تم دينه»[3] تصديقاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «رفع القلم عن المجنون المغلوب على عقله»[4].

فالغاية الإجتماعية في نظر الغزالي تقوم على أسس واضحة وصريحة لا لبس فيها. حدودها «الحب في الله والبغض في الله» الشيء الذي إن اتبع لا بد وأن يحقق السعادة الفردية والاجتماعية على حد السواء. لأن حب الله تعالى لا بد وأن ينعكس حباً بين بني البشر. وهو ما يعبر عنه الحديث الشريف «لا تؤمنوا حتى تحابوا»[5].

فانطلاقاً من هذا الفهم لدور الإنسان في الحياة سعى الغزالي لتضييق الهوة بين النزعات الفردية والمشاعر والإجتماعية باتجاه تحقيق أهدافه في بناء الشخصية الإسلامية على صعيد الفرد والمجتمع.

إلا أن زكي مبارك يجرد الغزالي من أية غاية إجتماعية[6] مستنداً في ذلك لقول الغزالي «إن السعادة الحقيقية هي الأخروية وما عداها سميت سعادة. إما مجازاً وإما غلطاً كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة. وإما صدقاً ولكن الإسم على الأخروية أصدق وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليه. فإن الموصل إلى الخير والسعادة قد يسمى خيراً وسعادة».

---

(١) المرجع السابق، ص٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٨.
(٣) المرجع السابق، ص٨٩.
(٤) حديث رواه ابو داود في كتاب الحدود حديث رقم ١٧.
(٥) رواه مسلم في كتاب الايمان حديث رقم ٩٣.
(٦) زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي، ص١٧٣.

ويبدو أن مبارك يبالغ في موقفه من الغزالي إذ «ليس من السهل أن نطلق هذا الحكم على الغزالي ونحن نراه في مواقف مختلفة يحث على تحسين أساليب التعايش في هذه الحياة ويحدد لعلاقات الناس وتعاطفهم أطراً معينة فهو الذي كتب في الآداب بما لو امتثلناه لتحاشينا حدوث غضب أحدنا من الآخر، ولعطفنا على الصغير واحترمنا الجار ووقرنا الكبير ولاجتنبنا حصول المحاسبة في كثير من العلاقات والتداولات الجارية في حياتنا اليومية»[١].

فلو صح ما ذهب إليه مبارك «على أن الغزالي ليست له غاية إجتماعية»[٢]. فمن حق القارىء أن يتساءل ما معنى أن يطالب الغزالي المربين الشفقة على التلاميذ والنظر إليهم كأبنائهم وأن يوجهوهم ويرشدوهم ويعاملوهم معاملة طيبة؟[٣] وما معنى أن «يعظم الغزالي رابطة الأخوة حتى يجعلها عقداً كعقد النكاح بين الزوجين»؟[٤] وما معنى أن ينهى عن التصنع كتصنع المرأة وعن التبذل كما يتبذل العبيد؟[٥] وما مبتغاه عندما يطلب من السلطان «استعمال الرفق وترك التعنيف والفكر قبل الأمر وترك التكبر على الخاصة مع منع العدوان منهم والتودد إلى العامة مع مزج الرهبة لهم والتطلع إلى أمور الحاشية، واستعمال المروءة مع أهل العلم والتوسعة عليهم وعلى الأصحاب والأقارب والرفق في الجناية ودوام الحماية»[٦].

كل هذا وغيره مما ورد في ربع العادات من كتاب «الإحياء» يؤكد على الغاية الإجتماعية إلى جانب الغاية الفردية عند الغزالي في الوقت الذي لا يقتصر بذلك على محبة الله بل يتعداه إلى محبة الدنيا إدراكاً منه لواقع الإنسان في هذه

---

(١) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشىء في فلسفة الغزالي، ص١٤٢.
(٢) زكي مبارك: الاخلاق عند الغزالي، ص١٧٣.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٦٩.
(٤) احمد خواجة: الاداب التعاملية في فكر الامام الغزالي، ص٩٢.
(٥) الغزالي: الادب في الدين، مجموعة رسائل الامام الغزالي، ج٥، ص١١٧.
(٦) المرجع السابق، ص١١٦.

الحياة. إذ «ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجل حظاً البتة، إذ الدعاء الذي أمر به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه فيه جمع بين الدنيا والآخرة»[١]. ومن أمثلة ذلك قولهم ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٢]. ويتابع الغزالي في تعزيز وجهة نظره هذه قائلاً «وعلى الجملة فإذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضاً لحب الله تعالى فحب السلامة والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا كيف يكون مناقضاً لحب الله؟ والدنيا والآخرة عبارة عن حالتين إحداهما أقرب من الأخرى فكيف يتصور أن يحب الإنسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم؟ وإنما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالاً راهنة فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة أيضا»[٣].

وعلاوة على ذلك فإن الغزالي «ليس بمستنكر أن يشتد حبك لإنسان لجملة أغراض ترتبط لك به فإن إمتنع بعضها نقص حبك وإن زاد زاد الحب فليس حبك الذهب كحبك للفضة إذا تساوى مقدارهما لأن الذهب يوصل إلى أغراض هي أكثر مما توصل إليه الفضة فإذن يزيد الحب بزيادة الغرض ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية فهو داخل في جملة الحب لله»[٤].

ويبدو أن في كلام الغزالي رداً مقنعاً على اتهامه بأن ليس له غاية اجتماعية خاصة وأنه «بذل جهدا جهيداً ليحبب إلينا محاسن الأخلاق أياً كانت. ومن هنا لا يجوز أن ننكر عليه قوله «أن السعادة الحقيقية هي الأخروية» أو أن نأخذ عليه أن يقرن إطلاق «السعادة» على ما يوصل إلى السعادة الأخروية ويعين عليها فلا تعارض بين هذا المفهوم والمفهوم الإسلامي للسعادة»[٥]. حيث يقول تعالى ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٦] ويقول: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج٢، ص١٧٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٣) الغزالي: الاحياء، ج٢، ص١٧٨.
(٤) المرجع السابق، ص١٧٩.
(٥) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشىء في فلسفة الغزالي، ص١٤٣.
(٦) سورة التغابن، الآية: ١٥.

ٱلْغُـرُورِ ﴾[1]. مما يؤكد على أن الرجل كان منسجماً مع نفسه كل الإنسجام ولذلك «فلا عجب من قول الغزالي ولا تناقض في آرائه ثم أنه لا مجال لنا بأن نقول إنه ليس له غاية اجتماعية ما دامت آراؤه التربوية من معدن الرسالة»[2] حسب ما خاطب تلميذه في رسالة «أيها الولد» قائلاً له «إن منشور النصحية يكتب من معدن الرسالة» أي من كتاب الله وسنة رسوله الكريم «وحاصل اليقين عندنا أن الرسالة عنيت بتوضيح أسس سعادتنافي الدارين، وأنها راعت الأهداف الإجتماعية بحيث لو هيئت الأوضاع الإجتماعية في أي مجتمع كما أراد لها الدين الإسلامي لحقق ذلك المجتمع أفضل مستوى من التكوين والتكامل ولحقق السعادة الأبدية بإذن الله بعد السعادة الدنيوية»[3].

ويمكننا أن نخلص إلى القول بأنه «ليس لنا أن نقلل من شأن أخلاقيات الغزالي لأن روح الزهد والقناعة تترقرق واضحة بين أسطرها، وعطر المحبة والعبادة يتضوع من شمائلها وعطافها. الأخلاق عند الغزالي نشيد لم يترك وجهة من وجهات الحياة إلا ألقى عليها النور والرحمة والإيمان والسلام. والأخلاق لديه صفات مثالية، أو إن شئت فهي محاولة صادقة لإنشاء إنسانية فاضلة وخلق مجتمع بشري سعيد»[4].

وعلى هذا الأساس استطاع الغزالي أن يجمع بين الفرد والجماعة من خلال رسالته التربوية انطلاقاً من إيمانه العميق بالإسلام كدستور تعامل ومنهج للحياة الخاصة والعامة، ولهذا يمكن القول بأن التربية عند الغزالي هدفت إلى تحسين حاجات الإنسان كفرد وحاجاته كعضو في جماعة على الصعيدين الديني والدنيوي. الشيء الذي مكن الغزالي من أن يكون رائداً من رواد الإصلاح الإجتماعي على الرغم من النزعة الصوفية التي أخذت عليه من قبل بعض الذين تحدثوا عنه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥.

(٢) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشىء في فلسفة الغزالي، ص١٤٣، ١٤٤.

(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.

(٤) طه عبد الباقي سرور: الغزالي، ص٨٨.

ـ مستمرة:

على الرغم من أن فكرة التربية المستمرة قد تعززت وقويت خلال السنوات الأخيرة فإن من الوهم الإدعاء بأنها من مستحدثات العصر. والمتتبع للقضايا التربوية يدرك أنه لا شيء جديد في فكرة متابعة العملية التربوية. وسواء كان ما يقومون به عن قصد أو غير قصد فإن الإنسان يتابع تدريب نفسه وتأهيلها خلال حياته عبر تأثير المحيطين به ومن خلال الخبرات المختلفة التي تبلور تصرفاته ومناهيه عن الحياة.

وفيما إذا حاولنا استقصاء آداب الحضارة الإسلامية، يمكننا أن نكتشف أن فكرة التربية مدى الحياة كانت من أهم الأسس التي قامت عليها التربية الإسلامية. فهناك كثير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار السلف الصالح التي تتماشى مع مفهوم التربية المستمرة.

وما نزول القرآن منجّماً وموزعاً ـ على مدى الزمن الذي امتدت فيه بعثة الرسول الكريم مرشداً ومعلماً ـ إلا دليل أكيد على أن التربية مستمرة. فلقد كان بمقدوره تعالى أن ينزل القرآن الكريم دفعة واحدة «فيهبط بالمعارف والمعلومات والإرشادات وتعاليم الدنيا والآخرة مما زخر به الكتاب الكريم إلى نبيه العظيم... ولئن قيل في هذا... أن هذه التعاليم الحاملة للتربية ساوقت الحوادث وجاءت مرتبطة بها لتكون أكبر في دلالتها وأثبت في نفس من يتلقاها، فلقد كان من الممكن أن يتعلم النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً منها جملة ثم يتولى هو ربطه بالحوادث عند حدوثها وعند إرادة تعليمها للناس»[1]. ولكن مشيئة المولى تعالى ارتأت أن تكون تربية الرسول مستمرة في كل فترة من فترات حياته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة فكانت آخر آية نزلت عليه ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ

---

(١) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة اساس واضح في منهج التربية الاسلامية» مجلة التربية القطرية العدد ١٥، جمادي الاول ١٣٩٦ هـ ومايو/ ايار ١٩٧٦ ص ٣٦،٣٧.

دِينًاۚ ﴾[1] كانت في العام الأخير من حياته وتحديداً في حجة الوداع. ولا يخلو قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةًۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ ﴾[2] من الإشارة إلى استمرارية العملية التربوية إذ أن تثبت الفؤاد بالقرآن الكريم ما هو إلا تعبير عن القدرة على وعي ما حواه من معان وألفاظ وفي ذلك دوام للتعليم واستمرار لتهذيب النفوس وتثقيفها ما دامت هناك حياة.

ولقد حث الرسول الكريم على قراءة القرآن وتدارسه حيث قال «إقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»[3] وقال أيضاً «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (ألم) حرف ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف»[4]. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «يقال لصاحب القرآن إقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[5]. وفي مجال الحث على مدارسة القرآن الكريم ومذاكرته بهدف تفهم معانيه قال الرسول الكريم «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[6]. والرسول في كل ذلك إنما يحفز المسلمين على دوام التلاوة والتدارس بعيداً عن قيد الزمان. بمعنى أنه يدعو إلى استمرار التعلم لطالما استمرت الحياة. خاصة وأن القرآن الكريم بمثابة «البحر المحيط ومنه يتشعب علم الأولين والآخرين كما يتشعب عن سواحل البحر المحيط أنهارها وجداولها»[7]. ومن ثم فالدعوة إلى دوام مدارسته إنما هي في واقع الأمر دعوة

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.
(٣) رواه مسلم في كتاب المسافرين حديث، رقم ٢٥٢.
(٤) رواه البخاري في كتاب الايمان، حديث رقم ٣١.
(٥) رواه الترمذي في كتاب فضائل القرآن، حديث رقم ١٨.
(٦) رواه مسلم في كتاب الذكر حديث رقم ٣٨.
(٧) الغزالي: جواهر القرآن، ص٤.

إلى استدامة التعلم بكشف الجديد الذي يحمله هذا الكتاب المقدس وإماطة اللثام عما خفي من قبل على العقول من المعارف والخبرات»[1].

والقرآن الكريم كما يرى الغزالي يحتوي على سلك من الجواهر وآخر من الدرر «والمقصود من سلك الجواهر اقتباس أنوار المعرفة فقط، والمقصود من الدرر هو الإستقامة على سواء الطريق بالعمل فالأول علمي والثاني عملي وأصل الإيمان العلم والعمل»[2].

والعمر حسب ما يشير الغزالي قصير وقد لا يتسع لجميع العلوم لذلك كان على الإنسان المسلم «أن يأخذ من كل شيء أحسنه فيكتفي بشمة من كل علم ويصرف الميسور من العمر إلى العلم الذي هو سبب النجاة والسعادة وهو غاية جميع العلوم وهي معرفة الله على الحقيقة والصدق»[3]. وحتى لا يسترسل الناس في تلاوة القرآن مكتفين بظواهر معانية لا يرى الغزالي حرجاً في أن يحثهم على الغوص من أجل الوصول لجواهره ودرره فيقول «فإني أنبهك على رقدتك أيها المسترسل في تلاوتك والمتخذ دراسة القرآن عملاً، المتلقف من معانيه ظواهر وجملاً، إلى كم تطوف على ساحل البحر مغمضاً عينيك عن غرائبها أو ما كان لك أن تركب متن لجتها لتبصر عجائبها وتسافر إلى جزائرها لاجتناء أطايبها وتغوص في عمقها فتستغني بنيل جواهرها. أوما تغيّر نفسك في الحرمان عن دررها وجواهرها بإدمان النظر إلى سواحلها وظواهرها»[4].

وبهذا فإن الغزالي يلقي الضوء على جانب من جوانب التربية المستمرة التي يجب أن تلازم الإنسان في حياته وذلك من خلال توضيحه لمفهوم قراءة القرآن انطلاقاً من كون «القرآن الكريم دستور المسلمين ومنبع التشريع لهم وأصل

---

(١) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة» مجلة التربية القطرية العدد ١٥ جمادي الاول، ١٣٩٦هـ ومايو ـ أيار ١٩٧٦، ص٣٦.

(٢) الغزالي: جواهر القرآن، ص٥٢.

(٣) الغزالي: ميزان العمل، ص١٠٠.

(٤) الغزالي: جواهر القرآن، ص٨.

الأصول في المعرفة فمنه يأخذ المسلم مع السنة النبوية أمر دينه ودنياه. وبه يتعلم ويتهذب بما يسوق إليه من آداب ومثل وقيم وبما يفيض به من تعليم وتشريعات وسنن»[١].

وجملة القول أن قراءة القرآن الكريم التي حث عليها الرسول صلى الله عليه وسلم وأوضح مفهومها الإمام الغزالي تعتبر نشاطاً معرفياً على الإنسان أن يداوم عليه. كما وأن الشواهد التي يوردها عن أهمية العلم والتعليم والتعلم في «الإحياء، وفاتحة العلوم» لهي خير دليل على كون التربية ضرورة حتمية لا يمكن الإستغناء عنها ما استمرت الحياة.

وتصبح الحاجة لطلب العلم ملحة عندما ندرك كما يقول الغزالي أن «العلم كثير والعمر قصير»[٢] مما يعني أن حياة الإنسان أقصر من أن تتسع لجميع العلوم. ولذلك لم يتردد الغزالي في السعي باتجاه إيجاد الحلول لهذه المسألة وكان ذلك عن طريق برمجته لإنواع العلوم كي يسهل على الإنسان متابعة التعلم حتى آخر يوم من أيام حياته[٣]. هذا من جهة ومن جهة ثانية رأى الغزالي أن على المتعلم أن يكون انتقائياً في اختياره العلوم وذلك من أجل أن يحظى بسعادة القرب من الله تعالى.

ويحاول الغزالي من خلال آرائه واجتهاداته أن يجد الوسائل التي تساعد على تسهيل عملية التعلم مدى الحياة إيماناً منه بأن التربية المستمرة أساس من الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية. ولقد صدق الرسول الكريم عندما قال «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام فبينه وبين الإنبياء في الجنة درجة واحدة»[٤]. وهذا يعني أن الإنسان مهما تقدم وحصل من العلوم فحذار أن

---

(١) حسين سليمان قورة: «التربية مدى الحياة»، مجلة التربية القطرية العدد ١٥، جمادي الاول ١٣٩٦هـ، ومايو/ايار ١٩٧٦، ص٣٦.

(٢) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٥٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥١.

(٤) رواه الدارمي في المقدمة، حديث رقم ٣٢.

يعتقد أو يظن أنه وصل الغاية المرجوه من تحصيله العلوم وقد قال ابن المبارك حسب ما أورد الغزالي في الإحياء «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل»[١].

٦ ـ متدرجة:

من المعلوم أن هدف التربية الإسلامية يتمثل ببلوغ الكمال الإنساني، غير أن هذا الهدف لا يمكن بلوغه إلا بالتدرج. ولقد كان واضحاً كيف أن آيات القرآن الكريم وأحكامه نزلت بالتدرج طيلة فترة التبليغ التي زادت عن ثلاث وعشرين سنة.

فالتدرج يعتبر أساساً من الأسس التي تقوم عليها التربية الإسلامية وذلك لأن عقيدة التوحيد «تعترف بالإنسان إنساناً لا حيواناً ولا حجراً ولا ملكاً ولا شيطاناً تعترف به كما هو بما فيه من ضعف وما فيه من قوة وتأخذه وحدة شاملة مؤلفة من جسد ذي نوازع وعقل ذي تقدير وروح ذي أشواق... وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق وتراعي التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات، وتلبي كل حاجات الجسد والعقل والروح في تناسق يمثل الفطرة... ثم تحمل الإنسان ـ بعد ذلك ـ تبعة إختياره للطريق الذي يختار»[٢] وفي ذلك يقول تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[٣] ويقول صلى الله عليه وسلم «إن هذا الدين يسر»[٤]. وينهي الرسول صلوات الله عليه عن التشدد في أمور الدين فيقول «لاتشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم»[٥]. أو يقول «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق»[٦] ويشبه الرسول الكريم المتشدد

---

(١) الغزالي: الإحياء، ج١، ص٧٤.
(٢) سيد قطب: الظلال، المجلد الاول، ج٣، ص١١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.
(٤) رواه البخاري في كتاب الايمان حديث رقم ٢٩.
(٥) رواه ابو داود في كتاب الادب، حديث رقم ٤٤.
(٦) رواه احمد في المسند، ج٣، ص١٩٩.

بالمسافر المهلك راحلته دون جدوى: «إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1].

«وهكذا... لا يكلف الإسلام نفسا إلا طاقتها فلا تنكل عن التكاليف ولا تنوء تحتها ولا تبقى قلقة ممزقة بين التكليف والطاقة بل تنعم بالإستجابة وتطمئن بالطاعة وتقر عيناً بها وتستريح»[2].

لذا فإن الإسلام لم ينتقل بالمسلمين الأوائل من أخلاقهم القديمة إلى الأخلاق الإسلامية الجديدة طفرة واحدة إنما تدرج معهم وهيأهم برفق للتكليف في شتى العبادات. فالصلاة مثلاً في أول الأمر لم تفرض عليهم خمس مرات في اليوم بل طلبت منهم صلاة بالغداة والعشي. ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة وكان التكليف قبل ذلك بما استطاعوا من صدقة أو صوم. ومن المعروف أيضاً أن تحريم الخمر على المسلمين تم على مراحل وبعد أن تدرج القرآن معهم حتى انتهى بهم إلى تحريمه بطريقة طبيعية ولم يحرم عليهم الميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التي كانوا يتعاملون بها في جاهليتهم إلا بالمدينة»[3].

والغزالي كغيره من علماء المسلمين الذين تحدثوا عن هذه الخاصية فالماوردي مثلاً يقول «واعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها ومداخل تفضي إلى حقائقها فليبتديء طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها ولا يطلب الآخر قبل الأول ولا الحقيقة قبل المدخل فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقيقة لأن البناء على غير أس لا يبنى والثمر من غير غرس لا يجنى»[4].

أما ابن خلدون فيقول «إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً وقليلاً قليلاً»[5].

---

(١) جاء في كشف الخفاء، ج١، ص٣٠٠ والمقاصد الحسنة، ص٦١٤.
(٢) سيد قطب: السلام العالمي والاسلام، ص٥٨.
(٣) عبد الوهاب خلاف: علم اصول الفقه، ص٢٨٩.
(٤) الماوردي: ادب الدنيا والدين، ص٥٣.
(٥) ابن خلدون: المقدمة. ص٥٣٣.

أما الغزالي فقد تحدث عن هذه الخاصية في أكثر من موقع ومناسبة. فعلى سبيل المثال عندما تكلم عن العلوم المحمودة في إطار تحديده للمنهج الدراسي نراه يوصي بالتدرج كأساس لمتابعة التحصيل وطلب العلم حيث يقول «وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها وقدرت على ترك ظاهر الإثم وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة متيسرة.. فاشتغل بفروض الكفايات وراعي التدرج فيها»[1].

وللعلوم في نظر الغزالي درجات ومنازل أي أن «لكل واحد منها رتبة»[2] لذلك يوصي المتعلم بضرورة مراعاة هذا التدرج بحيث «لا يخوض في فنون العلم بل يراعي الترتيب فيبدأ بالأهم فالأهم ولا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله»[3]. وذلك لأنه يؤمن بأن «العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى البعض»[4] والموفق في نظره هو من يراعي «ذلك الترتيب والتدرج»[5] لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[6] «أي لا يجاوزون فناً حتى يتقنوه علماً وعملاً وليكن قصده من كل علم يتحراه الترقي إلى ما فوقه»[7].

ويوصي الغزالي أيضاً المعلم بضرورة مراعاة مبدأ التدرج بالعملية التعليمية حيث يرى أن من واجب المعلم «أن يقتصر المتعلمين على قدر أفهامهم فلا يرقيهم إلى الدقيق من الجلي وإلى الخفي من الظاهر هجوماً وفي أول رتبه. ولكن على قدر الإستعداد إبتداء بمعلم البشر كافة ومرشدهم»[8] محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال «نحن معاشر الإنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلم الناس على قدر عقولهم»[9].

---

(١) الغزالي: الاحياء، ج١، ص٥٢.
(٢) الغزالي: ميزان العمل ص٩٩.
(٣) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٤) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٥) المرجع نفسه والمكان نفسه.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٢١.
(٧) الغزالي: ميزان العمل، ص٩٩، ١٠٠.
(٨) المرجع السابق، ص١١١.
(٩) رواه أبو الحسن التميمي من الحنابلة. انظر السخاوي: المقاصد الحسنة، ص٩٣.

والغزالي بذلك إنما يعبر عن وجهة نظر الإسلام في العمل من أجل تحقيق الأهداف المرجوة بالدنيا والآخرة. وحيث أن العملية التربوية تحتاج لوقت حتى يتمكن المتعلم من اكتساب الإتجاهات المطلوبة والعادات المرغوبة لذلك كان التدرج في التعليم والتعلم في نظر الغزالي ضرورة ملحة من أجل أن تؤتي التربية ثمارها.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الممتعة ـ رغم وعورة مسالكها ـ نأمل أن نكون قد وفقنا في عرض التربية الإسلامية عندالإمام الغزالي ومناقشتها بأمانة وموضوعية وبأسلوب يسهل الطريق أمام كل طالب علم للوقوف على حقيقتها التي تقوم على قاعدة واضحة المعالم والأهداف انطلاقا من كون الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء.

ويبدو أن الفكر التربوي عند الإمام الغزالي يكتسب أهمية خاصة لأنه جاء نتيجة أحوال أشبه ما تكون بالأحوال التي يعيشها العالم الإسلامي اليوم. وإذا كان الناس قد انبهروا بالعقل وبراهينه وانساقوا خلفه بعيداً عن روح الشريعة الإسلامية آنذاك، نراهم اليوم وقد انجرفوا وراء المظاهر المادية، وافتتنوا ببريق الإختراعات بعيداً عن القيم الأخلاقية والروحية على حد سواء.

واستطاع الغزالي يومها أن «يرسم الطريق للحيارى وأن يبين للآخرين ما وقف على حقيقته ورآه بعين الرشد والبصيرة. وأن يحدد بنظريته معالم الطريق الموحد بعد أن تشتت الآراء وتعددت السبل»[1] ولقد نجح الغزالي لأنه قدم للناس فكراً تربوياً يقوم على مبدأ التربية بالأهداف. إذ أنه بعد أن تمكن من تحديد أهدافه ـ على ضوء نظرته العقدية التي استمدت أصولها من الكتاب والسنة ـ سعى لوضع المنهاج الدراسي الذي يتلاءم مع الأهداف التي خطط لها. ليس هذا فحسب بل أنه اعتمد طرائق التدريس التي سهلت له بلوغ أهدافه بأقصر الطرق وأيسرها.

---

(١) عارف مفضي البرجس: التوجيه الاسلامي للنشء في فلسفة الغزالي، ص١٨٢.

ولم يغفل الغزالي عن مراعاة الفروق الفردية في أثناء العملية التعليمية التعلمية هذا إلى جانب اعتماده التدرج سواء على صعيد تنفيذ المنهاج أو على صعيد تنفيذ العقوبة حال الإضطرار، أو عندما تدعو الحاجة لذلك.

وإلى جانب هذا كله اعتبر الغزالي أن العلاقة بين المعلم والمتعلم من أهم مدخلات العملية التربوية. لذلك فإن هذه العلاقة ـ كما يرى ـ يجب أن تقوم على العطف والمحبة والإحترام لكي يتمكن كلا طرفي العملية التربوية من تحقيق أهدافهما في الرقي لدرجة الكمال الإنساني والسعادة بالقرب من الله تعالى.

وعلى الرغم من النزعة الصوفية التي عرف بها الغزالي في بعض مواقفه إلا أن ما يسترعي الإنتباه أن ذلك لم ينسه شؤون الدنيا وسعادتها التي «يمكن الحصول عليها عن طريق الحياة الفاضلة وتطهير النفس من الرذائل، وحسن التعامل مع الناس. . . فسعادة الدنيا لديه مرتبطة بالبعد عن الماديات مع عدم نسيان نواحي النفع في الحياة. فقد نصح بتعلم العلوم التي لا يمكن أن يستغني عنها الإنسان في حياته والتي لا يمكن أن يسعد مستمتع بدونها كعلوم الطب والحساب وبعض الصناعات. وهنا أيضاً تظهر واقعية الغزالي وعدم نسيان النواحي النفعية التي لا غنى عنها في الحياة الدنيا»[1].

ويمكننا القول: إن التربية عند الغزالي كانت دعوة صريحة للإنسان كي يكتشف نفسه، على أساس أن هذا هو الطريق الصحيح لمعرفة الله تعالى. ومن خلال معرفة الله تعالى يدرك الإنسان موقعه الحقيقي في هذه الحياة وطبيعة العلاقة التي يجب أن تربطه بأخيه الإنسان، وعندها يقتنع بأن الفروقات الفردية بين الناس ليست إلا من صنع البشر، تصديقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]. فميزان التفاضل بين الناس هو ميزان التقوى والعمل الصالح. ولهذا فهو يدعو المتعلم للتفكر بموضوعية بعيداً عن أهوائه ونزواته ـ في كافة شؤون الحياة ـ كي يحظى برضى الله تعالى ويحقق سعادة الدارين.

---

(١) فتحية سليمان: المذهب التربوي عند الغزالي، ص٦٨.

(٢) سورة الحجرات، الآية ١٣.

ومجمل القول إن التربية الإسلامية عند الغزالي استمدت قوتها من خصائص ومقومات التصور الإسلامي لله والكون والإنسان والحياة مما ساعده على النجاح في إرساء أسس نظام تربوي واضح المعالم والأهداف يصلح لأن يستفاد منه إفادة بالغة الأهمية في أي مشروع حل لأزمة التربية التي نعيشها اليوم، خاصة وأن ظروف الأمس أشبه ما تكون بظروف اليوم، إلى جانب أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ولذلك كان الغزالي واضحاً وصادقاً عندما قال بأن «منشور النصيحة يكتب من معدن الرسالة»[1].

فرحم الله الإمام الغزالي يوم حمل لواء العلم للدفاع عن الإسلام والرد على أعدائه، وجعلنا وإياه من خدمة الإسلام، وكتب لنا جميعاً شفاعة نبيه يوم العرض عليه آمين.

---

(١) الغزالي: ايها الولد، ص٩٣.

المصادر والمراجع

ابن الإثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.

- الكامل في التاريخ. دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

ابن جماعة الكناني: بدر الدين ابن أبي اسحاق ابراهيم ابن أبي فضل سعد الله.

- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).

ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي.

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم. مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آبادالدكن ١٩٥٣/ ١٩٤٠م.

- تلبيس إبليس. ط٤. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ابن حزم: ابو محمد علي بن احمد الطاهري.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل. دار الفكر - بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني المروزي.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل. دار صادر - بيروت (بلا تاريخ).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد

- مقدمة (الجزء الأول من كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (بلا تاريخ).

ابن سحنون: محمد

- كتاب آداب المعلمين (ملحق بكتاب أحمد فؤاد الأهواني) التربية في الإسلام، دار المعارف - مصر ١٩٨٠م

ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ط٢. دار المسيرة - بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا
- معجم مقاييس اللغة. تحقيق عبد السلام هارون. ط١. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٦٦هـ.

ابن كثير: أبو الفدا إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي
- البداية والنهاية في التاريخ. مكتبة المعارف - بيروت (بلا تاريخ).

ابن ماجة: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني
- سنن ابن ماجة. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. دار أحياء التراث العربي - بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن كرم
- لسان العرب. ط١. المطبعة الميرية - مصر ١٣٠٠هـ.

الابراشي: محمد عطية
- الإتجاهات الحديثة في التربية. ط٤. دار إحياء الكتب العربية عيسى الباب الحلبي وشركاه - الفاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.
- التربية الإسلامية وفلاسفتها. ط٢. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة ١٣٩٥ هـ.

ابو داوود: سليمان بن الأشعث السجستاني
- صحيح سنن المصطفى. دار الكتاب العربي - القاهرة (بلا تاريخ)

ابو زهرة: محمد
- تاريخ المذاهب الإسلامية. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٩م.

ابو عامر: محمد زكي
- قانون العقوبات القسم العام. الدار الجامعية - بيروت ١٩٩٣م.

ابو العينين: علي خليل
- فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٠م.

ابو الفدا: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل

- المختصر في أخبار البشر. دار الفكر - دار البحار - بيروت ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

احمد: لطفي بركات

- في مجالات الفكر التربوي. ط١. دار الشروق - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الاعسم: عبد الإمير

- الفيلسوف الغزالي. ط١. منشورات عويدات - بيروت (بلا تاريخ).

امين: احمد

- ظهر الإسلام. ط٣. مكتبة النهضة المصرية (بلا تاريخ).
- كتاب الأخلاق. موسوعة أحمد أمين الأدبية. ط٣. دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٩م.

امين: حسن

- تاريخ العراق في العصر السلجوقي. منشورات المكتبة الإهلية. مطبعة الإرشاد - ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

اوبير: رونيه

- الجامع في التربية العامة، ترجمة عبدالله عبد الدائم. مطبعة جامعة دمشق - دمشق ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الاهواني: احمد فؤاد

- التربية في الإسلام. دار المعارف - القاهرة (بلا تاريخ).

البخاري: ابو عبدالله محمد بن أسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي

- صحيح البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت (بلا تاريخ). (مصورة عن مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٥٨م).

بدوي: عبد الرحمن

- مؤلفات الغزالي. ط٢. وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٧م.

البرجس: عارف مفضي

- التوجيه الإسلامي للنشىء في فلسفة الغزالي. ط٢. دار الأندلس - بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

بكر: عبد الجواد السيد

- فلسفة التربية الإسلامية في الحديث الشريف. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة (بلا تاريخ).

البنداري: الفتح بن علي بن محمد

- تاريخ دولة آل سلجوق. ط٢. دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨م.

البهي: محمد

- الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر (مشكلات الحكم والتوجيه). ط٢. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٧٥م.

البيضاوي: ناصر الدين أبي سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. مكتبة الجمهورية المصرية - القاهرة (بلا تاريخ).

الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة

- الجامع الصحيح. تحقيق إبراهيم عطوة عوض. دار إحياء التراث العربي - بيروت (بلا تاريخ).

جمال: أحمد محمد

- دين ودولة. ط٢. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
- محاضرات في الثقافة الإسلامية. ط٣. دار الشعب ١٩٧٥م.

الجمالي: محمد فاضل

- آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٦٨م.
- تربية الإنسان الجديد - الشركة التونسية للتوزيع - تونس ١٩٦٧م.
- نحو توحيد الفكر التربوي في العالم الإسلامي. الدار التونسية للنشر - تونس ١٩٧٢م.

الجمبلاطي: علي، التوانسي: أبو الفتوح

- دراسات مقارنة في التربية الإسلامية. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٣م.

الجندي: أنور

- الإسلام وحركة التاريخ. ط١. دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٨٠م.

حتي: فيليب «ورفاقه»

ـ تاريخ العرب. ط٤. دار الكشاف ـ بيروت ١٩٦٥م.

حسن: أمينة أحمد

ـ نظرية التربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام. ط١. دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨٥م.

حسن: حسن ابرٓاهيم

ـ تاريخ الإسلام. ط٧. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٦٤م.

حسنين: عبد النعيم

ـ سلاجقة إيران والعراق. ط٢. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٧٠م.

حلمي: أحمد كمال الدين

ـ السلاجقة في التاريخ والحضارة. ط١. دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع ـ الكويت ١٣٩٥هـ.

الحموي: أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله

ـ معجم البلدان. ط١. مطبعة السعادة ـ القاهرة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م.

الخطيب: عمر عوده

ـ المسألة الإجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٩٧٠م.

خلاف: عبد الوهاب

ـ علم أصول الفقه. مطبعة النصر ـ القاهرة ١٩٦٥.

خواجه: أحمد

ـ الآداب التعاملية في فكر الإمام الغزالي. ط١. المؤسسة الجامعية للدراسات للنشر والتوزيع ـ بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ ١٤ جزء.

الدارمي: عبدالله بن عبد الرحمن السمرقندي

ـ سنن الدارمي. حققه فواز أحمد زمرلي وخالد السبع العلمي. ط١. دار الريات للتراث ـ القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

دراز: محمد عبدالله

ـ دستور الأخلاق في القرآن. تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبوّر شاهين، مراجعة السيد محمد البدوي. ط١. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الدوري: عبد العزيز

ـ مقدّمة في التاريخ الإقتصادي العربي. ط٤. دار الطليعة ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ديوي: جون

ـ تجديد في الفلسفة. ترجمة مرسي قنديل. الأنجلو المصرية ـ القاهرة (بلا تاريخ).

ـ المبادىء الأخلاقية في التربية. ترجمة عبد الفتاح جلال. الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ١٩٦٦م.

الذهبي: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان

ـ سير أعلام النبلاء. حققه شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي. ط١. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

الرازي: زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر

ـ مختار الصحاح. ترتيب محمود خاطر. مراجعة لجنة من تحقيق التراث لدار الكتب المصرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة (بلا تاريخ).

الراوندي: محمد بن علي بن سليمان

ـ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية. ترجمة إبراهيم الشواربي، عبد النعيم حسنين، فؤاد الصياد. ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م.

رضا: محمد جواد

ـ العرب والتربية والحضارة. دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

رفاعي: احمد فريد

ـ الغزالي. دار المأمون. طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ـ القاهرة (بلا تاريخ).

الزبيدي: أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي

- إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار علوم الدين. دار إحياء التراث العربي - بيروت (بلا تاريخ).

- تاج العروس من جواهر القاموس. ط١. المطبعة الخيرية بمصر - القاهرة ١٣٠٦هـ.

الزرنوجي: برهان الإسلام

- تعليم المتعلم طريق التعلم. تحقيق مروان قباني. ط١. المكتب الإسلامي - بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١.

زيان: بهي الدين

- الغزالي ولمحات عن الحياة الفكرية الإسلامية. مكتبة نهضة مصر بالفجالة ١٩٥٨.

السبكي: تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي

- طبقات الشافعية الكبرى. ط١. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة (بلا تاريخ).

السخاوي: محمد عبد الرحمان

- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. تحقيق محمد عثمان الخشن. ط١. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

سرور: طه عبد الباقي

- الغزالي. سلسلة إقرأ رقم ٣١. دار المعارف بمصر - القاهرة ديسمبر ١٩٥٥م.

سليمان: فتحية حسن

- مذاهب في التربية، بحث في المذهب التربوي عند الغزالي. ط٢. مكتبة نهضة مصر - القاهرة ١٩٦٤م.

سعد الدين: محمد منير

- دراسات في تاريخ التربية عند المسلمين. ط١. دار بيروت المحروسة - بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م

السمعاني: أبو سعد

- الأنساب، تقديم وتعليق عبدالله البارودي. ط١. دار الجنان - بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

شديد: محمد

ـ منهج القرآن في التربية، مؤسسة الرسالة ـ بيروت (بلا تاريخ).

ـ قيم الحياة في القرآن الكريم. دار الشعب ١٩٧٣م.

شلبي: أحمد

ـ تاريخ المناهج الإسلامية. ط٣. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٤م.

ـ التربية الإسلامية ط ٢، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٤م.

شمس الدين: عبد الأمير

ـ التربويات في الفكر العربي الإسلامي. أطروحة دكتوراه دولة في فلسفة التربية. تشرين الثاني ١٩٧٩م. في الجامعة اليسوعية ـ بيروت.

ـ الفكر التربوي عند الإمام الغزالي. دار إقرأ ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

شندب: محمد حسين

ـ الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. ط١. دار النفائس ـ بيروت ١٩٨٤م.

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

ـ الملل والنحل. ط١. دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

شهلا: جورج (ورفاقه)

ـ الوعي التربوي ومستقبل البلاد العربية. ط٢. مطابع الغندور ـ بيروت ١٩٦١.

الشيباني: عمر محمد التومي

ـ من أسس التربية الإسلامية. ط١. المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان ـ طرابلس الغرب ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

الصدر: محمد باقر

ـ فلسفتنا. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت (بلا تاريخ).

صليبا: جميل

ـ تاريخ الفلسفة العربية. ط٢. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٧٣م.

ـ المعجم الفلسفي. دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٩٨٢م.

الطنطاوي: علي

ـ تعريف عام بدين الإسلام. طبعة دار المنارة الأولى. دار المنارة للنشر والتوزيع ـ جدة ـ السعودية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

عبد الباقي: محمد فؤاد

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي (بلا تاريخ).

عبد الجواد: صلاح

- اتجاهات جديدة في التربية الصناعية. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٢م.

عبد العزيز: صالح

- تطور النظرية التربوية. ط٢. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٦٤م.

عبد العزيز: صالح، عبد المجيد: عبد العزيز

- التربية وطرق التدريس. ط١٥. دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٧م.

عبد المجيد: عبد العزيز

- القصة في التربية. ط٤. دار المعارف بمصر - القاهرة (بلا تاريخ).

عبود: عبد الغني

- الإسلام والكون. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧م.
- الفكر التربوي عند الغزالي (كما يبدو من رسالة أيها الولد). ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٨٢م.
- الإنسان في الإسلام والإنسان المعاصر. الكتاب الرابع من سلسلة الإسلام وتحديات العصر. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٨م.
- في التربية الإسلامية. ط١. دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٧م.

العثمان: عبد الكريم

- سيرة الغزالي وأقوال المتقدمين فيه. دار الفكر بدمشق (بلا تاريخ).

عثمان: علي عيسى

- الإنسان عند الغزالي. تعريب خيري حماد. مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة (بلا تاريخ).

العجلوني: إسماعيل بن محمد

- كشف الخفاء ومزيل الألباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تحقيق أحمد القلاش. مكتبة التراث الإسلامي - حلب (بلا تاريخ).

عروة: احمد

- الإسلام في مفترق الطرق. ترجمة عثمان أمين. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

- الجزائر ١٩٨١م.

عسيري: مريزن سعيد مريزن

- الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي. ط١. مكتبة الطالب الجامعي - مكة المكرمة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

العقاد: عباس محمود

- التفكير فريضة إسلامية. ط٦. دار الرشاد الحديثة - بيروت (بلا تاريخ).
- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. ط٢. دار القلم - القاهرة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

علم الدين: محمد

- التربية الإسلامية. كتب إسلامية يصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي. العدد ١٩٠ سنة ١٧ القاهرة محرم ١٣٩٧هـ/ ٥ يناير ١٩٧٧م.

علي: سعيد إسماعيل

- أصول التربية الإسلامية. دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٤م.

الغزالي: محمد

- خلق المسلم. دار القلم للطباعة والنشر - دمشق - بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد

- إحياء علوم الدين. ط. جديدة مخرجة الآيات القرآنية. درا الكتب العلمية بيروت (بلا تاريخ).
- الأدب في الدين، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ).
- إلجام العوام عن علم الكلام، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية - بيروت (بلا تاريخ)
- أيها الولد، تحقيق علي محي الدين علي القره داغي. ط٢. دار البشائر الإسلامية - بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا. ط٤. دار المعارف بمصر - القاهرة (بلا تاريخ).
- جواهر القرآن ودرره. ط٦. دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- الحكمة في مخلوقات الله عز وجل، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار

الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ خلاصة التصانيف في التصوف، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. داز الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ الرسالة اللدنية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ الرسالة الوعظية، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ فضائح الباطنية، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي. الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة (بلا تاريخ).
ـ كيمياء السعادة، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ معارج السالكين، مجموعة رسائل الإمام الغزالي. دار الكتب العلمية ـ بيروت (بلا تاريخ).
ـ معارج القدس في مدارج معرفة النفس. ط١. مطبعة السعادة بمصر ـ القاهرة ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م.

غنيمة: محمد عبد الرحيم
ـ تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى. دار الطباعة المغربية ـ تطوان ١٩٥٣م.

فاندلين: ديو بولد
ـ مناهج البحث في التربية وعلم النفس. ترجمة محمد نبيل نوفل، سليمان الخضري الشيخ، طلعت منصور غبريال، مراجعة د. السيد أحمد عثمان. ط٢. مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٧م.

فلسفي: محمد تقي
ـ الطفل بين الوراثة والتربية. ط٢. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

فهد: بدر محمد
ـ تاريخ الغراق في العصر العباسي الأخير. مطبعة الإرشاد ـ بغداد ١٣١٣هـ/ ١٩٧٣م.

فهمي: محمد سيف الدين

- النظرية التربوية وأصولها الفلسفية والنفسية. مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٠م.

فياض: عبد الله

- تاريخ التربية عند الإمامية وأسلافهم الشيعة. بين عهدي الصادق والطوس. مطبة أسعد ـ بغداد ١٩٧٢م.

الفيروز أبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب

- القاموس المحيط. المؤسسة العربية للطباعة والنشر ـ بيروت (بلا تاريخ).

القابسي: أبو الحسن علي بن محمد بن خلف

- الرسالة المنصلة لأحوال المعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين (ملحق بكتاب أحمد فؤاد الأهواني: التربية في الإسلام). دار المعارف بمصر ـ القاهرة ١٩٨م.

القرشي: باقر شريف

- النظام التربوي في الإسلام. دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

قرضاوي: يوسف

- الإيمان والحياة. ط٢. مكتبة وهبة ـ القاهرة ١٩٧٣م.

القطان: مناع

- مباحث في علوم القرآن. ط٢. منشورات العصر الحديث ـ بيروت ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

قطب: سيد

- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ط١٢. دار الشروق ـ بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- السلام العالمي والإسلام. ط٦. دار الشروق ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- في ظلال القرآن. ط٥. دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.
- التصوير الفني في القرآن. دار الشروق ـ بيروت (بلا تاريخ)

قطب: محمد

ـ منهج التربية الإسلامية. ط١٢. دار الشروق ـ بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

قمير: «الأب» يوحنا

ـ الغزالي، دراسة ومختارات. المكتبة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٤٧م.

القوصي: عبد العزيز

ـ أسس الصحة النفسية. ط٧. مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٨م.

كارادوفو: البارون

ـ الغزالي. ترجمة عادل زعيتر، ط٢. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٤م.

كاريل: الكسيس

ـ الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد. مكتبة المعارف ـ بيروت ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

كبي: جوزيف عبود ورفاقه

ـ أسس التربية وعلم النفس. ط٣. مكتبة الشرق ـ حلب ١٩٦٣م.

الكردي: احمد الحجي

ـ المدخل الفقهي. دار المستقبل للطباعة ـ دمشق ١٤٠١ ـ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١ ـ ١٩٨٢م.

كشك: محمد جلال

ـ الطريق إلى مجتمع عصري. مكتبة الأمل ـ الكويت (بلا تاريخ).

الكليني الرازي: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق

ـ الفروع من الكافي. تحقيق علي أكبر الغفاري. ط٣. دار الكتب الإسلامية ـ طهران ١٣٨٨هـ.

ماضي: علي

ـ فلسفة في التربية والحرية. ط١. دار المسيرة ـ بيروت ١٩٧٩م.

(الإمام) مالك: أبو عبدالله بن أنس بن مالك الأصبحي المدني

ـ كتاب الموطأ. ط١. دار الريان للتراث ـ القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري

ـ أدب الدنيا والدين. ط٢. دار إقرأ ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

مبارك: زكي

- الأخلاق عند الغزالي. المطبعة الرحمانية بمصر - القاهرة (بلا تاريخ)

المجلس الإعلى لرعية الفنون والآداب والعلوم الإجتماعية

- أبو حامد الغزالي في الذكرى المئوية لميلاده. مطابع كوستاتوماس وشركاه - القاهرة ١٣٠٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

محجوب: عبّاس

- أصول الفكر التربوي في الإسلام. ط١. دار أبن كثير. دمشق - بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

محمود: مصطفى

- الماركسية والإسلام. دار المعارف - القاهرة ١٩٧٥م.

مدكور: علي أحمد

- منهج التربية في التصور الإسلامي. دار النهضة العربية - بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

مرسي: محمد منير

- التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية. عالم الكتب - القاهرة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

مسلم: أبو الحسين بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري

- صحيح مسلم بشرح النووي. دار الكتاب العربي - بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

مطاوع: ابراهيم عصمت

- التخطيط للتعليم العالي. ط١. مكتبة النهضة العصرية - القاهرة ١٩٧٣م.

المقري: أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن ابن أبي العيش

- نفح الطيب. المطبعة الشرقية - امستردام ١٩٦٧م.

المودودي: أبو الأعلى

- مبادىء الإسلام. دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٧م.

الميداني: عبد الرحمن حسن حبنكه

- العقيدة الإسلامية وأسسها. ط١. دار القلم - دمشق ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

النجار: الشيخ عبد الرحمن

ـ خواطر مؤمنة. ط١. دار الرائد العربي ـ بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

النوري: عبد الغني

ـ التربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة. ط١. دار قطري بن الفجاءة ـ قطر ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

النوري: عبد الغنيّ، عبود: عبد الغني

ـ نحو فلسفة عربية للتربية. ط١. دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٧٦م.

نشابة: هشام

ـ التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات. ط١. دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٨م.

الهيتي: هادي عثمان

ـ ثقافة الأطفال. عالم المعرفة. العدد ١٢٣ سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت.

اليافعي: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان

ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان. ط٢. مؤسسة الأعلمي ـ بيروت ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

يالجن: مقداد

ـ منهاج الدعوة إلى الإسلام في العصر الحديث. ط١. المطبعة المصرية ومكتبتها ـ القاهرة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

ـ الإتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة. ط١. مكتبة الجابي بمصر ـ القاهرة ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

المجلات والنشرات

صحيفة التربية: تصدرها رابطة خريجي معاهد وكليات التربية ـ مصر ـ القاهرة.

مجلة الأزهر: تصدر عن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ـ القاهرة.

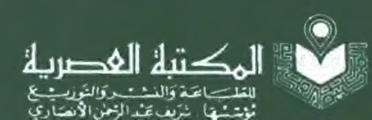
مجلة التربية: تصدر عن اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم ـ قطر.

نشرة تربوية: صادرة عن معهد التربية التابع لرئاسة وكالة الغوث (عمان ـ الأردن) محمد سامي هنا Ed.R1

المراجع الأجنبية

Barazun, J.M. ÏTeacher In AmericaÏ, Boston, 1945.
Brubacher, J.S., ÏModern Philosophies of EducationÏ, N.Y., 1950.
Morrison, H.C., ÏBasic Principles In EducationÏ, London 1944

المحتويات


المكتبة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسها : شريف عبد الرحمن الأنصاري